



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>

HARVARD COLLEGE LIBRARY

Bought with the income of
THE KELLER FUND

Bequeathed in Memory of
JASPER NEWTON KELLER
BETTY SCOTT HENSHAW KELLER
MARIAN MANDELL KELLER
RALPH HENSHAW KELLER
CARL TILDEN KELLER



11. 11. 11



ناتج الإنديش

﴿المسمى﴾

(بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب)

—*~*~*~*~*~*—
﴿تأليف﴾

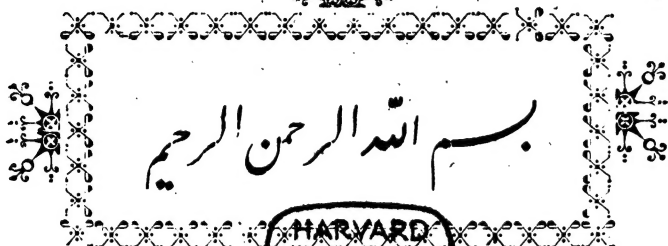
الشيخ الفقيه الحافظ المتقن الواعظ المتفنن
عبي الدين أبي محمد عبد الواحد بن
علي التميمي المراكشي رحمه
الله ورضي عنه آمين

—*~*~*~*~*~*—
(طبع على ذمة مصطفى فهمي الكتي بمصر)

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)
« لصاحبها محمد اسماعيل »

OL 21913.1
✓ B

OL 28832.84.1
✓ B



بسم الله الرحمن الرحيم

HARVARD
UNIVERSITY
LIBRARY
APR 6 1959

الحمد لله . مفي الام . وبلغت الرمم . وواهب الحكم ذى
البقاء والقدم . الذي لا مطمع في ادراكه لتواقب الازدهان . ونوافذ
الهمم . احمده على ما علم وأهم وسوغ وأنعم . وصل الله على كاشف
الظلم . ورافع التهم . وموضح الطريق الأتم . المخصوص بجوامع
الكلم . والمبعوث الي كافة العرب والعجم وعلى آله وصحبه أهل الفضل
والكرم . وسلم عليه وعاليهم وشرف وعظم

(وبعد) أيها السيد الذي تواليت على نعمه . وأخذ بضيعي من
حضيضى الفقر والاحمول اعتناؤه وكرمه . وقضى احسانه إلي ومحبتة
التي جبلت عليها بأن ألزمت من برة وطاعته ما أنا ملتزمة . فانك
سألتي بوأك الله أعلى الرتب . كما عمر بك أندية الادب . ومنحك
من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القسم . كما جمع لك فضيلتي التدبير
والقلم . املاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وحياته وحدود
أقطاره وشي من سير ملوكه وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن
من لدن ابتداء دولتهم الي وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وأن ينضاف الي

ذلك نبذة من ذكر من اقبلته أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل فلم أرَ بدءاً من إسعافك والمسارة الى ما فيه رضاك إذ هي الغاية التي أجري إليها • والبغية التي أنابر أبدأ عليها • ولوجوب طاعتك على • من وجوه يكثر تعدادها فاستخرت الله عز وجل فيما نذبتني إليه • واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه • فهو المواءم والمليح وهو حسبنانوم الوكيل هذا مع اني أعتذر الى مولانا فسح الله في مدته من تقصير ان وقع بثلاثة أوجه من الاعذار فأولها ضعف عبارة المملوك وغلبة العي على طباعه فهما وقع في هذا الاملاء من فتور لفظ أو اخلال بسرده فهو خليف بذلك والوجه الثاني انه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شيء اعتمد عليه واجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين. وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إلي لأحد فيهما تأليف أصلاً خلا اني سمعت بعض أصحابنا جمع اخبارها واعتني بسيرها وهذا المجموع لا أعرفه الا سماعاً والوجه الثالث ان محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر وغموم تستغرق الفكر فرغبة المملوك الأصغر اجراء مولانا إياه على جميل عادته وحيد خلقه من التسامح والتغاضي لا زال مجده العالي يرفع الهمم • ويعقد الذمم • ويوصل النعم • ويعمر ربوع الفضل والكرم ••



﴿ فصل في ذكر جزيرة الاندلس وحدودها ﴾

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الاندلس وتجهيدها
والتعريف بمدنها وقبذ من أخبارها وسير ملوكها من لدن فتحها الى
وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ اذ هي كانت معتمد المغرب الاقصى والمعتبرة
منه والمنظور اليها فيه وهي كانت كرسي المملكة ومقر انتدير وأم قري
تلك البلاد لم يزل هذا معروفا من أمرها الي أن تغلب عليها يوسف
ابن تاشفين اللمتوني فصارت اذ ذاك تبعاً لمراكش من بلاد العدو
ثم تغلب عليها المصامدة بعده فاستمر الامر على ذلك الى وقتنا هذا
فأقول وبالله التوفيق

أما حدود جزيرة الاندلس فان حدها الجنوبي منتهي الخليج
الرومي الخارج من بحر مانطس وهو البحر الرومي مما يقابل طنجة
في موضع يعرف بالزقاق سعة البحر هناك اثنا عشر ميلا وهذا
الخليج هو ملتقى البحرين أعني بحر مانطس وبحر اقنايس وحدها
الشمالى والمغربى البحر الاعظم وهو بحر اقنايس المعروف عندنا بحر
الظلمة وحدها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين
البحرين بحر الروم وهو مانطس والبحر الاعظم ومسافة ما بين
البحرين في هذا الجبل قريبة من ثلاث مراحل وهو الحد الاصغر
من حدود الاندلس وحدها الاكبران الجنوبي والشمالى مسافة كل
واحد منهما نحواً من ثلاثين مرحلة وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه
هيكل الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الاندلس هو الحاجز ما بين
بلاد الاندلس وبين بلاد أفرنسة من الارض الكبيرة ارض الروم التي

هي بلاد أفرنجية العظمى والاندلس آخر المعمور في المغرب لأنها كما ذكرنا منتبهة الى بحر اقنابس الذي لا عمارة وراءه ومسافة ما بين طليطلة التي هي قريبة من وسط الاندلس ومدينة رومية قاعدة الارض الكبية قريبة من أربعين مرحلة ووسط الاندلس كما ذكرنا مدينة طليطلة العتيقة التي كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب فصارت بذلك قريبة من وسط الاقليم الخامس وأقل بلاد الاندلس عرضا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء البحر الجنوبي منها وعرضها ست وثلاثون درجة وأكثر مدنها عرضا بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة فبين بما ذكرنا ان معظم الاندلس في الاقليم الخامس أميل الى الشمال فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وايضت ألوانهم وكانت أذهابهم الى الغايظ ماهي فبت عن كثير من الحكمة وطاقة من الاندلس في الاقليم الرابع كاشيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية فهذه البلاد التي ذكرنا في الاقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التي في الاقليم الخامس وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك اذ كان للميول والسموت في اللغات تأثير بين لمن استقر في ذلك وفهم علته وجملة مدن الاندلس التي هي أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الأمر منها أولها في الحد الشمالي مدينة شلب ثم مدينة اشيلية ثم قرطبة ثم جيان ثم غرناطة ثم المرية ثم مرسية ثم بلنسية ثم مالقة وهي على البحر الرومي

فالذي على البحر الاعظم من هذه المدائن شلب واشيلية وبينهما قريب من خمس مراحل والذي على البحر الرومي المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من اعمال اشبيلية ثم مالقة وهي مستقلة ثم المريجة ثم دانية هذه كلها على البحر الرومي ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل ولما استقر أمر المسلمين بالاندلس في غرة المائة الثانية تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسي المملكة ومقر الامارة فلم تزل على ذلك الي أن انقضت دولة بني أمية بالاندلس فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلب على ما سيأتي بيانه وهذه المدن التي ذكرت هي التي يملكها المسلمون اليوم وقد كانوا يملكون قبها مدنا كثيرة لم أذكرها في هذا الموضع الا ان ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الاندلس تعرف ذلك بقولي أعادها الله للمسلمين فهذه جملة من أخبار الاندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين

❦ ذكر فتح جزيرة الاندلس ❦

❦ ولمع من تفصيل أخبارها وسير ملوكها ❦

ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود الى افتتاحها فقول والله الموفق افتتح المسلمون جزيرة الاندلس في شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة وكان فتحها على يدي طارق قيل بن زياد وقيل ابن عمرو وكان والياً على طنجة مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان في أقصى المغرب بينها وبين الاندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق وبالحجاز رتبته موسي بن نصير أمير

القيروان وقيل أن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على
المساكر وانصرف إلى أبيه لأمير عرض له فركب طارق البحر إلى
الاندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء منتزعا لفرصة أمكنته وذلك
أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خطب إلى
الملك الأعظم ابنته فاغضب ذلك الملك ونال منه وتوعده فلما بلغه ذلك جمع
جوعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك فباغ طارقاً خلوا تلك الجهة فهذه
الفرصة التي انتهزها وقيل أن العلاج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذا كرم
وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسم يوجه إليه أعيان
قواده و..... بناتهم فيرهبهن عنده في قصوره ويؤدبن بالآداب
الملوكية حسبما كانوا يرونه..... فإذا بلغت الجارية منهن
وحسن أدها زوجها من قصره لمن يرى كفواً أبيها فوجه إليه
صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بأبنته على الرسم المذكور فكانت
عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء فرآها يوماً فاعجبته فدعاها فأبت عليه وقالت
لا والله حتى تحضر الملوك والتواد وأعيان البطارقة وتزوجني هذا
بعد مشورة أبي فغلبته نفسه واعتصبها على نفسها فكتبت إلى أبيها
تعلمه بذلك فهذا كان السبب الذي بعته على مكتبة طارق والمسلمين فكان
الفتح قاله أعلم أي ذلك كان فأول موضع نزله فيما يقال منها المدينة
المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم نزلها قبيل النجر فصرى بها الصبح بموضع
منها وعقد الرايات لاصحابه فبني بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد
الرايات وهو باق إلى وقتنا هذا أسأل الله إبقاءه إلى أن تقوم الساعة
ثم دخل طارق هذا الاندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها
وكتب إلى موسى بن نصير موليه بنجر الفتح وغلبته على ماغلب عليه

من بلاد الاندلس وما حصل له من الغنائم فحسده موسى على الانفراد بذلك وكتب الى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه الى نفسه وكتب الى طارق يتوعده اذ دخالها بغير اذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه الذي ينتهي اليه الكتاب فيه حتي يلحق به وخرج متوجها الى الاندلس واستخلف على القيروان ابنه عبد الله وذلك في رجب من سنة ٩٣ وخرج معه حبيب بن أبي عبدة الفهري ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر في عسكر ضخم ووصل من جهة الحجاز الى الاندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريرق الملك لعنه الله بالاندلس فلتقاه طارق وترضاه ورام أن يستل ما في نفسه من الحسد له وقال له انما أنا مولاك ومن قبلك وهذا الفتح لك وبسبك وحمل طارق اليه ما كان غنم من الاموال فلذلك نسب الفتح الى موسى ابن نصير لان طارقا من قبله ولانه أتم من الفتح ما كان بقي على موسى وأقام موسى بالاندلس مجاهداً وجامعا للاموال ومرتباً للامور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهرها من سنة خمس وقبض على طارق ثم استخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز بن موسى وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو ورجع الى القيروان ثم سار منها بما حصل له من الغنائم وأعدّه من الهدايا الى الوليد بن عبد الملك وكان مما وجد بمدينة طليطة حين فتحها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام فيقال انها طوق ذهب وطوق فضة مكحلة باللؤلؤ والياقوت ومعه فيما يقال طارق فمات الوليد وقد وصل موسى الى طبرية في سنة ٩٦ فحمل ما كان معه الى سليمان بن عبد الملك ويقال انه وصل وأدرك الوليد حيا فآله أعلم وأقام عبد العزيز بن موسى

ابن نصير أميراً على الاندلس الى أن نار عليه من الجند جماعه فيهم
 حبيب بن أبي عبدة الفهرى وزيايد بن النابغة التيمي فقتله بعضهم
 وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وذلك في صدر سنة ٩٨ بعد
 أن أمروا على الاندلس أيوب بن أخت موسى بن نصير ويقال أنهم
 كتبوا الى سليمان بما أنكروا من أمره فأمرهم بما فعلوه قاله أعلم ثم
 اختلف الامر هنالك ومكث أهل الاندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم
 وال ثم ولي عايبها السمع بن مالك الخولاني قبل المائة واجتمع عليه
 الناس ثم ولي عايبها الغمر بن عبد الرحمن بن عبد الله ثم وليها عنبسة
 ابن سحيم الكلبي وعزل الغمر بن عبد الرحمن ثم وليها عبد الرحمن بن
 عبد الله العكي انحوا من العشر ومائة وكان رجلاً صالحاً ثم وليها عبد الملك
 ابن قطن الفهرى ثم عقبه بن الحجاج فهلك عقبه بالاندلس ورُد عبد
 الملك بن قطن ثم جاء باج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن
 عبد الملك وشهد له بعض ما كان معه ووقعت فتن من أجل ذلك وافترق
 أهل الاندلس فيها على أربعة أمراء حتى أرسلوا اليهم واليا أبو الخطار
 حسام بن ضرار الكلبي فحسم مواد الفتن وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة
 وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف إلا أن هؤلاء
 المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب
 دولتهم من المشرق

﴿ ذكر من دخل الاندلس من التابعين ﴾

وأنا ذاكرها هنا من دخل الاندلس من التابعين للجهاد والرباط
 فمنهم محمد بن أوس بن ثابت الأنصاري يروي عن أبي هريرة ومنهم

حذث بن عبد الله الصنعاني يروي عن علي بن أبي طالب وفضالة بن عبيد ومنهم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي يروي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومنهم يزيد بن قاصط وقيل بن قسيط النسكي المصري يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ومنهم موسى بن نصير الذي ينسب الفتح اليه يروي عن تمم الداري

(فصل) وقد جاء في فضل المغرب غير حديث فمن ذلك ما حدثني الفقيه الامام المتقن الثماني أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل الشيباني سماعا عليه بمكة في شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال حدثني المؤيد بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بنيسابور قال حدثنا الامام كمال الدين محمد بن أحمد بن صاعد القراوي قراءة عليه قال حدثنا بن عبد الغافر الفارسي حدثنا محمد بن عيسى بن عمرو بن الجلودي حدثنا أبو اسحق ابراهيم بن سفيان حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال حدثنا يحيى بن يحيى عن هشام بن بشر الواسطي عن داود ابن ابي هند ابن ابي عثمان النهدي عن سعد بن ابي وقاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يزال أهل المغرب ظامرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة ومن فضل الاندلس انه لم يذكر قط أحد على منابرها من السلف الا بخير وما زالت الولاة بالاندلس تاليها من قبل بني أمية أو من قبل من يقيمونه بالقيروان او بمصر فلما اضطرب أمرهم في سنة ١٣٦ بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اشتغلوا عن مراعاة اقصي البلاد ووقع الاضطراب بأفريقية والاختلاف بالاندلس أيضا بين القبائل ثم اتفقوا بالاندلس على تقديم قرشي يجمع الكلمة الى أن تستقر الامور بالشام لمن يخاطب

ففعّلوا وقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري فسكنت به الامور
 واتفقت عليه القلوب واتصلت امارته الى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة
 بني أمية بست سنين

﴿ ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ﴾

وفي هذه السنة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد
 الملك بن مروان الاندلس الملقب بالداخل فقامت معه اليمانية وحارب
 يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري الوالي على
 الاندلس المذكور أنفا فهزمه واستولى عبد الرحمن على قرطبة دار
 الملك وكان دخوله اياها يوم الاضحى من السنة المذكورة فاتصلت ولايته
 الي أن مات سنة ١٧٢ وكان مولده بالشام سنة ١١٣ أمه أم ولد اسمها
 راح ويكنى أبا المطرف دخل الاندلس في ذي القعدة واستولى على
 قرطبة دار ملكها في التاريخ المذكور وذلك أنه هرب من الشام لما
 انتشرت دولة بني العباس فلم يزل مستترا ينتقل في بلاد المغرب حتي
 دخل الاندلس ودخل حين دخلها طريذا وحيداً لا أهل له ولا مال
 فلم يزل يصرف حيله ويسمو بهمته والقدر مع ذلك يوافقه الى أن
 احتوى على ملكها وملك بعض بلاد العدو وكان أبو جعفر المنصور
 اذا ذكر عنده قال ذاك صقر قریش وكان عبد الرحمن بن معاوية من
 أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل ومن قضاياه معاوية بن صالح
 الحضرمي الحمصي وله أدب وشعر ومما أنشد وقاله يتشوق الى معاهده
 بالشام قوله

أيها الراكب الميمم ارضي أقر من بعضي السلام لبعضي

أن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض
 قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي
 قد قضى الله بالفراق عنا فعمي باجتماعنا سوف يقضي
 وله شعر كثير أبرع من هذا أورده المؤرخون في كتبهم وكانت
 مدة ولايته منذ استولي على قرطبة دار الملك الى أن توفي اثنتين
 وثلاثين سنة

﴿ ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن ﴾

ثم ولي بعد عبد الرحمن ابنه هشام يكنى أبا الوليد وسنه حينئذ
 ثلاثون سنة واتصلت ولايته سبعة أعوام الى أن مات في صفر سنة ١٨٠
 وكان حسن السيرة متحررا للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق
 بالصدقات الكثيرة وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه
 صرر الدراهم يتجرى بهما الساتير وذوى البيوتات من الضعفاء لم يزل هذا
 مشهوراً من أمره الى أن مات في التاريخ المذكور أمه أم ولد اسمها حوراء

﴿ ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضي ﴾

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكنى أبا العاص أمه
 أم ولد اسمها زخرف وكان طاعيا مسرعا وله آثار سوء قبيحة وهو الذي
 أوقع بأهل الربض الواقعة المشهورة فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم
 وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل
 بهم ذلك فسمي الحكم الربضي لذلك وفي أيامه أحدث الفقهاء انشاد
 اشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع اعني صوامع

فلساجد وأمرُوا أن يخطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا يا أيها المشرف المتماذي في طغيانه المصر على كبره المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم إلى أن كان من أمرهم ما كان . وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الاندلس أنه لما تُسَوِّرَ عليه القصر وأُحس بالشَّرِّ قال لأخص غلمانَه اذهب إلى فلانة إحدى كرائمه وقل لها تعطيك قارورة الغالية فابطأ الغلام وتلكاً فأعاد ذلك عليه فقال يا مولاي هذا وقت الغالية فقال له ويالك يا ابن الفاعلة بما يعرف رأسي إذا قطع من روس العامة أن لم يكن مضمجاً بالغالية ثم أنه ظهر بعد هذا عليهم وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر * وخاصة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيل من ورأهم فانهزموا وقتلوا قتلا قبيحاً وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد فخرجوا حتى نزلوا جزيرة أفریطش من جزائر البحر الرومي المقاتلة لبر برقة أول المغرب فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا فرجع بعضهم إلى الاندلس واختار بعضهم سكنى صقاية وانتقل بعضهم إلى الاسكندرية ومن أعجب ما حكى أبو مروان بن حيان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الواقعة قال كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضا رجل من الفقهاء اسمه طالوت كان جليل القدر في الفقهاء رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقه على أصحابه وكان قويا في دينه فلما أوقع الحكم باهل الربيض كما ذكرنا وأمر بتغريب من بقي منهم كان ممن أمر بتغريبه

طالوت الفقيه ففسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ورأى الاختفاء الى
 أن تتغير الاحوال فاستخفى في دار رجل يهودي سنة كاملة واليهودي
 في كل ذلك يكرمه ابانج الكرامة ويعظمه أشد التعظيم فلما مضت السنة
 طال على الفقيه الاختفاء فاستدعى اليهودي وشكره على احسانه اليه
 وقال له قد عزمْتُ غدا على الخروج وقصد دار فلان الكاتب لانه قرأ
 علي ولي عليه حق التعاميم وقد بلغني ان له جاها عند هذا الرجل فعسى
 هو يشفع لي عنده فيومني ويدعني في بلدي فقال له اليهودي يامولاي
 لا تفعل فما آمنهم عليك وجعل يحلف له بكل يمين يعتقد انه لو أقام
 عنده بقية عمره ما امله ذلك ولا ثقل عليه فاني الا الخروج نخلى بينه
 وبين ذلك فخرج حتي أتى دار ذلك الكاتب بغلس فاستأذن عليه فاذن
 له فلما دخل عليه رحب به وادنى مجلسه وسأله أين كان في هذه المدة
 فقص عليه قصته مع اليهودي ثم قال له اشفع لي عند هذا الرجل حتي
 يومني في نفسي ويمن علي بتركي في بلدي فوعده بذلك وركب من فورهم
 ودخل على الحكم

فقال وقد مضى ليل وثمان	ولم يسمعه غني ليت شعري
أجاري المونسي ليلا غناء	لخير قطع ذلك أم لشر
فقالوا انه في سجن عيسى	أتوه به بليل وهو يسرى
فنادى بالطويلة وهي مما	يكون براسه لجليل أمر
ويم جار عيسى بن موسى	فلاقاه باكرام وبر
وقال أحاجة عرضت فاني	لقاضيهها ومتبعها بشكر
فقال سيجنت لي جار ايسمي	بعمر و قال يطلق كل عمرو
بسجني حيث وافقه اسم جار الفقيه ولو سجنتمهم بوتر	

فاطلةهم له عيسى جميعا لجار لا ينبت بغير سكر
 فان أحببت قل لجوار جار وان أحببت قل لطلاب اجر
 فان أبا حنيفة لم يأت من تطالبه بخاصه بسوزر
 وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عمر في شعره ان أبا حنيفة
 رحمه الله كان يجاوره رجل كيال فكان كل ليلة يأخذ سمكة ورغيفا
 وشيثاً من النبيذ فاذا صلى العشاء الاخيرة اكل ثم شرب حتى اذا انتشى
 رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت

اضاعوني وأي فتى اضاعوا ليوم كريمة وسداد نعر
 فلا يزال يعيده حتى يغلبه النوم وكان أبو حنيفة على ما اشتهر
 عنه يحبي الليل كله صلاة فلما كان في بعض الليالي فقد صوت ذلك
 الرجل فقال لبعض من عنده ما فعل جارنا هذا الذي كان يغني كل ليلة
 أهو مريض أم غائب فقالوا له انه مسجون فقال ومن سجنه فقالوا
 خرج في الليل لبعض حاجته فلقه أصحاب عيسى بن موسى صاحب
 الشرطة فاتوا به فامر بسجنه فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب
 دابته وقصد عيسى بن موسى في بيته فلما أعلم عيسى بمكان أبي حنيفة
 خرج يتلقاه مسرعا وبالغ في تكريمه وبره وسأله عن حاجته فقال لي في
 سجنك جار اسمه عمرو فقال عيسى يطلق كل من كان اسمه عمرو
 بسجني من أجل جار الفقيه فاطلقه وخلقا كثيراً معه فاتى الرجل أبا
 حنيفة يتشكر له فلما وقعت عينه عليه قال له أضعناك قال الرجل لا
 والله بل حفظت الجوار حفظك الله والبيت الذي نظمه أبو عمرو كان
 يغني به الرجل جار ابي حنيفة هو للعرجي رجل من ولد عثمان بن
 عفان سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة فلم يزل

بسجنه الى ان مات وخرجت جنازته من السجن ولابي عمر هذا
 شعر كثير جيد وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الاندلس
 فلما على حفظي له اول قصيدة يمدح بها أبا علي القالي وهي
 من حاكم بيني وبين عذولي الشجوشجوى والعويل عويلي
 اقصر فما دين الهوى كفرولا. اعتد لومك لي من التنزيل
 عجا لقوم لم تكن اذهانهم لهوى ولا اجسادهم لنحول
 دقت معاني الحب عن افهامهم فتأولوه اقبح التأويل
 في أي جراحة أصون معذبي سلمت من التعذيب والتكيل
 ان قلت في عيني فم مدامعي أو قلت في قلمي فم غليلي

هذا ما بقى في حفظي منها وكان أبو عمر هذا من مقدمي شعراء
 الحكم المستنصر وكان مختصا بابي الحسن المصحفي منضويا اليه وهو الذي
 حمله على هجو محمد بن ابي عامر فلما افضى الامر الى محمد قبض على
 المصحفي واستصفي أمواله ووضع في المطبق فلم يزل به حتي مات جوعا
 وهزلا وأما ما كان من ابي عمر الشاعر فانه أوسع عقوبة ونكالا وأمر
 بتغريبه فشفع له عنده في ان يتركه ببلده فاذن في ذلك غير انه خرج
 الامر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة أمر مناديه
 ان يتادي في جميع جهات قرطبة فاقام أبو عمر هذا كالميت الى ان مات
 موته الوفاة في آخر أيام ابي عامر وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو
 الروم ومن خلفه من المحاربين فاتصلت ولايته الى أن مات في صفر
 سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويع له الى أن مات ست عشر سنة
 واشهرأ وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المويد لم يعيش له ولد غير

❦ ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر ❦

ثم ولي بعده ابنه هشام بن الحكم يكنى أبا الوليد أمه أم ولد
 اسمها صبح وسنه اذ ولي عشرة أعوام وأشهر فلم يزل متغيباً لا يظهر
 ولا ينفذ له أمر وكان الذي تغلب على أمره أولاً وتولى حجابته وتنفيذ
 أموره وتدبير مملكته أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن
 الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافري القحطاني وكان أصل
 ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء من قرية من
 أعمالها تسمى طرُش على نهر يسمى وادي آروا إلا أنه كان شريف
 البيت قديم التعين ورد شاباً الى قرطبة فطلب العلم والادب وسمع
 الحديث وتميز في ذلك وكانت له همة يحدث بها نفسه بادرارك معالي الامور
 وتزيد في ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك وله في
 ذلك أخبار عجيبة قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن
 أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي طرفاً في كتابه المترجم بالاماني
 بالصادقة فمن جملتها قال الحميدي حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن حزم
 قال أخبرني أبو عبد الله محمد بن اسحق التيمي قال كان محمد بن أبي
 عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي فدخلت عليه في بعض الليالي
 في آخر الليل فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل
 حين فصلت عنه فقلت له ما أراك نمت الليلة قال لا قلت فما أسهرك قال
 فكرة عجيبة قلت فيما ذا كنت تفكر قال فكرت اذا أفضي الي الأمر
 ومات محمد بن بشير القاضي بمن استبدله ومن الذي يقوم مقامه فجات
 الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً قلت لعله محمد بن

السليم قال هو والله هو لشذ ما اتفق خاطري وخاطرك قال الحميدي
وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال كان ابن أبي عامر يوماً جالساً
مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم ليختر كل واحد منكم
خطة أوليه إياها إذا أفضي إلي الأمر فقال أحدهم توليني قضاء كورة رية
وهي مالقة وأعمالها فانه يعجبني هذا التين الذي يجيء منها وقال الآخر
توليني حسبة السوق فاني أحب هذا الاسفنج وقال الثالث إذا أفضي إليك
الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا
مطلى بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل وافتروا على هذا فلما أفضى
الأمر إليه كما تمنى باغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب ولم تزل حاله
تعلو منذ ورد قرطبة إلى أن تعلق بوكالة السيدة صبح أم هشام المؤيد بن
الحكم والنظر في أموالها وضياعها فزاد أمره في الترقى معها إلى أن مات
الحكم المستنصر وكان هشام صغيراً كما ذكرنا وخيف الاضطراب
فضمن لصبح سكون الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها وكان
قوى النفس وساعده المقادير وأمدته المرأة بالأموال فاستمال العساكر
إليه وجرت أحوال عات قدمه فيها حتى صار صاحب التدبير والمنقلب
على الأمور وحجب هشام المؤيد وتلقب هو بالمنصور فأقام الهيبة فدان
له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته
لعظم هيئته وفرط سياسته واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن
جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفي ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبد
الملك بن إدريس الجزيري ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن
الزبيدي الذي اختصر كتاب العين وقد تقدم ذكره وكان قد ولام
شرطته وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه

واستوزر أبا العلاء صاعد بن الحسن الربيعي اللغوي البغدادي وله معه أخبار مستطرفة ولعلّي سأورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء الله تعالى وكان محباً للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في الأكرام من ينسب إلى شيء من ذلك ويفد عليه متوسلاً به بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه ورد عليه الأندلس في أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي المذكور آنفاً فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً حجة وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ أظن أصله من بلاد الموصل دخل بغداد فقرأ بها وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكّه المجالسة ممتعاً فأكرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والافضال عليه وكان مع ذلك محسناً لطريقة السؤال حاذقاً في استخراج الأموال طباً بلطائف الشكر أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً في مجلس أنسه وقد كان تقدم له أن اتخذ قيصاً من رقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه فلبسه تحت ثيابه فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد تجرد وبقي في القميص المتخذ من الخرائط فقال له ما هذا يا أبا العلاء فقال هذه الخرائط التي وصلت إليّ فيها صلات مولانا اتخذها شعاراً وبكى وتابع ذلك من الشكر فصلا كان رواه فأعجب ذلك المنصور وقال له لك عندي مزيد وكان كما قال وألف له أبو العلاء هذا كتاباً فنها كتاب سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل للغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر نهر قرطبة فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب فقال في ذلك بعض الشعراء

وهو أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن العريف بيتاً مطبوعاً
بمحضرة المنصور وهو

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقیل يفوص
فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً ولا هاله وقال
مرتبلاً بحياً لابن العريف

* عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص
وكتاب آخر على نحو كتاب الخزر جي أبي السري سهل بن أبي غالب
سماه كتاب الهجف بن غيدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخزومة
ابن أنيف وكتاب آخر في معناه ساه كتاب الجواس بن قطلع المذحجي
مع ابنة عمه عفراء وهو كتاب مليح جداً انخرم أيام الفتن بالأندلس
فنفقت منه أوراق لم توجد بعد وكان المنصور كثير الشغف بهذا
الكتاب أعني الجواس حتي رتب له من يخرج له امامه كل ليلة ويقال
ان أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أنس لأحد من ولى
الأمر بعده من ولده وادعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه
على عصي ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة الى أن ذهبت
دولتهم وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفر أبي مروان عبد
الملك بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وهو الذي ولى بعد أبيه وأولها

اليك حدوت ناجية الركاب محيلة أمانى كالهضاب
وبعت ملوك أهل الشرق طراً بواحد لها وسيدها اللباب

وفيه يقول

الى الله الشكية من شكاة رمت ساقى فحل بها مصابي
وأقصنتني عن الملك المرجي وكنت أرم حالي باقترابي

ومما استحسن له قوله

حسبت المتعنين على البرايا فألفت اسمه صدر الحساب
وما قدمته إلا كآني أقدم تالياً أم الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدي أخبرني أبو محمد علي بن الوزير أبي عمر أحمد ابن سعيد بن حزم أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفر في عيد الفطر سنة ٣٩٦ قال أبو محمد وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر ولما رأيته أبا العلاء استحسناها وأصغى إليها كتبها لي بخطه وأنفذها إليّ انتهى كلام الحميدي وكان أبو العلاء كثيراً ما تستغرب له الألفاظ ويسأل عنها فيجيب بأسرع أجواب على نحو ما يحكي عن أبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لجل على التصديق في كل ما يأتي به من ذلك وقد ظهر صدقه في بعض ما قال فما يحكي عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوماً وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه القلب والتزيب وهذه عندهم أسماء لمعانة الأرض قبل الزرع فقال له أبا العلاء قال لبيك مولانا قال هل رأيت فيما وقع اليك من الكتب كتاب القوالب والدوالب لميدمان بن يزيد قال أي والله يا مولانا رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل في جوانبها علامات الوضع هكذا هكذا فقال له أما تستحي أبا العلاء هذا كتاب عاملي ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا (الذي تقدم ذكره) وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب ونسبته إلى عاملي لا أختبرك فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمر وافق فقال له المنصور مرة أخرى وقد قدم طبق فيه تمر يا أبا العلاء

ما التمركل في كلام العرب قال يقال تمركل الرجل تمركلا اذا التفت في كسائه وله من هذا كثير ولكنه مع هذا كان عالماً قال أبو عبد الله الحميدي حدثني أبو محمد علي بن أحمد قال حدثني الوزير أبو عبدة جسان بن مالك بن أبي عبدة عن أبي عبد الله العاصمي النحوي قال لما قدم صاعد بن الحسن اللغوي على المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر جمعنا معه فسألناه عن مسائل من النحو غامضة فقصر فيها فلما رآه ابن أبي عامر كذلك قال دعوه هو من طبقتي في النحو أنا أناظره قال ثم سألنا صاعد فقال مامعني قول امرئ القيس

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

فقلنا هذا واضح وإنما وصف فرساً أشهب عقدت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا فقال صاعد سبحان الله أنسيتم قوله قبل هذا كبيت يزل البled عن حال مثله كما زلت الصفواء بالمتنزل

قال فبهتتا كأننا لم نقرأ هذا البيت قط واضطررنا الى سؤاله عنه فقال إنما عني أحد وجهين إما أنه يغشى صدره بالعرق وعرق الخيل أبيض فجاء مع الدم كالشيب وإما شيء كانت العرب تصنعه وهو أنها كانت تسم باللبن الحار في صدور الخيل فيتمتع ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض فأما عني من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم قال أبو عبد الله وحدثنا أبو محمد علي بن أحمد قال حدثني أبو الخيار مسعود ابن سليمان بن مفلت الفقيه ان أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل

الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول التماخ بن ضرار

دار الفتاة التي كنا نقول لها ياظبية عطلا حسانة الجيد

يدني الحمامة منها وهي لاهية من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا هي الحميمة تنزل على غصن الاراكّة أو الكرمة فتتفله فتتمكن
 الطيبة منه فترعاه فانكر ذلك عليهم صاعد وقال ان الحميمة في هذا
 البيت هي المرأة وهي اسم من اسمائها فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالطيبة
 اذا نظرت في المرأة أدنت المرأة منها في المنظر شعرها الذي هو كفتوان
 العناقيد من يانع الكرم أو المرد فرأته ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد
 يتفق مثلها ان صاعد بن الحسن اللغوي هذا أهدى الى المنصور أبي
 عامر أيلًا وكتب معه بهذه الابيات

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذل	جدواك إن تخصص به فلا هله
وتعم بالاحسان كل مؤمل	كالغيث طبق فاستوى في وبله
شعث البلاد مع المراد المقبل	الله عونك ما أبرك بالهدى
وأشدّ وقعك بالضلال المشعل	ما إن رأيت عيني وعلمك شاهد
شروي علائك في معم مخول	أندى بمقربة كسر حان الغضا
ركضاً وأوغل في مشار القسطل	مولاي مؤنس غربي متخطفي
من ظفر أيامي بمنع معلى	عبد نشلت بضبعه وغرسته
في نعمة أهدى اليك بآيل	سميته غرسية وبعثته
في حبله ليتاح فيه تفاو على	فلئن قبلت فلك أسنى نعمة
أسدى بها ذو منحة وتطول	صحبتك غادية السرور وجلات
ارجاء ربك بالسحاب المخضل	

فخفي الله في سابق علمه ان غرسية بن شانجه من ملوك الروم
 وكان امنع من النجم أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد
 بالآيل وسماه غرسية متفائلاً بأسره وهكذا فليكن الجسد للصاحب
 والمصحوب وكان أسر غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ خرج

أبو العلاء صاعد هذا من الاندلس أيام الفتن وقصد صقلية فمات بها في قريش من سنة ٤١٠ هـ فيم بلغني عن سن عالية ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً لغزو الروم مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرة ما كان مقبلاً بقرطبة وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلي يوم العيد فحدث له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلي كما هو من فوره إلى الجهاد فتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر غزاه في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها في كتابه الذي سماه (بالمآثر العامرية) واستقصاها كلها بلاقاتها وذكر آثاره فيها وفتح فتوحاً كثيرة ووصل إلى معاقل قد كانت امتعت على من كان قبله وملاً الاندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم وفي أيامه تغالى الناس بالاندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور وذلك لرخص الثمن بنات الروم فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساوأ أكثر من عشرين ديناراً عامرية وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سراجه فيأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمرة القتال وأن يجمع ويحفظ به فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن ينثر على كفته إذا وضع في قبره وكانت وفاته بأقصي ثغور المسلمين بموضع يعرف بمدينة

سلم مبطونا فصحت له الشهادة وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣ فكانت مدة
امارته نحواً من سبع وعشرين سنة وكان معافري النسب وأمه تيمية
اسمها بريهة بنت يحيى ابن زكريا التميمي كان يعرف بابن برطل
ولذلك قال فيه أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف
بالقسطلي من قصيدة له

تلاقت غايه من تميم ويعرب شمس تلالاني العلا وبدور
من الحميريين الذين أكرمهم سحائب تهجي بالندي وبحور
أبو عمر هذا من فحول شعراء الاندلس والمجيد من منهم ذكره أبو
منصور الثعالبي في كتاب التيمية وقال فيه القسطلي عندهم كأبي الطيب
بصقع الشام هذا قول أبي منصور أو معناه وكنت أنا في أيام شيبني
مولعا بشعرة كثير الدراسة له فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلا
خلا بيتين هائما ارتجل في بعض مجالسه وهما

أجد الكلام إذا نطقت قائما عقل الذي في لفظه المسموع
كلماء يختبر الأناء بصوته فيرى الصحيح به من المصدوع
ثم تقلد الوزارة والحجابه بعد ابن أبي عامر هذا ابنه أبو مروان عبد
الملك بن أبي عامر وتلقب بالظفر فيجري في الغزو والسياسة عن هشام
المؤيد على سنن أبيه وكانت أيامه أعيادا في الخصب والامان دامت سبع
سنين الى ان مات وسارت الفتن بعده ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده
أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر فحافظ وتسمى ولي العهد ولم يزل
مضطرب الامور مدة أربعة أشهر الى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد
الجبار بن عبد الرحمن الناصر لثمان عشرة ليلة خلت من جمادي الآخر
سنة ٣٩٩ فخلع هشاما المؤيد وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن

أبي عامر فقتل وصلب وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار المقدم ذكره لما قام تلقب بالمهدي وبقي الأمر كذلك إلى أن قتل * محمد بن هشام ابن عبد الجبار ورد هشام المؤيد إلى الأمر وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠ وبقي كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ فدخل البربر مع سليمان قرطبة وأخلوها من أهلها حاشي المدينة وبعض الرض الشرقي وقتل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر وكان كما ذكرنا في طول دولته متغلباً عليه لا ينفذ له أمر وغلب عليه في هذا الحصار أعني حصار البربر واحد بعد واحد من العبيد بعد محمد ابن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر

﴿ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي﴾

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على هشام بن الحكم في جمادي الآخرة كما تقدم نخلعه وتسمي بالمهدي وكان يكني أبا الوليد أمه أم ولد اسمها مزنة وكان له ولد اسمه عبيد الله وكان مولد المهدي في سنة ٣٦٦ وقتل وله من العمر سبع وثلاثون سنة ولم يزل والياً إلى أن قام عليه يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر فخاربه بقية يومه واليلة الآتية وصبيحة اليوم الثاني فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدي فانهزم البربر وأسر هشام بن سليمان فأتي به إلى المهدي فضرب عنقه واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وهو ابن أخي هشام القائم المذكور فنهض بالبربر

إلى الثغر واستجاش النصاري وأتى بهم إلى باب قرطبة فبرز إليه جماعة أهل قرطبة فلم تكن إلا ساعة حتى قتل من أهل قرطبة نيف وعشرون ألف رجل في جبل هنالك يعرف بجبل قنطش وهي الوقعة المشهورة ذهب فيها من الخيل والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلق كثير واستتر محمد بن هشام المهدي أياماً ثم لحق بطليطلة وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته واستجاش بالأفراج وأتى بهم إلى قرطبة فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر إلى موضع يقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعي دار البقر فانهزم سليمان والبربر واستولى المهدي على قرطبة ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر وكانوا قد عاثوا بالجزيرة فالتقوا بموضع يعرف بوادي أره فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدي وانصرف إلى قرطبة فوثب عليه العبيد مع واضح الصقابي فقتلوه وردوا هشاماً المؤيد كما تقدم قبل فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل * عشرة أشهر من جلستها الستة الأشهر التي كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر وانقرض عقبه فلا عقب له

❦ ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن

الناصر المتقلب بالمستعين بالله ❦

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة ٣٩٩ وتقلب بالمستعين بالله ثم دخل قرطبة كما تقدم في ربيع الآخر سنة ٤٠٠ فتقلب حينئذ بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين بالله ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها فلم يزل يحول بعساكر البربر معه في بلاد

الاندلس يفسد وينهب ويقفر المدائن والقري بالسيف والغارة لا يبقى
البربر معه على صغير ولا كبير ولا امرأة الى أن دخل قرطبة في صدر
شوال سنة ٤٠٣ وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن علي
ابن أبي طالب يسميان القاسم وعليهما ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن
علي بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن
ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فجعلهم قائدين على المغاربة ثم ولي
أحدهما سبتة وطنجة وهو علي الاصغر منهما وولي القاسم الجزيرة
الخصراء وبين الموضعين الحجاز المعروف بالزقاق وسعة البحر هنالك
اثنا عشر ميلا وقد ذكر فيما قبل وافترق العبيد اذ دخل البربر مع
سليمان قرطبة فلكوا مدنا عظيمة وتحصنوا فيها فراسلهم علي بن حمود
المذكور وقد حدث له طمع في ولاية الاندلس فكتب اليهم يذكر لهم
أن هشام بن الحكم اذ كان محاصراً بقرطبة كتب اليه يوليه عهده فاستجابوا
له وبايعوه فرحف من سبتة الي مالقة وفيها عامر بن فتوح الفائق مولى
فائق مولي الحكم المستنصر فاستجاب له وأدخله مالقة فتملكها على
ابن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر
وجهور العبيد الي قرطبة فخرج اليه محمد بن سليمان في عساكر البربر
فانهزم محمد بن سليمان ودخل قرطبة على ابن حمود وقتل سليمان بن
الحكم صبراً ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧
وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضاً في ذلك اليوم وهو شيخ
كبير له اثنتان وسبعون سنة وكانت مدة ولاية سليمان منذ دخل قرطبة
الى ان قتل ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأياما وكان قد ملكها قبل ذلك ستة
أشهر على ما تقدم وكانت مدته منذ قام مع البربر الى ان قتل سبعة

أعوام وثلاثة أشهر وأياماً وانقطعت دولة بني أمية في هذا الوقت إذ ذكرهم على المنابر في جميع أقطار الاندلس الى ان عادت بعد ذلك في الوقت الذي نذكره ان شاء الله تعالى وكانت ام سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ومولده سنة ٣٥٤ ترك من الولد ولي عهده محمداً لم يعقب والوليد ومسلمة وكان سليمان أديباً شاعراً قال الحميدى أنشدني أبو محمد على ابن أحمد قال أنشدني فتي من ولد اسمعيل ابن اسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لابي جعفر أحمد بن سعيد بن اليب قال أنشدني أبو جعفر قال أنشدني أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه قال أبو محمد وأنشدنيها قاسم بن محمد المرواني قال أنشدنيها وليد ابن محمد الكاتب

لسليمان الظافر أمير المؤمنين

عجياً يهاب الليث حد سناني	وأهاب لحظ فواتر الاجفان
وأقارع الاهوال لا متهيباً	منها سوي الاعراض والهجران
وتملكته نفسي ثلاث كالدماء	زهر الوجوه نواعم الابدان
ككواكب الظالماء لحن لناظر	من فوق أغصان على كنبان
هذي الهلال لتلك بذت المشتري	حسناً وهذي أخت غصن البان
حأكت فيهن السلوى الصبي	فقضي بساطان على ساطان
فأبجن من قلبي الحمى وثنيني	في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى	ذل الهوى عز وملك ثان
ماضر اني عبدهن صباية	وبنو الزمان وهن من عبداني
ان لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفا بهن فلست من مروان
واذا الكريم أحب أمن الفه	خطب القلى وحوادث السلوان
واذا تجارى في الهوى أهل الهوى	عاش الهوى في غبطة وأمان

وانما قصد المستعين بهذه الابيات معارضة الابيات التي عملها العباس بن
الاحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت اليه وهي

ملك الثلاث الانسات غناني وحللن من قابي بكل مكان
مالي تطاوعنى البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ماذاك الآن سلطان الهوى وبه قوين أعز من ساطاني

أبو محمد الذى يحدث عنه الحميدى هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد
ابن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد
الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن
عبد مناف القرشي قرئ على نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من
تصانيفه أصل أبائه الادين من قرية من اقليم بللة من غرب الاندلس
سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر
ووزراء ابنه المظفر بعده وكان هو المدبر لدولتيهما وكان ابنه ابو محمد
الفقيه وزيرا لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب
بالمستظهر بالله أخى المهدي المذكور أنفأ ثم انه نبذ الوزارة واضطرحها
اختيارا وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك
مالم ينل أحد قبله بالاندلس وكان على مذهب الامام أبي عبد الله
الشافعي رحمه الله أقام على ذلك زمانا ثم انتقل الى القول بالظاهر
وأفرط في ذلك حتى أربي على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من
أهل الظاهر وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول
الفقه وفروعه على مبيعه الذى يسلكه ومذهبه الذى يتقلده وهو
مذهب داود بن علي بن خلف الاصهاني الظاهري ومن قال بقوله من
أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل بلغني عن غير واحد من علماء

الاندلس ان مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والاصول والنحل والمثل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الادب والرد على المخالفين له نحو من أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء ما علمناه لاحد ممن كان في مدة الاسلام قبله الا لابي جعفر محمد ابن جرير الطبري فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفا فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير ان قوما من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم الي أن توفي في سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة وهذا لايتهاي لخلق الا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة فن شعره

هل الدهر الاما عرفنا وأدركنا	فجائعه تبقي ولذته تفنا
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة	تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
الي تبعات في المعاد وموقف	نود لديه اننا لم نكن كنا
حصلنا على هم واثم وحسرة	وفات الذي كنا نقر به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى	وغم لما يرجي فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه	إذا حققته النفس لفظ بلا معنا

وله من قصيدة طويلة

انا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولواني من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرى الهب
ولي نحو اكناف العراق صباية	ولا غروان يستوحش الكلف الصب

فان ينزل الرحمن رحلى بينهم
فكم قاتل أغفاته وهو حاضر
هناك يدري ان للبعد قصة
ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه
فحينئذ يبدو التأسف والكره
واطلب ما عنه تهيء به الكتب

ولكن لي في يوسف خير اسوة
يقول وقال الحق والصدق اني
ومن المختار له قوله
وليس على من بالني اثتسي ذنب
حفيظ عليهم ماعلى صادق عتب

لا يشمتن حاسدي ان نكبة عرضت
ذوالفضل كالتبر طورا تحت مبقعة
ومن ذلك قوله
فالدهر ليس على حال بترك
وتارة في ذري تاج على ملك

لئن أصبحت مرتحلا بشخص
واكن للعيان لطيف معنى
ومن أجود ما احفظ له بيتان قالهما في رجل نام
فروجي عنكم أبدأ مقيم
له سأل المعاينة الكلم

انهم من المرأة في كل ما درى
كان انشايما والزمان تعلمنا
وجد بخطه انه ولد يوم الاربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع
الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفي رحمه الله في سابع شعبان
من سنة ٤٥٦ وانما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وان
كانت قاطعة للنسق مزيجية عن بعض الغرض لانه أشهر علماء الاندلس
اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى السنة العلماء وذلك
لخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله
عندنا أحد ممن علمت وقد كثراهل مذهبه وإتباعه عندنا بالاندلس اليوم

❦ ولاية علي بن حمود الناصر ❦

ثم ولي علي بن حمود على ماتقدم وتسمى بالخلافة وتلقب بالناصر
ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن
عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى وزحفوا به الى
أغرناطة وهي من البلاد التي تغلب عليها البربر ثم ندموا على تقديمه لما رأوا
من صرامته وحدة نفسه وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته فانهمزموا
عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفي أمره وبقي علي بن حمود بقرطبة
مستمر الامر عامين غير شهرين الى أن قتله صقالبة له في الحمام سنة
٤٠٨ وكان له من الولد يحيى وادريس

❦ ولاية القاسم بن حمود المأمون ❦

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة أعوام
وكان وادعاً أمن الناس معه وكان يذكر عنه انه تشيع ولكنه لم يظهر
ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا وكذلك سائر من ولي منهم
بالاندلس فبقي القاسم كذلك الى شهر ربيع الاول سنة ٤١٢ فقام عليه
ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلاقتال
وصار بأشبيلية وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل
قرطبة بلاقتال وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلي فبقي كذلك الى أن اجتمع
للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم الى قرطبة فدخلها سنة ٤١٣
وهرب يحيى بن علي الى مالقة فبقي القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره
وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي كانت
معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره وغلب ابن أخيه الثاني ادريس

ابن علي صاحب سبته على طنجة وهي كانت غدة القاسم ياجأوا اليها ان رأوا ما يخافه بالاندلس وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة وغلقوا أبوابها دونة وحاصروهم نيفا وخمسين يوما وأقام الجمعة في مسجد خارج قرطبة يعرف بمسجد بن ابي عثمان أثره باق الى اليوم ثم ان أهل قرطبة زحفوا الى البربر فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الارياض كلها في شعبان سنة ٤١٤ ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه وقصد القاسم أشبيلية وبها كان ابنه محمد والحسن فلما عرف أهل أشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه اليهم طردوا ابنه ومن كان معهم من البربر وضبطوا البلد وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل ابن عباد اللخمي ومحمد بن يريم الالهاني ومحمد بن الحسن الزبيدي ومكثوا كذلك أياما مشتركين في سياسة البلد وتديره ثم استبد القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد بالامر والتدبير وصار الآخرون من جملة الناس ولحق القاسم بشرى واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى فزحفوا الى القاسم فتحصروه حتى صار في قبضه ابن أخيه وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه ادريس بعده الى ان مات ادريس فقتل القاسم خنقاً سنة ٤٣١ وحمل الى ابنه محمد ابن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك فكانت ولاية القاسم منذ تسمي بالخلافة بقرطبة الى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابني أخيه يحيى وادريس الى أن قتل كما ذكرنا في أول سنة ٤٣١ ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن أمهما أميرة بنت الحسن بن قنون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن

❦ ولاية يحيى بن علي المعتلى ❦

اختلف في كنيته ف قيل أبو القاسم وقيل أبو محمد وأمه لبونة بنت محمد بن الحسن ابن القاسم المعروف بكنون بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان الحسن بن كنون من كبار ملوك الحسين وشجعانهم ومردتهم وطفاتهم المشهورين فتسمي يحيى بالخلافه بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ثم هرب عنها الى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ثم سعي قوم من المفسدين في رد دعوته الى قرطبة في سنة ١٦ فتم لهم الامل الا انه تأخر عن دخولها باختياره واستخلف عليها عبد الرحمن ابن عطف اليفرني فبقى الامر كذلك الى سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر وسلعوا اليه الحصون والقلاع والمدن وعظم أمره بقرمونة فصار محاصرا لاشبيلية طامعاً في أخذها فخرج يوما وهو سكران الى خيل ظهرت من أشبيلية يقرب قرمونة فلقبها وقد كمنوا له فلم يكن بأسرع من ان قتلوه وذلك يوم الاحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ وكان له من الولد الحسن وادريس لامي ولد

❦ ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر ❦

ولما انهزم البرابر عن قرطبة مع أبي القاسم كما ذكرنا اتفق رأي أهل قرطبة على رد الامر الى بني أمية فاختروا منهم ثلاثة وهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر أخو المهدي المذكور أنفأً وسليمان بن المرتضى المذكور أنفأً ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام

ابن سليمان القائم على المهدي بن الناصر ثم استقر الامر لعبد الرحمن
ابن هشام بن عبد الجبار فيويع بالخلافة ثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان
سنة ٤١٤ وله اثنتان وعشرون سنة وتلقب بالمستظهر وكان مولده سنة
٣٩٢ في ذي القعدة يكنى أبا المطرف وأمه أم ولد اسمها غاية ثم قام عليه
أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر
مع طائفة من أراذل العوام فقتل عبد الرحمن ابن هشام وذلك لثلاث بقين
من ذي القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ولا عقب له وكان في غاية الادب والبلاغة
والفهم ورقة النفس كذا قال أبو محمد علي بن أحمد وكان خبيراً به لانه
وزر له وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد كان المستظهر
شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد وهو القائل في ابنة عمه

حامة بيت العبشميين رفرفت فطرت اليها من سراتهم صقراً
تقل الثريا أن تكون لها يداً ويرجو الصباح أن يكون لها منحراً
واني لطعان اذا الخيل أقبلت جوانبها حتي تري جونها شقراً
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفري عند سائله وفراً

وهي طويلة قالها أيام خطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سليمان المستعين
قال أبو عامر وكان متهماً في أشعاره ورسائله حتي كتب أبياتاً ليعلي بن
أبي زيد حين وفد عليه ارنجبالا فعجب أهل التميز منه وأما أنا فقد كنت
بلوته وكان ورود يعلي فجأة ولم يبرح من مجلسه حتي ارنجبالا الامان وانا
والله اخاف ان يزل فأجاد وزاد هذا آخر كلام أبي عامر

﴿ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكني بالله﴾

ولي محمد بن عبد الرحمن المذكور وله ثمان وأربعون سنة وأشهر

لان مولده في سنة ٣٦٦ وكنيته أبو عبد الرحمن أمه أم ولد اسمها حوراء وكان أبوه قد قتلته ابن أبي عامر في أول دولة هشام المؤيد تسعيه في القيام وطالبه للأمر وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفي بالله وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد هو كان المدير لأمره والمدير لدولته فقل في دولة يديرها حائك ولم يزل كذلك الى ان خاع وقتل وزيره المذكور في داره دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً قتلوه بالحديد الى ان برد وخلصوا المستكفي بالله وأخرجوه عن قرطبة بعد ان أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل اليه طعام ولا شراب ثم نفوه كما ذكرنا فاحق بالغور ورجع الأمر الى يحيى بن علي الفاطمي وانتهى المستكفي المذكور من الثغر الى قرية تعرف بشمنت بالقرب من مدينة سالم ومعه أحد قواده وهو عبد الرحمن بن محمد بن السليم من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام محمد الرحمن الناصر فكره هذا القائد التمادي معه فاستدعى المستكفي غداه فعمد القائد الى دجاجة فدهنها له بعصارة نبت يقال له اليبش وهو كثير بيلاد الاندلس وخصوصاً بتلك الجهة فلما اكلمها المستكفي مات مكانه فغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه بقبيره هناك ولا نعقب له ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر الا انه لم يدخل قرطبة وانما كان مقبلاً بقرمونة كما قدمنا الى ان قتل في التاريخ الذي تقدم ذكره

﴿ولاية هشام المعتد بالله﴾

ولما انقطعت دعوة يحيى بن علي الفاطمي عن قرطبة في التاريخ

الذى ذكرنا أجمع رأي أهل قرطبة على رد الامر الى بني أمية وكان
عميدهم في ذلك والذي تولى معظمه وسعي في تمامه الوزير أبو الحزم
جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن النعمان بن يحيى بن
عبد الغافر بن أبي عبدة وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة
ويحب في الفتنة بقرطبة فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل
التغور والمتغلبين هنالك على الامور وداخلهم في هذا الامر فاتفقوا
بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن
عبد الرحمن الناصر وهو أخو المرتضى المذكور آنفاً وكان هشام هذا
مقيماً بحصن يدعي البنت من التغور عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله
بن قاسم القائد المتغلب بها فبايعوه في شهر ربيع الاول سنة ٤١٨
وتلقب بالمعتد بالله وكان مولده في سنة ٣٦٤ وكان أسن من أخيه
المرتضى بأربعة أعوام وسنه يوم يوبع له أربع وخمسون سنة أمه أم
ولد اسمها عاتب فبقى ينتقل في التغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع
ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد
الى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على ان يسير الى قرطبة قسبة الملك
فسار اليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠ فلم يبق بها الا
يسيراً حتى قامت عايبه طائفة من الجند نخلع وجرت أمور يطول
شرحها من جماتها اخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه والنساء
حاسرات عن أوجههن حافية أقدامهن الى أن أدخلوا الجامع الاعظم
على هيئة السبايا فاقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم بالطعام والشراب الى
ان أخرجوا عن قرطبة ولحق هشام ومن معه بالتغور بعد اعتقال
بقرطبة فلم يزل يحول في التغور الى ان لحق بابن هود المتغلب على

مدينة لاردة وسرقسطة وافراغة وطرطوشة وما الى تلك الجهات فاقام عنده هشام الى أن مات في سنة ٤٢٧ ولا عقب له فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالاندلس نسبه هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم ويحلعه انقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر بجميع أقطار الاندلس والعدوة الى الآن فهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار بني أمية بالاندلس على شرط التناخيص

﴿ ذكر أخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة الاموية عنها ﴾

ومن ملكها من الملوك الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالاندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للأمانة ولا من تليق به الرياسة استولى على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ويكنى أبا الحزم وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هشام المعتد وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت كان أباه ووزراء الدولة الحكيمة والعامة وهو موصوف بالدهاء وبعد الفور وحصافة العقل وحسن التدبير ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك كان يتصاون عنها ويظهر التزاهة والتدين والعفاف فلما خلا له الجو وأصفر الفناء وأقفر النادي من الرؤساء وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولي أمرها واضطاع بحمايتها ولم ينتقل الى رتبة الامارة ظاهراً جرياعاً ما قدمنا من اظهار سنن العقاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق اليه وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع الى أن يجيء

من يتفق الناس على امارته فيسلم اليه ذلك وترتب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره لها وجعل ما يرتفع من الاموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم وصير أهل الاسواق جندا له وجعل ارزاقهم رؤس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورؤس الاموال باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل وقت كيف حفظهم لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقه في الدكاكين والبيوت حتى اذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى جاريا على طريقة الصالحين وهو مع ذلك يدبر الامور تدير الملوك المتغلبين وكان آمنا وادعا وقرطبة في أيامه حرما يأمن فيه كل خائف واستمر امره على ذلك الى أن مات في غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تديره منذ استولى الى أن مات أربع عشرة سنة وأشهر أتم ولي ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور فجري في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه غير مغل بثيء من ذلك الى ان مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣ فغلب عليها بعد أمور جرت الامير الملقب بالأمون ابن ذي النون صاحب طابطة فديرها مدة يسيرة الى أن مات وخلف فيها بعده من البربر رجل يعرف بابن عكاشة اظن اسمه موسى فكان بها الى ان غلبه عليها وأخرجه منها الامير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن عباد على ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى فهذا آخر اخبار قرطبة وكونها داراً للملك وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لاشبيلية

فصل وأما أحوال الحسنيين فإنه لما قتل يحيى بن علي كما ذكرنا
 للبيع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ رجع أبو جعفر أحمد بن موسى
 المعروف بابن بقة ونجا الخادم الصقلي وهما مدبرا دولة الحسينين فأثبا
 مالقة وهي دار مملكتهم تخاطبا أخاه أدریس بن علی وكان يسبته وكان
 يملك معها طنجة واستدعياه فأثي مالقة وبايعاه بالخلافة على أن يجعل
 حسن بن يحيى المقتول مكانه بسبته ولم يبايعا واحداً من ابني يحيى وهما
 إدریس وحسن لصغرهما فأجابهما إلى ذلك ونهض نجما حسن هذا
 إلى سبته وطنجة وكان حسن أصغر ابني يحيى ولكنه أسدّهما رأيا
 وتلقب إدریس بالمتأيد فبقى كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١ فتحرّكت فتنة
 وحدث للقاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد صاحب أشبيلية
 أمل في التغلب على تلك البلاد فأخرج ابنه اسمعيل في عسكر مع من أجاهه
 من قبائل البربر ونهض إلى قرمونة فحاصرها ثم نهض إلى حصن يدعي أشونة
 وحصن آخر يدعي استجة فآخذهما وكانا بيد محمد بن عبد الله رجل
 من قواد البربر من بني برزال فاستصرخ محمد بن عبد الله إدریس بن
 علي الحسيني وقبائل صنهاجة فأمده صاحب صنهاجة بنفسه وأمده إدریس
 بعسكر يقوده ابن بقة أحمد بن موسى مدبر دولته فاجتمعوا مع محمد بن
 عبد الله ثم غلبت عليهم هبة اسمعيل بن محمد بن اسمعيل بن عباد قائد
 عسكر أبيه القاضي أبي القاسم فافترقوا وانصرف كل واحد منهم إلى
 بلده فباغ ذلك اسمعيل بن محمد فقوى أمه ونهض بعسكره قاصداً طريق
 صاحب صنهاجة وقدر صاحب صنهاجة أنه سيلاحقه فوجه إلى ابن بقة
 يسترجعه وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة فرجع إليه والتقت
 العساكر فمات كان إلا أن تراءى الجمعان فولي عسكر ابن عباد منهزماً

واسلموا اسمعيل فكان أول مقتول وحمل راسه الي ادريس بن علي
الحسنى وقد كان ادريس استشعر بالهلاك فزل عن ماله الي جبله ياشتر وهو
الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذ كرتحصن به وهو مريض مدتف فلم
يعش الا يومين ومات وترك من الولد يحيى قتل بعده ومحمد الملقب بالمهدى
وحسنا الملقب بالسامى وكان له ابن هو أكبر بنه اسمه على مات في حياة أبيه
وترك ابنا اسمه عبد الله أخرجه عمه ونفاه لما ولي وقد كان يحيى بن علي
المذكور قبل قد اعتقل ابني عمه محمد والحسن ابني القاسم بن حمود
بالجزيرة وكان الموكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبى الحجاج فحين
وصل اليه خبر قتل يحيى جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان
وأخرج محمد والحسن وقال هذان سيداكم فسارع أجمعهم الي الطاعة
لهما لشدة ميل أبيهما الي السودان قديماً وإيثاره لهم وانفرد محمد بالامر
دون الحسن وملك الجزيرة الا أنه لم يتسم بالخلافة وتبقى معه أخوه
الحسن مدة الي أن حدث له رأي في التنسك فلبس الصوف وتبرأ عن
الدنيا وخرج الي الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم زوجة يحيى بن علي
المعتل فلما مات ادريس كما تقدم رام ابن بقة احمد بن موسى ضبط
الأمر لولده يحيى بن ادريس المعروف بجين ثم لم يجسر على ذلك الجسر
التام ونحير وتردد ولما وصل خبر قتل اسمعيل بن عباد وموت ادريس
ابن على الي نجا الخادم الصقابي وكان بسبته استخلف عليها من وثق
به من الصقالبة وركب البحر هو وحسن بن يحيى الي مالقة ليرتب الامر
له فلما وصل الي مرسى مالقة خارت قوي ابن بقة وهرب الي حصن
كأرش على ثمانية عشر ميلا من مالقة ودخل حسن ونجا مالقة واجتمع
اليهما من بها من البربر فبايعوا حسن بن يحيى بالخلافة وتسمى المستعلي

ثم خاطب ابن بقتة وأمنه فلما رجع اليه قبض عليه وقتله وقتل ابن عمه
يحيى بن ادريس ورجع نجبا الى سبتة وطنجة وترك مع الحسن رجلا
كان من التجار يعرف بالسطيفي كان نجبا كثيرا ثقة به فبقى الأمر كذلك
نحو من عامين وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة عمه ادريس فقيل انه
سخته أسفا على أخيها فلما مات احتاط الصطيفي على الأمر واعتقل
ادريس بن يحيى وكتب الى نجبا بالخبر وكان حسن بن صغير عند نجبا
فقيل انه اغتاله أيضا فقتله فإله أعلم ولم يعقب حسن بن يحيى فاستخلفه
نجبا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر اليه
وركب البحر الى مالقة فلما وصل اليها زاد في الاحتياط على ادريس بن يحيى
وأكد اعتقاله وعزم على محو أمر الحسينين حلة وأن يضبط تلك
البلاد لنفسه فدعا البربر الذين كانوا جند البلد وكشف الأمر اليهم
علانية ووعدهم بالاحسان فلم يجدوا مساعدته بدأ فوافقه وفي الظاهر
وعظم ذلك في أنفسهم باطناً ثم جمع عسكره ونهض الى الجزيرة ليستأصل
محمد بن القاسم فخاربه أياماً ثم أحس بثغوريات الذين معه فرأى أن
يرجع الى مالقة فاذا حصل فيها نفي من يخاف غائلته منهم واستصاح
سائرهم واستدعي الصقالبة من حيث ما يمكنه ليقوي بهم على غيرهم
وأحس البربر بهذا منه فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل الى مالقة
فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه وقد تقدمه اليه الذي أراد
الفتك به وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم ثم تقدم فارسان من
الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة فدخلا وهما يقولان للبشرى
البشرى فلما وصلا الى السطيفي وضع سيفيهما عليه فقتلاه ثم وافى العسكر
فاستخرجوا ادريس بن يحيى من محبسه فقدموه وابعوه بالخلافة وتسمي

بالعالى فظهرت منه أمور متناقضة منها أنه كان أرحم الناس قلباً كثير
 الصدقات يتصدق كل يوم بخمسمائة ورد كل مطرود عن وطنه اليه ورد
 عليهم ضياعهم وأملاهم ولم يسمع بغياً في أحد من الرعية وكان أديب
 اللقاء حسن المجلس يقول من الشعر الأبيات الحسان ومع هذا فكان
 لا يصحب ولا يؤثر الأكل ساقط رذل ولا يحجب حرمة عنهم وكل من
 طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بني يفرن
 أعطاه إياه وكتب اليه أمير صنهاجة أن يسلم اليه وزيره ومدبر أمره وصاحب
 أبيه وجده موسى بن عفان السبتي فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب اليه
 يطلبه منه وأنه لا بد من تسليمه اليه قال له موسى بن عفان أفعل ما تؤمر
 ستجدني ان شاء الله من الصابرين فبعث به الى الصنهاجي فقتله وكان قد
 اعتقل ابني عمه محمداً وحسناً ابني ادريس بن علي في حسن ايرش فلما
 رأى ثقته الذي في الحصن اضطراب أرائه خالف عليه وقدم ابن عمه
 محمد بن ادريس فلما بلغ ذلك السودان المرتين في قصة ماله نادوا بدعوة
 ابن عمه محمد بن ادريس وراسلوه بالحجي اليهم وامتنعوا بالقصة واجتمعت
 العامة الي ادريس بن يحيى واستأذنوه في حرب القصة والدفاع عنه ولو
 أذن لهم مائت السودان فواق ناقة فأتى فقال لهم الزموا منازلكم وددعوني
 فتفرقوا عنه وجاء بن عمه فلم عليه وبويع بالخلافة وتسمي بالمهدى وولى
 أخاه عهده وسماه السامي واعتقل ابن عمه ادريس بن يحيى في الحصن
 الذي كان هو معتقلا فيه وظهرت من محمد بن ادريس هذا شهامة وجراءة
 شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وراسلوا المرتب في الحصن الذي
 فيه ادريس بن يحيى هذا واستمالوه فأجابهم وقام بدعوة ادريس وقد كان
 ادريس أول ولايته بعد قتل نجا كما تقدم قد ولي سبتة وطنجة رجاين

من برغواطة قبيلة من قبائل البربر من عبيد أبيه اسم أحدهما رزق الله
والآخر سكات فلما خلع ادريس كما تقدم بقيا حافظين لمكانيهما فلما
قام كما ذكرنا بدعوته صاحب حصن أيرش لم يظهر محمد مبالاة بذلك
بل ثبت نباتاً شديداً وكانت والدته تشجعه وتقوي منته وتشرف على
الحرب بنفسها فتحسّن الى من أبلى فلما رأى البربر شدة عزمه ونباته
فَنَ ذلك في أعضادهم وتخلّوا عن ادريس بن يحيى ورأوا أن يبعنوا به
الى سبتة وطنجة الى البرغواطيين الذين ذكرنا وقد كان ادريس جعل
ابنه عندهما في حضاتهما فاما وصل اليهما أظهر اتعظيمه ومخاطبته بالخلافة
الا أنهما حجباه حجاباً شديداً ولم يدع أحداً من الناس يصل اليه فتلطف
قوم من أكابر البربر حتى وصلوا اليه وقالوا له ان هذين العبدین قد
غلبا عليك وحالا بينك وبين أمرك فأذن لنا نكفيكما فأبى ثم أخبرهما
بذلك فنفيا أولئك القوم وأخرجا ادريس بن يحيى وبعنا به الى الاندلس
وتمسكا بولده لصغره الا أنهما في كل ذلك يخطبان لادريس بالخلافة ثم
ان محمد بن ادريس أنكر من أخيه الملقب بالسامي أمرا فنفاه الى العدو
فصار في جبال غمارة وهي بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنين وأهلها يعظمونهم
تعظيما مفرطاً ثم ان البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم الكائن بالجزيرة الخضراء
واجتمعوا اليه وودعوه بالنصر فاستفزده الطمع وخرج اليهم فبايعوه بالخلافة
وتسمي بالمهدي وصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة أربعة كلمهم
يتسمي بأمر المؤمنين في رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في
مثلها فأقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه الى بلادهم ورجع محمد خاسئاً الى
الجزيرة ومات لايام قليل أنه مات غمات ترك نحواً من ثمانية ذكور فتولى
أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم الا أنه لم يتسم بالخلافة وبقى

محمد بن ادريس بمالقة الى أن مات سنة ٤٤٥ وكان ادريس بن يحيى المعروف بالعالى عند بنى يفرن بتاكرونه فلما توفي محمد بن ادريس بن يحيى ردت العامة ادريس العالى الى مالقة واستولي عليها وهو آخر من حلكها من الحسينيين فلما مات أجمع البربر رأيهم على نفي الحسينيين عن الأندلس الى العدو والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ففعلوا ذلك وتم لهم ما أرادوا منه فكانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى الى تاكرونة ومالقة وما والاها أيضاً الى حصن منكب واغرنطة وأعمالها فى ملك البربر وملكوا مع ذلك بعض أعمال اشيلية كحصن اشونة وقرمونة وشلبير ولم يزالوا كذلك الى أن خرج من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال اشيلية المعتمد بالله أبو عمرو عباد بن محمد ابن اسمعيل بن عباد اللخمي ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك وهذا آخر أخبار الحسينيين وما يتعلق بها حسب ما أورده أبو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى عليه عولت فى أكثر ذلك ومن كتابه نقلت خلا مواضع تبينت غاطه فيها أصاحتها جهده ما أقدر وعلى الله قصد السبيل وهو المسؤول فى الهداية قولاً وعملاً

﴿فصل يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع

الدعوة الاموية عنها على الاجمال لاعلى التفصيل﴾

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بنى أمية فإن أهلها تفرقوا فرقاً وتغلب فى كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه تقسموا ألقاب الخلافة فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون

وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتمد والموفق والمتوكل الي غير
 ذلك من الالقاب الخلافية وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق
 مما يزهدي في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
 القاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخ صولة الاسد
 وأنا ذا كر ان شاء الله في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلبوا عليها
 على نحو ما شرطت من الاجمال اذ لكل منهم أخبار وسير ووقائع لو بسطت
 القول فيها خرج هذا التصنيف عن حد التلخيص الي حيز الاسهاب وأيضاً
 فالذي منعي عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم قلة ما يحبي من
 الكتب واختلال معظم محفوظاتي فأولهم في الربع الجنوبي رجل اسمه
 سليمان بن هود تلقب بالموثق وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابن ابنه
 بالمستعين كانوا بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الجنوبية طرطوشة
 وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة ولاردة وقلعة أيوب هذه اليوم كلها
 بأيدي الأفرنج يملكها صاحب برشونة لعنه الله وهي البلاد التي تسمى أرغن
 حد هذا الاسم آخر مملكة البرشونوني مما يلي بلاد أفرنسة وتجاور بني
 هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان
 قديم الرياسة هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته لأعلم له لقباً
 كان يملك بلنسية وأعمالها وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مروان
 بن رزين كان يملك الي أول أعمال طليطلة وكان الذي يملك طليطلة
 وأعمالها الأمير أبو الحسن يحيى بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن اسمعيل
 ابن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون وأبو الحسن هذا أقدم
 ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم تلقب بالأمون كان
 أبوه اسمعيل هو الذي تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول

الفتنة ولم يزل أبو الحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا الى أن أخرجه عنها الادقش لعنه الله واستولي عليها النصاري في شهر سنة ٣٧٦ هـ فهي قاعدة ملك النصاري الى وقتنا هذا وكان يملك قرطبة وأعمالها الى أول الثغر جهور بن محمد بن جهور المتقدم ذكره ونسبه الى أن غلبه عليها صاحب طليطلة اسمعيل ابن ذى النون والد أبي الحسن المذكور آفا وكان يملك أشيلية وأعمالها القاضي أبو القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد الاخمي تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن على ماسياتي الائمة الى ان شاء الله عز وجل وكان يملك مالقة والجزيرة واغرنطة وما والى ذلك البربر بنو برزال الصنهاجيون على ما قدمناه وتغلب على المرية وأعمالها زهير العامري الخادم ثم ملكها بعده خيران العامري أيضاً الخادم ثم تغلب عليها بعدهما أبو يحيى محمد ابن معن بن صامح الملقب بالمعتصم فلم يزل فيها الى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتوني في شهر سنة ٤٨٤ هـ وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامري أصله رومي مولى لابن عامر محمد بن أبي عامر ثم ملكها بعده ابنه علي بن مجاهد وتلقب بالموفق لأعلم في المتغلبين على جهات الاندلس أصون منه نفساً ولا أظهر عرضاً ولا أنقى ساحة كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها وكان مؤثراً للعلوم الشرعية مكرماً لاهلها توفي قبل فتنة المرابطين يسير لا تحقق تاريخ وفاته وكان يملك الثغر الذي من الجهة الشمالية من الاندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الاعظم ابن الافطس المتلقب بالمظفر ذهب عنى اسمه ثم كان له ابن اسمه عمر يكنى أبا محمد تلقب بالمتوكل على الله كان يملك بطايوس وأعمالها وبابرة وشنترين والأشبونة كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب

خاصة من النحو واللغة والشعر ونوادير الاخبار وعيون التاريخ
 اتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات
 للروحي وعيون الاخبار لأبي محمد بن قتيبة جاء هذا الكتاب في نحو
 من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ترجمته المظفري وكان لابنه
 المتوكل قدم راسخه في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية
 تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء واتصلت مملكته الى أن
 قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه الفضل والعباس
 صبراً ضربوا أعناقهم في غرة سنة ٤٨٥ وكانت أيام بني المظفر بمغرب
 الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم
 قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم وفيهم يقول
 الوزير الكاتب الابرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبيدون
 من أهل مدينة يابرة قصيدته الغراء ، لابل عقياته العذراء ، التي أوزت
 على الشعر وزادت على السحر ، وفعات في الألباب فعل الحمر . فجلت
 عن أن تساما . وأنت من أن تضاهها . فقل لها النظر . وكثر اليها
 المشير . وتساي في تفضيها وتقديمها بأقل وجري . فله هي من عقياة
 خدر قربت بسهولة حتى أطمعت . وبعدت حتى عزت فامتعت .
 أوردتها في هذا المصنف وان كان فيها طول مخرج عن الحد الذي
 رسمته . مغل بالتلخيص الذي شرطته لصحة مبانيها . ورشاقة الفاظها
 وجودة معانيها . سلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق اليها .
 وورد شريعة لم يزاحم عايتها . فلذلك قل مثاها لابل عدم . وعز نظيرها
 فما توهم ولا علم . وهي

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور

أنهم أنهلك لا آلوك موعظة
 فالدهر حرب وأن أبدي مسألة
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا تغرنك من دنياك نومتها
 ما ليلالي أقال الله عثرتنا
 في كل حين لها في كل جراحة
 تسر بالشيء لكن كي تغربه
 كم دولة وليت بالنصر خدمتها
 هوت بداراً وفات غرب قاتله
 واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
 وألحقت أختها طسما وعاد على
 وما أقالت ذوي الهيات من يمن
 ومزقت سباً في كل قاصية
 وأنفذت في كليب حكمها ورمت
 ولم ترد على الضائيل صحتة
 ودوخت آل ذبيان وأخوتهم
 وألحقت بعدى بالعراق على
 وأهلكت أبرويزا بابنه ورمت
 وبأمت يزدجرد الصين واختزلت
 ولم ترد مواضي رستم وقنا
 يوم القايب بنو بدر فنوا وسي
 ومزقت جعفرأ بالبيض واختلست
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسود مثل البيض والسمر
 يد الضراب وبين الصارم الذكر
 فما صناعة عينها سوي السهر
 من الليالي وخانتها يد الغير
 منا جراح وانزاعته عن النظر
 كالأيام نار إلى الجاني من الزهر
 لم تبق منها وسل ذكر الك من خير
 وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
 ولم تدع لبني يونان من أثر
 عاد وجرهم منها ناقص الممر
 ولا أجارت ذوى الغايات من مضر
 فما التقى راعح منهم بمشكر
 مهلهلabin سمع الارض والبصر
 ولا نلت أسداً عن ربه حاجر
 عبساً وغضت بني بدر على النهر
 يد ابنه أحر العينين والشعر
 يزدجرد الى مرو فلم يحجر
 عنه سوي الفرس جمع الترك والخزر
 ذي حاجب عنه سعدا في أبنة الغير
 قايب بدر بمن فيه الى سقر
 من غيلة حمزة الظلام للجزر

وأشرفت بخيب فوق فارعة
 وخضبت شيب عثمان دما وخطت
 ولا رعت لأبي اليعقظان صحبته
 وأجزرت سيف أشقاها بأحسن
 وليتها اذ فدت عمرأ بخارجة
 وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن
 فبعضنا قائل ما غتاله أحد
 وأردت ابن زياد بالحسين فلم
 وعمت بالطي فودي أبي أنس
 وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة
 ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا
 وأعملت في لطيم الجن حياتها
 ولم تدع لأبي الذبان قاضيه
 وأحرق شلو زيد بعد ما احترقت
 وأظفرت بالوليد بن يزيد ولم
 حباية حب رمان أتيسح لها
 ولم تعد قطب السفاح نابعة
 وأسبلت دمة الروح الأمين على
 وأشرفت جعفر والفضل ينظره
 وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت
 وما وفدت بعهود المستعين ولا
 وأوثقت في عراها كل معتمد

وألصقت طلحة الفياض بالعفر
 الى الزبير ولم تستحي من عمر
 ولم تزوده الا الضيح في الغمر
 وأمكنت من حسين راحتي شمر
 فدت علياً بمن شاءت من البشر
 أتت بمعضلة الألباب والفكر
 وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
 يبؤ بشسع له قد طاح او ظفر
 ولم ترد الردى عنه قنا زفر
 كانت بها مهبجة المختار في وذر
 راعت عيادته بالبيت والحجر
 واستوسقت لأبي الذبان ذي البخر
 ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر
 عليه وجداً قلوب الآي والصور
 تبق الخلافة بين الكأس والوتر
 وأحمد قطرته نفحة القطر
 عن رأس مروان وأشياعه الفجر
 دم بفتح لآل المصطفى هدر
 والشيخ يحيى ريق الصارم الذكر
 لجعفر بابنه والاعبد الغدر
 بما تأكد للمعتز من مرر
 وأشرفت بقذاها كل مقتدر

وروعت كل مأمون ومؤتمن
 وأثرت آل عباد لما لهم
 بني المظفر والأيام لانزلت
 سحقاً يومكم يوماً ولا حملت
 من للأسرة أو من الأعنة أو
 من للظبي وعو إلى الخط قد عقدت
 وطرقت بالمتايا السود بيضهم
 من للبراعة أو من للبراعة أو
 أو دفع كارثة أو ردع رادفة
 ويب السباح وويب البأس لو سلمنا
 سقت تري الفضل والعباس هامية
 ثلاثة ما رأي السعدان مثاهم
 ثلاثة ما رتقي النسران حيث رقوا
 ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا
 ومراً من كل شيء فيه أطييه
 أين الجلال الذي غضت مهابته
 أين الإباء الذي أرسوا قواعده
 أين الوفاء الذي أصفو شرائعه
 كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا
 كانوا مصابيحاً فذخبوا عثرت
 كانوا شجي الدهر فاستهوتهم خدع
 ويل أمه من طلوب الثار مدركه

وأسلمت كل منضور ومنصر
 بذيل زباء لم تنفر من الذعر
 مراحل والوري منها على سفر
 بمله ليلة في غابر العمر
 من للأسنة يهديها إلى الثغر
 أطراف ألسنها بالبي والحصر
 فأعجب بذلك وما منها سوي الذكر
 من للسماحة أو للنفع والضرر
 أو وقع حادثة تعي على القدر
 وحسرة الدين والدنيا على عمر
 تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
 وأخبرولو عززاً في الحوت بالقمر
 وكل ماطر من نسر ولم يطر
 عنى مضى الدهر لم يربيع ولم يحمر
 حتى التمتع بالأصال والبكر
 قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
 على دعائم من عز ومن ظفر
 فلم يرد أحد منها على كدر
 عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
 هذى الخليفة يا الله في صدر
 منه باحلام عاد في خطي الحضر
 منهم بأسد سراً في الوغي صبر

من لى ولا من بهم ان اطلعت نوب ولم يكن ليها يفضي الى سحر
 من لى ولا من بهم ان عطلت سنن واخفت السن الآثار والسير
 من لى ولا من بهم ان طبقت محن ولم يكن وردها يدعو الى صدر
 على الفضائل الا الصبر بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر
 يرجو عيسى وله في أختها أمل والدهر ذو عقب شقى وذو غير
 قرطت أذان من فيها بفاضة علي الحسان حصي الياقوت والدرر
 سيارة في أقاصي الارض قاطعة شقائق هزرت في البدو والحضر
 مطاعة الأمر في الالباب قاضية من المسمع مالم يقض من وطر
 وكان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه وهو أحد
 كتاب المغرب ومن جمع منهم فضيات الكتابة والشعر على انه مقل
 من النظم لم يثبت له منه الا يسير بالنسبة الى غزارة آدابه ونباهة قدره
 وسيمر من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدل على ما
 وصفناه به حكى عن نفسه رحمه الله انه كان بين يدي مؤدبه وسنه اذ ذاك
 ثلاث عشرة سنة فعن المؤدب ان قال

* الشعر خطة خسف * وجعل يردد هذا القول قال الوزير أبو محمد
 رحمه الله فكنت في لوحى مجزأ له * لكل طالب عرف *
 ثم خطر لى بيت ثان وهو

للشيوخ عيبة عيب وللفق ظرف ظرف
 قال فنظر الى المؤدب وقال يا عبد المجيد ما الذى تكتب فاريت اللوح فلما
 رآه لطمني وعرك أذنى وقال لا تشتغل بهذا وكتب اليتيم عنده
 ومن غزارة حفظه رحمه الله ما حدث الوزير الاجل أبو بكر محمد بن
 وزير أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر

وكان أبو بكر هذا قد مات عن سن عالية نيف على الثمانين قال بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى كتاب الإغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له أين الاصل الذي كتبت منه لا قابل معك به قال ما أتيت به معى فيينا أنا معه فى ذلك أن دخل الدهليز علينا رجل بذ الهئة عليه ثياب غايظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لانها من غير اتقان لها فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية فسلم وقعد. وقال لي يابنى استأذن لى على الوزير أبي مروان فقلت له هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف حماى على ذلك نزوة الصبي وما رأيته من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عنى ساعة وقال ما هذا الكتاب الذي بأيديكما فقلت له ما سؤااك عنه فقال أحب أن أعرف اسمك فأتى كنت أعرف أسماء الكتب فقلت هو كتاب الاغاني فقال الى أين باغ الكاتب منه قلت باغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قلبه فقال وما لكاتبك لا يكتب قلت طابت منه الاصل الذي يكتب منه لا عارض به هذه الاوراق قال لم أجيء به معى فقال يابنى خذ كراريسك وعارض قلت بما ذا وأين الاصل قال كنت احفظ هذا الكتاب فى مدة صباي قال فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمى قال يابنى أمسك على قال فأمسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واوآ ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم اخذت له فى وسط السفر وآخره فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء فاشتد عجبى وقت مسرعا حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حتى القدمين لا يرفق على نفسه وانا بين

يديه وهو يوسعنى لوما حتى ترامي على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يا مولاي أعذرني فوالله ما أعلمنى هذا الخلف الا الساعة وجعل يسبى والرجل يخفض عليه ويقول ما عرفنى وأبى يقول هبه ما عرفك فما عذره فى حسن الادب ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثنا طويلا ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى باغ الباب وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع اليه أبداً فمما انفصل قلت لأبى لمن هذا الرجل الذى عظمت هذا التعظيم قال لى اسكت ويحك هذا أديب الاندلس وامامها وسيدها فى علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محنوظاته كتاب الاغانى وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته سمعت هذه الحكاية من أبى بكر بن زهر رحمه الله حين دخلت عليه وقد وفد عن مرا كش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف فى شهور سنة ٥٩٥ وأنشدني الوزير أبو بكر المذكور فى هذا التاريخ لنفسه بعد أن سألتنى عن اسمي وعن نسبي فتسميت وانتسبت وتسمى لى هو رحمه الله وانتسب من غير استدعاء تواضعا منه وشرف نفس وتهذيب خلق قدس الله روحه وسامحه

لاح المشيب على رأسي فقلت له الشيب والغيب لا والله ما اجتماعا يا ساقى الكاس لا تعدل الي بها فقد هجرت الحيا والحميم معا وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني

انى نظرت الى المرأة اذ جابت فأنكرت مقلتاى كلما رأتا
رأيت فيها شيئا لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فنا
هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه رحمه الله وله شعر كثير أجاد فى أكثره

وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها هو آخر المجيدين في صناعتها ولولا أن العادة لم تنجر بإيراد الموشحات في الكتب المجلدة المخددة لأوردت له بعض ما بقي على خاطري من ذلك

ثم رجع بنا القول الى ذكر أحوال الاندلس فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا اسماءهم هم الذين ملكوا الاندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها واستبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات وانقطعت الدعوة للخلافة وذكر اسمها على المنابر فلم يذكر خليفة أموي ولا داسمي بقطر من أقطار الاندلس خلا أيام سيرة دعي فيها لهشام المؤيد ابن الحكم المستنصر بمدينة اشبيلية وأعمالها حسب ما اقتضته الحيلة واضطر اليه التدبير ثم انقطع ذلك حسب ما يأتي بيانه ان شاء الله تعالى فاشبهت حال ملوك الاندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا ولم يزالوا كذلك وأحوال الاندلس تضعف وتغورها تحتل ومجاوروها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم الي أن جمع الله الكلمة ورأب الصدع ونظم الشمل وحسم الخلاف وأعز الدين وأعلى كلمة الاسلام وقطع طمع العدو بين نقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله ثم استمر على ذلك ابنه علي وأعاد الى الاندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها فكانت الاندلس في أيامهما حرماً آمناً وأول دعاء دعي بالخلافة العباسية أبقاها الله على منابر الاندلس في أيامهما ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الاندلس والمغرب الي أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصامدة في بلاد السوس على ما يأتي بيانه ان شاء الله عز وجل

(فصل) واذا ذكرنا أحوال ملوك الاندلس المتغلبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الاجمال فلنرجع الى ذكر مملكة اشبيلية خصوصا من جزيرة الاندلس وذكر من ملكها فبذلك يتصل نسق الاخبار عما نريده ويتطرق لنا القول فيما نقصده لان ملك اشبيلية هو كان السبب في دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الاندلس على ما سيدكر ان شاء الله تعالى فنقول أما أحوال اشبيلية فانها كانت في طاعة الفاطميين أعني على بن حمود والقاسم بن حمود ويحيى بن علي بن حمود أيام كان الأمر دأراً بينهم على ما تقدم ذكره فلما زحف يحيى بن علي بالبرابر الى قرطبة وهرب القاسم بن حمود منها وقصد اشبيلية وقد كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر أهل اشبيلية واتفق رأيهم على اخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما فاخرجوهما وجاء القاسم فتمعده دخول البلد أيضاً واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع اليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم فتوارداختيارهم بعد محض الرأي ونتيج التدبير على القاضي أبي القاسم محمد بن اسمعيل بن عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله وسعة صدره وعلو همته وحسن تدبيره فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك فتهيب الاستبداد وخاف عاقبة الافراد أولاً وأبى ذلك الا على أن يختاروا له من انفسهم رجالاً سناهم لهم يكونون له أعواناً ووزراء وشركاء لا يقطع أمر أدونهم ولا يحدث حدثاً الا بمشورتهم وهؤلاء المسمون هم الوزير ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ومحمد بن يريم الالهاني وأبو الأصبع عيسى بن حجاج الحضرمي وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني في رجال آخرين ذهبت عنى أسماؤهم الا أنى أعرف قبائهم وبيوهم ففعلوا ذلك وأجابوه الى ما أراد ولم يزل يدبر أمر اشبيلية وهؤلاء

المذكورون وزرأؤه وكان له من الولد اسمعيل وهو الأكبر يكنى أبا
الوليد وعباد يكنى أبا عمرو فأما اسمعيل فخرج الى لقاء البربر بعد أن حدث
لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من
أشبيلية بعسكر من جند اشبيلية فالتقى هو وصاحب صنهاجة فأسلمت
اسمعيل عساكره وكان أول قتيل وقطع راسه وسير به الى مالقة الى
ادريس بن علي الفاطمي كما تقدم وبقي الأمر كذلك والقاضي ابو القاسم
يدبر الأمور أحسن تدبير وكان صالحاً مصححاً الى أن مات في شهر سنة ٤٣٩

❦ ولاية المعتضد بالله العبادي ❦

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور اشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد
ابن محمد بن اسمعيل بن عباد فجري على سنن أبيه في إثارة الإصلاح وحسن
التدبير وبسط العدل مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمر وحده
وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواته
مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم
من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خولاً وفقراً
الى أن تم له ما أراد من الاستبداد بالأمر وتلقب بالمعتضد بالله وقيل
انه ادعى أنه وقع اليه هشام المؤيد بالله ابن الحكم المستنصر بالله وكان
الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل اشبيلية وخاف
قيام العامة عليه لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بقرطبة
كالمنظر والمستكنى والمعتد فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة وبلغه
انهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه فادعى ما ادعاه من ذلك
وذكر أن هشاماً عنده بصره وشهد له خواص من حشمه وأنه في

صورة الحاجب له والتمنذ لأمره وأمر بالدعاء له على المنابر فاستمر ذلك من أمره سنين إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة ٤٥٥هـ واستظهر بعهد عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جلالها برؤس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول في مثل هذا البستان فليتنزه وحلة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قاب وحدة نفس كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس كان قد استوى في مخائمه ومهابته القريب والبعيد لا سيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً وكان سبب ذلك أن ولده المذكور وكان اسمه اسمعيل كن بياغه عنه أخبار مضمونها استطالة حياته وتمنى وفاته فيتغاضي المعتضد ويتغافل تغافل الوالد إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر اسمعيل المذكور ليلة وتسور سور القصر الذي فيه أبوه في عباء وأراذل معه ورام القتل بابيه فأنبه البوابون والحرس فهرب أصحاب اسمعيل وأخذ بعضهم فاقروا وأخبر بالكائنة على وجهها وقيل أن اسمعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جعلاً سنياً قاله أنهم فقبض المعتضد على ابنه اسمعيل هذا واستصفي أمواله وضرب عنقه فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ وبلغني أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها كان هذا الرجل من بادية أشيلية كان المعتضد قد وضع يده على بعض مال لهذا الرجل الأعمى وذهب باقي ماله حتى اقتقر ورحل إلى مكة فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه منه

ذلك فاستدعى بعض من يريد الحج وناولوه حقا فيه دنائير مطاية بالسم
وقال لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الاعمي بمكة وسلم عاياه عنا فانفق
أن سلم الرجل ومعه الحق فحين وصل مكة لقي الأعمى ودفع اليه الحق
وقال هذا من عند المعتضد فانكر ذلك الأعمى وقال كذب يظهني
بأشيدلية ويتصدق على بالحجاز فلم يزل الرجل يخنضه الى أن سكن
وأخذ الحق فكان أول شيء فعله ان فتح الحق وعمد الى دينار من
تلك الدناير فوضعه في فمه وجعل يقلب ساثرها بيده الى أن تمكن منه
السم فما جاء الليل حتي مات فاعجب لرجل بقا صية المغرب يعتنى بقتل
رجل بالحجاز وقتل على هذه الصورة رجلا من المؤذنين من أهل
أشيدلية فر منه الى طايطة فكان يدعو عاياه بها في الأسحار مقدراً أنه
قد أمن غائته اذ صار في مملكة غيره فلم يزل يعمل فيه الحيلة الى أن
بعث من قتله وجاءه برأسه وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين
له وأشد هم عاياه البربر ضناهجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها
من نواحي أشيدلية فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويحجز الجيوش أخرى
الى أن استنزلهم ففرق كلتهم وشتت منتظم أمرهم ونفادهم عن جميع
تلك البلاد وصفت له أموره كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر
بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب الى ذلك الرجل الذي
جعل عينا له بقرمونة كتابا في بعض أمره ان استدعي رجلا من بادية
أشيدلية شديد البله كثير الغفلة وقال له اخاع ثيابك وألبسه جبة جعل
في جيبيها كتابا وخط عاياه وقال له اخرج الى قرمونة فاذا وصلت بقرمها
فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف اصحاب الحطب
ولا تبعها الا امان يشترها منك بخمسة دراهم وكان قد قرر هذا كله مع

صاحبه الذي بقرمونة نخرج البدوي كما أمره المعتضد فلما قرب من
 قرمونة جمع حزمة من الحطب ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه فجمع
 حزمة صغيرة ودخل بها البلد ودخل ووقف في موقف الخطابين فجعل
 الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمة فاذا قال لا أبيعها الا بخمسة
 دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه فلم يزل كذلك الى
 أن اجنه الليل والناس يسخرون منه فبعضهم يقول هذا أبوس ويقول
 الآخر لا بل هو عود هندي وما أشبه هذا حتى مر به صاحب المعتضد
 فقال له بكم تبيع حزمك هذه فقال بخمسة دراهم فقال قد اشتريتها
 فأحملها الى البيت فقام يحمالها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته فوضع
 الحزمة ودفع اليه الخمسة الدراهم فلما أخذها وهم بالانصراف قال له
 اين تريد في هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق فبت الليلة عندي فاذا
 أصبحت رجعت الى منزلك فأجابه فأدخله الى بيت وقدم له طعاماً
 وسأله كأنه لا يعرفه من أين أنت فقال أنا من بادية أشيلية قال يا أخي
 مالذي جاء بك الى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان
 الدماء عليهم فقال حماتي على هذا الحاجة ولم يظهر له أن المعتضد أرسله
 فلم يزل الرجل يحادثه الى أن أخذه النوم فلما رأى غلبة النوم عليه قال
 له تجرد من ثوبك هذا فهو أهنا لنومك وأروح لجسمك فتجرد الرجل
 ونام وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتش جيبها واستخرج الكتاب
 فقرأه وكتب جوابه وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان فلما
 أصبح الرجل لبس جبة ورجع الى أشيلية وقصد باب دار الامارة
 واستأذن فأدخل على المعتضد فقال له اخضع تلك الجبة وكساء ثيابا
 حسنا فرح بها البدوي وخرج من عنده فرحاً يري أنه قد خاع عابه

ولم يعلم فيم ذهب ولا بما جاء وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة
فقرأه ونعم ما اراد من امره وله في تدبير ملكه واحكام امره حيل وآراء
عجيبة لم يسبق الى اكثرها يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص
بسطها ولما قتل ابنه اسمعيل كما تقدم وكان قد لقبه المؤيد عهد بعده الي
ابنه ابي القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل بن عباد ولقبه بالمعتمد
على الله فحسنت سيرة ابي القاسم هذا في حياة ابيه وبعده وفاته وفي اماره
المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة قبيلتان عظيمتان من البربر رحبة
مراکش فتخبروها دار ملكهم لتوسطها البلاد وكانت اذ نزلوها غيضة
لا عمران بها وانما سميت بعبد اسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه
مراکش فاستوطنها البربر كذا كرنا وقدموا عليهم رجلا منهم اسمه
تاشفين بن يوسف وكان المعتضد في كل وقت يستطاع اخبار العبدوة
هل نزل البربر رحبة مراکش وذلك لما كان يراه في ملخمة كانت عنده
ان هؤلاء القوم خالعوه او خالعو ولدوه ومخرجوه من ملكه فلما بلغه
نزولهم جمع ولده وجعل ينظر اليهم مصعباً ومصوباً ويقول ياليت شعري
من تناله معرة هؤلاء القوم أنا او اتم فقال له ابو القاسم من بينهم
جعاني الله فذاك وانزل بي كل مكروه يريد ان ينزله بك فكانت دعوة
وافقت المقدار وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتي المرابطين رحبة
مراکش في صدر سنة ٤٦٣ وانفصلهم عنها جملة واحدة في وسط
سنة ٥٤٠ فكانت مدة اقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مراکش الى ان
انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة نحواً من ست وسبعين سنة ثم توفي
المعتضد بالله في شهر رجب من سنة ٤٦٤ واختلف في سبب وفاته فقيل ان
ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها اليه وقيل انه مات حتف أنفه فالله أعلم

— ولاية ابي القاسم بن عباد المعتمد على الله —

ثم قام بالأمر من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن اسمعيل ابن عباد وزاد الى المعتمد على الله الظافر بحول الله وكان المعتمد هذا يشبه بهرون الواثق بالله من ملوك بني العباس ذكاء نفس وغزارة أدب وكان شعره كأنه الحلل المنشرة واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك الأندلس وكان مقتصرأً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والزهادة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة وفي الجملة فلا أعلم خصلة محمد في رجل الا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها ولى أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعها واخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في اضعافها ما أثر اعيان على غيره جمعها في مائة سنة او أكثر منها كانت له رحمه الله همه في تخليد الثناء وإبقاء الحمد كان من جملة شعرائه رجل من اهل مدينة مرسية اسمه عبيد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعاني انشد يوماً بين يدي المعتمد رحمه الله بعد الحاضرين بيتين لعبيد الجليل بن وهبون هذا قالمها قديماً قبل وصوله الى المعتمد وهما

قل الوفاء فما تلقاه في احد ولا يمر لمخلوق على بال

وصار عندهم عنقاء مغربة او مثل ما حدثوا عن الف مثقال
فأعجب المعتمد بهما وقال لمن هذان البيتان فقالوا هما لعبد الجليل بن
وهبون احد خدم مولانا فقال المعتمد عند ذلك هذا والله اللوم البحث
رجل من خدامنا والمنقة طعين الينا يقول او مثل ما حدثوا عن الف
مثقال وهل يتحدث احد عنا بأسوء من هذه الأحداث وامر له بألف
مثقال فلما دخل عليه يتشكر له قال له يا أبا محمد هل عاد الخبر عياناً قال
أي والله يا مولاي ودعاه بطول البقاء فلما هم بالانصراف قال له يا عبد الجليل
الآن حدث بها لا عنها يعني الف مثقال وله رحمه الله شعر كثير برز
في أكثره واجاد ما اراد وسيمر منه في اضعاف اخباره ما يشهد له
بالتبريز عند ذوى التميز فما اختاره من شعره قوله

علل فؤادك قد ابل عليل . وانعم حياتك فالبقاء قليل
لو ان عمرك الف عام كامل ما كان حقاً ان يقال طويل
اكذابي قودبك الاسبى نحو الردى والعود عود والشمول شمول
لا يستبيك الهم نفسك عنوة والكأس سيف في يدك صقيل
بالعقل تزدهم الهموم على الحشا فالعقل عندي ان تزول عقول
ومن شعره السيار لا بل الطيار قوله في مملوك له صغير كان يتصرف
بين يديه أهده له صاحب طليطة اسم المملوك سيف

سموه سيفاً وفي عينيه سيفان هذا لقتلى مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى أتيت من الأجفان ثنتان
أسرته وثناني غنج مقاته أسيره فكلانا أسر عاني
يا سيف امسك بمعروف أسير هوى لا يبتني منك تسريحاً باحسان
ومن شعره الرشيق المايح الخفيف الروح الذي حكى اناء سلاسه

والصخر ملاسه قوله في هذا المملوك وقد عذر .

تم له الحسن بالعدار واقرن الليل بالنهار
أخضر في أبيض تبدي ذلك آبي وذا بهاري
فقد حوى بـلـي تماماً ان كان من ريقه تقاري

وبينا هو يوما في قبة له يكتب شيئا أو يطالع وعنده بعض كرائمه
فدخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت دونه تستره
من الشمس فقال رحمه الله بديها

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علماً لعمرك منها انها قر هل تكشف الشمس الا صورة القمر
وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها اذا لمع
البرق فارتاعت فقال رحمه الله بديها

ريعت من البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترناع
وله مع هذا مقاطيع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه ولاستدعاء
خاصة جلسائه منعنى من استيفائها قلة ما على خاطري منها وسيمر من
شعره الذي قاله في أيام محنته ما يفجر الصم ويزعزع الشم

وكان لا يستوزر وزيراً الآن يكون أديبا شاعرا حسن الادوات فاجتمع
له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لاحد قبله فن جملة وزرائه الوزير
الأجل ذو الرياستين أبو الوليد احمد بن عبد الله بن احمد بن زيدون
ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الاندلس المجيدون وغولها
المبرزين كان اذا نسب أنسك كثيرا واذا مدح أزدى بزهير واذا نخر
اناف على أمرى التيس فن جملة مقاطعه التي تشهد له بمجودة الطبع

واتقان الصنعة قوله

بنى وبينك مالو شئت لم يضع
يا بائعاً حظه منى ولو بذلت
يكفيك أنك إن حلت قاي ما
تهأتمل وأستطل أصد وعزأهن
سر إذا ذكعت الاسرار لم يذع
لى الحياة يحطى منه لم أبع
لاستطيع قلوب الناس يستطع
وولي أقبل وقل أسمع ومرا طع
وهو القائل رحمه الله يخاطب بنى جهور وكان قدوزر لهم قبل وزارته
للمعتمد لان أصله من مدينة قرطبة فنائه منهم محنة نخرج عن قرطبة
الى أشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده فكان يبلغه عن بنى
جهور ما يسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة فقال يخاطبهم

بنى جهور أحرقتوا بحفائكم
تعدونى كالغبر الورد انما
فؤادى فما بال المدائح تعبق
تفوح لكم أنفاسه حين يحرق
ومن نسيه الذى يخاطب بالروح رقة ويمتزج باجزاء الهواء لطافة قصيدته
التي قالها يتشوق ابنة المهدي ولادة وهى بقرطبة وهو بأشبيلية

بنتم وبنا فما ابتلت جوامحنا
نكاد حين تناجيكم ضامراً
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
سودا وكانت بكم بيضاً لينا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
قطوفها نجينا منه ماشينا
كنتم لأرواحنا الا رياحنا
حزنا مع الدهر لا يبلى وبياتنا
أنساً بقرهم قد عاد يبكينا
بأن نعص فقال الدهر آميناً
اذ جانب العيش طلق من تألفنا
واذ هصر ناغصون الانس دانية
ليسق عهدكم عهد السرور فما
من مبالغ ملبسينا باتزاحهم
أن الزمان الذى مازال يضعحكنا
غيط العدى من تساقينا الهوى فدعوا

فأنحل ما كان معقودا بانفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما نخشي تفرقنا فاليوم نحن وما يرجي تلاقينا
ياساري البرق غاد القصر فأسبق به من كان صرف الهوي والود يسقينا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحينا
لا تحسبوا نايكم عنا يغيرنا اذ طال ما غلير النأي الحينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياروضة طال ما أجت لو أخطنا وردا جناه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملأنا بزهرتها منى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسميك أجلا لا وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا فردت فما شورك في صفة فحسبك الوصف أيضا حواتيننا
كاننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غص من أجفان واشيننا
سران في خاطر الظالماء يكتمننا حتي يكاد لسان الصبح يفشيننا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسها والكوتر العذب زقوما وغثلينا
اناقرأنا الاسي يوم النوي سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
أوردتها على الاختيار لاعلى النسق ولعل في كثير مما تركت منها أحسن
مما أوردت وانما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ومن شعره
رحمه الله مما قاله في مدة صباه
أخذت ثلث الهوى غصبا ولي ثلث ولله حبيبين فيما بينهم ثالث
تالله لو حلف العشاق أنهم موتي من الوجد يوم الين ما حشوا
قوم اذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا فان عاد من يهونه بعثوا
تري المحبين صرعي في عراصهم كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا
ومما قال رحمه الله يتشوق ابنة المهدي المذكورة ومعاهده بقرطبة وضمنه

بيت أبي الطيب في أول قصيدته الكافورية

بما التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

قصيدة أولها

هل تذكرون غربياً عادته شجن من ذكركم وجفاً جفانه الوسن
يخفي لواحجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن
يا وياتاه أيبستي في جوانحه فؤاده وهو بالأطلال مرتهن
وأرق العين والظالماء غاكفة ورقاء قد شفها أو شفى حزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكته وبات يهفو أرتياحاً بيننا الغصن
يا هل أجالس أقواماً أحبهم كنا وكانوا على عهد فقد طعنوا
أو تحفظون عهداً لا أضيعها أن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها

ان كان عادكم عيب فرب فتى بالشوق قد عادته من ذكركم حزن
وأفردته الليالي من أحبه فبات ينشدها مما جني الزمن
بما التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

ومنهـم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ذو النفس العاصمية والآداب
الأهـمية كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هاني
الأندلسي وربما كان أحـلاً منزعاً منه في كثير من شعره ولشعره ديوان
يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم ألق أحداً ممن أدركته سنى من أهل
الآداب الذين أخذت عنهم الآرايتـه مقدماً له مؤثراً لشعره وربما تغالى
بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيأت فن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما
أراد قصيدته التي كتب بها من سر قصطة حين فرق المعتضد بالله بينه
وبين المعتـمد لانه شغله عن كثير من أمره فقناه وهي

على والا ما بكاء الغمام وفي والا ما نياح الحمام
وعنى أثار الرعد مرخة طالب لثار وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها لغبرى ولا قامت له فى ماتم
وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله

أبى أن يراه الله إلا مقلدا خيلة سيف أو حمالة غارم
ومن جيد نسيه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله

جاء الهوى فاستشعر وه عاره ونعيمه فاستعذ به أواره
لا تطلبوا فى الحب نزا انما عبد انه فى حكمه أحراره
قالوا أضربك الهوى فاجبتهم يا حبيذا وحبيذا اضرارهم
قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا نخلوه وما يختارهم
غير تمونى بالنحول وانما شرف المهند أن ترق شفارهم
وشتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سرارهم
أحسبتم السلوان هب نسيه أو ان ذاك النوم عاد غرارهم
ان كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعي اذا أنصارهم
من قد قلبي اذ تننى قد وأقام عذرى اذا أطل عذارهم
أم من طوى الصبح النير نقابه وأحاط بالليل البهيم خمارهم
غصن ولكن النفوس رياضه رشا ولكن القلوب عرارهم
سخرت ببدر التم غرته كما أزرت على أفاقه أضرارهم
ما زال ليل الوصل من فتكاته تسري الى بعرفه أسحارهم
ويجود روض الحسن من وجناته دمعي فيندي رنده وبهارهم
حتى سقانى الدهر كأس فراقه فسكرت سكر الا يفيق خمارهم
ووقفت فى مثل المحصب موقفا للبين من حب القلوب هجارهم

حيران أعمي الطرف وهو سواؤه وآذاب فيه القلب وهو قراره
 ولئن يذبه وهو مشواه فكم قد أحرقت عود العفارة ناره
 أن يهته انى أضعت لجه قلبي وذاعت عنده أسراراه
 فإين قلبي ان شكاه وشاحه لسواوه فاقتص منه سواره
 فوحسنه لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا ان حمصا داره
 بلد رمتنى بالمنى أغصانه وتفجرت لي بالندى أنهاره
 ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس وأنا
 ان شاء الله مورد منها مالا يخل بالشرط الذي التزمته ولا يخرج عن الحد
 الذى رسمته حسب ما بقى على خاطرى من ذلك لأنى كنت في حداثة
 سني قد صرفت عنايتي الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد لما تضمنته
 من الآداب وقد فشت خزانة حظي فلم ألق فيها الا نبذة يسيرة
 وأنا موردها ان شاء الله عز وجل فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى
 أبا بكر أصله من شلب من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس مولده
 ومولد أبائه بها كان حامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم
 الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر منهم بها أحد ورد مدينة شلب طفلاً
 فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن تيسن
 ألا علم ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ومبر في صناعة الشعر فكان
 قصاراه التكب به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا ينحصر بمدحه
 الملوك دون غيرهم بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو
 سوق وله في ذلك خبر ظريف وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب
 لا يملك الادابة لا يجد علفها فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل
 السوق فكان قدره عند ذلك الرجل ان ملأ له الخلاة شعيراً ووجه

بها اليه فراها بن عمار من أجل الصلاة وأسنى الجوائز ثم اتفق ان علت
 حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت وانتهى أمره أن ولاء
 المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضي الامر اليه فدخلها
 ابن عمار في موكب ضخمة وحيلة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها
 المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتمد بالله فكان أول شيء سأل
 عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر فقال ماصنع فلان أهو حي قالوا نعم
 فأرسل اليه بمخلاته بعينها بعد أن ملاها دراهم وقال لرسوله قل له لو
 ملاتها برا ملاناها تبرأ ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من
 التقلب في بلاد الاندلس للاستجداء والاستعطاف الى أن ورد على
 المعتمد بالله أنى عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف الغنان عن السرا
 والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل مننا العنبرا
 وفيها يقول يمدح المعتمد

عباد المخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الاغبرا
 قداح زند المجد لا ينفك من نار الوغي الا الى نار القرا
 يختار أن يهب الخريدة كاعبا والطرف أجرد والحسام مجورها

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتمد بالبربر
 شقيت بسيفك أمة لم تمتد الا اليهود وان تسموا بربراً
 أثمرت رحك من رؤوس كتهم لما رأيت الغصن يعشق مشمرا
 وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمر
 ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لتقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله
 السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها وأمر له بئال وثياب ومركب
وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء فكان كذلك ثم تعلق بالمعتمد على
الله وهو اذ ذاك شاب فلم تزل حاله معه تزيد وموات خدمته له تقوى
وتأكد الى ان صار ابن عمار الزرق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى
اليه من حبيل وريده كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار
ثم اتفق أن ولي المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار
هذا في تلك الولاية وسلم اليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة
شديدة وساءت السمعة عنهما فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى
ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الايماء اليه فلم يزل ابن عمار مغترباً
في أقاصي بلاد الأندلس الى ان توفي المعتضد بالله فاستدعاه المعتمد وقربه
أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه وله
معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب وذلك ان المعتمد استدعاه ليلة الى
مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به الا انه في تلك الليلة زاد في
التحفي به والبر له على المعتاد فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه
لتضعن رأسك معي على وساد واحد فكان ذلك قال ابن عمار فهتف
بي هاتف في النوم يقول لا تغتر أيها المسكين انه سيقنتك ولو بعد حين
قال فانتبهت من نومي فزعا وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على
حالته الأولى فانتبهت ثم عدت فسمعته نائمة فانتبهت فتجردت من أثوابي
والتفت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به وقد
أزمنت على أني اذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه
وأقصد بلاد العدو فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت فانتبه
المعتمد فاقتدني فلم يجدي فأمر بطاي فطلبت له في نواحي القصر

وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه فكان هو
 الذي وقع على ذلك انه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف
 بازاء الحصار الذي كنت فيه فكانت منى حركة فأحس بي وقال ما هذا
 يتحرك في هذا الحصار ثم أمر به فنفذ فخرجت عرياناً ليس على الا
 السراويل فلما رأي فاضت عيناه دموعاً وقال يا أبا بكر ما الذي حملك
 على هذا فلم أر بداً من ان صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها الى
 آخرها فضحك وقال يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال
 لي وكيف أقتلك أرايت أحداً يقتل نفسه وهل أنت عندي الا كنفي
 فتشكر له ابن عمار ودعاه بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه ومرت
 على ذلك الأيام والليالي الى ان كان من أمره ماسياً الى الائمة فصدقت
 رؤيا ابن عمار وقتل المعتمد نفسه كما قال ولما أفضى الأمر الى المعتمد كما
 ذكرنا سأله ابن عمار ولاية شاب وهي كانت ببلده ومنشأه كما تقدم
 فأجاب المعتمد الى ذلك وولاه اياها أبنه ولاية جعل اليه جميع أمورها
 خارجها وداخلها فاستمرت ولاية ابن عمار عليها الى أن اشتد شوق
 المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه فاستدعاه وعزله عنها واستوزره
 فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل المعتمد
 يعهده لكل أمر جليل ويؤهل لكل رتبة عالية وكان ابن عمار مع هذا
 لا يئناط به أمر الا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة واشتهر أمره ببلاد
 الأندلس حتي كان ملك الروم الادفنش اذا ذكر عنده ابن عمار قال
 هو رجل الجزيرة وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد اشبيلية
 وقرطبة وأعمالهما وذلك انه خرج في جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد
 طامعا فيها نخافه الناس وامتلات صدور أهل تلك الجهات رعباً منه

وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأيسر تدبير وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل وحلاها بالذهب وجعل أرضها في غاية الاتقان فخرج من عند المعتمد رسولا إلى الادفنش فلقية في أول بلاد المسلمين فأعظم الادفنش قدومه وبالغ في اكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمساعدة في حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فراها بعض خواص الادفنش فنقل خبرها إليه وكان العلاج أعنى الادفنش مولعا بالشطرنج فلما لقي ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج وكان ابن عمار فيه طبقة عالية فأخبره بمكانه منه فقال له ياغنى. إن عندك سفرة في غاية الاتقان قال ابن عمار نعم فقال كيف السبيل إلى رؤيتها فقال ابن عمار لترجمانه قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتني فلي حكمي فقال له الادفنش هلمها للنظر إليها فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي العلاج صلب وقال ما ظننت أن اتقان الشطرنج يباع إلى هذا الحد ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول فقال له الادفنش لا ألعب معك على حكم مجهول لأدري ما هو ولعله شيء لا يمكنني فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراد له لرجال وثق بهم من وجوه دولة الادفنش وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوا فتعلقت نفس العلاج بالسفرة وشاور خاصته في مارسه ابن عمار فهو نوا عليه وقالوا له إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها وإن غلبك فما عساه أن يحتكم وقبحوا عنده أظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه وقالوا له

ان طلب ابن عمار ما لا يمكن فتحن لك برذه عن ذلك ولم يزلوا به حتى
أجاب وأرسل الى ابن عمار خباء ومعه السفرة فقال له قد قبلت ما رسمته
فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً ساهم لهم فأمر الادفنش
بهم فحضرُوا وافتتحا ياعبان وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة بالأندلس
لا يقوم له أحد فيها فغلب الادفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن
للعاج فيها مطعن فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار هل صح ار لي حكمي
قال نعم فما هو قال أن ترجع من ههنا الى بلادك فاسود وجه العاج
وقام وقعد وقال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هوّتموه على في
أمثال لهذا القول وهم بانك والتمادى لوجهه فقبضوا ذلك عاياه وقالوا
له كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك التصارى في وقتك فلم يزلوا
به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ اناوة عامين خلاف هذه السنة
فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع وكف الله بأسه
ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار الى اشيائية
وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به ثم ان المعتمد حدث له أمل في
التغلب على مرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير وكانت بيد أبي عبد
الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عايبها والمدير لأمورها فجهز المعتمد
جيوشاً عظيمة وتكفل له ابن عمار بأخذها واخراج ابن طاهر منها
فولاه ماتولى من ذلك وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية فأخذها
وأخرج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني
عبد العزيز ببانسية فكان بها الى ان مات رحمه الله ولما تغلب ابن عمار
على مرسية دار ملك بني طاهر كما ذكرنا حدثته نفسه وسوّل له سوء
رأيه أن يستبد بأمره وأن يضبط تلك البلاد لنفسه فلم يزل يصرف

الحيلة في ذلك الى ان تم له بعضه ودانت له مرسية وأعمالها وطمع في ملك بلنسية الى ان قام عليه رجل من أهل مرسية يقال له ابن رشيق. كان أبوه من عرفاء الجند بها وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا الى نفسه وقامت معه العانة وبعض الجند فسمع ابن عمار بذلك فجاء يركض حتى أتى المدينة وقد غلقت أبوابها ودونه فحاصرها بمن معه أياماً فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين ينوجه وقد كان باغ المعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته فلم ير الا الهروب ملجأً فهرب حتى لحق ببني هود بسرقسطة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته وبغضه في عيونهم. ما فعل مع صاحبه وولي نعمته فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشنأه الى أن وقع في حصن من حصون الاندلس في غاية المنعة يدعى شقورة كان المتغلب عليه رجل يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته وأحسن نزله ثم بدا له بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لاعليك أن تكتب الى ملوك الاندلس بكوني عندك وتعرضني عليهم فما منهم الا من يرغب في من كان أشدهم رغبة جعل لك مالاً ووجهت بي اليه ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الاندلس الا رغب فيه وكتب فيمن كتب الى المعتمد وفي ذلك يقول ابن عمار

أصبحت في السوق ينادي على رأسي بأنواع من المال

والله ما جاز على ماله من ضمني بالثمن الغالي

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأوتي بها فقال في ذلك

بوسا شقورة عندى أربي على كل بوسا

فقدت هرون فيها فظلت أطلب موسا

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلّم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد ان بعث اليه ببال وخيل وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ووافق ذلك كون المعتمد بها فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوءه على بغل بين عدلي تبين وقيوده ظاهرة للناس وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال وقد كان قبل هذا اذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج اليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم فالسعيد منهم من يصل الى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل الا الى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ومنهم من ينظر اليه على بعد لا يستطيع الوصول اليه فسبحان محيل الاحوال ومديل الدول فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القعساء والملك الشاخص والرياسة الفارعة ذليلاً خائفاً فقيرا لا يملك الا ثوبه الذي عليه فسبحان من سلبه ما وهبه ومنعه ما كان به أمتعته وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا فلما رآه ابن عمار وكان معتماً أزال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر الى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى فساألناه فيم جاء فقال الذي جئت فيه صنعته هذا الرجل قبل ان أصل اليه فعلمنا انه أرسل ليزيل عمامته فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار في ذلك كله

مطرق لا ينبس الى أن انقضى كلام المعتمد فكان من جواب ابن عمار
ان قال ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله ولو أنكرته لشهدت
على به الجملادات فضلاً عن ينطق ولكن عثرت فأقل وزلت فاصفح
فقال المعتمد هيهات أنها عثرة لا تقال وأمر به فأحدر في النهر الى اشيلية
فدخل به اشيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة
على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق الى وقتنا هذا
فطال سجنه هناك كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توصل بها الى
الدهر لنزع عن جوره أو الى الفلك لكف عن دوره فكانت رقي لم
تنجع ودعوات لم تسمع وتماثم لم تنفع فنها قوله

سجايك ان عافيت أندی وأسجح وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كانت بين الخطتين مزية فأنت الى الأدنى من الله تنجح
حنانيك في أخذى برأيك لا تطع عدای ولو أننوا عليك وأفصحوا
فان رجائي ان عندك غير ما يخوض عدوي اليوم فيه ويرح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهني وقد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال تمت تصلح
أقاني بما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتوح
وعف على آثار جرم سلكتها بهبة رحمة منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل انا بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمرى حديث وقد أنى بزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك الا ما علمت فأنى اذا ثبت لائفك أسو وأجرح
كأنني بهم لا در لله درهم أشاروا تحامى بالشتم وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعله فقلت وقد يعفو فلان ويصفح

الا أن بطشا للمؤيد يرتقى
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
نعم لي ذنب غير أن لحلمه
عليه سلام كيف دار به الهوى
وبينه ان مت السلو فاني
وبين ضلوعي من هواء تيمة
ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل
من البغداديين فجعل يزري على هذا البيت وبين ضلوعي ويقول ما
أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله ان قال أمالئن سلبه
الله المروءة والوفاء لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهزلي
من طرف خفي وهو

واذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تيمة لا تنفع
ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد الى أن قتله صبراً في شهر ر سنة ٤٧٩
وتلخيص خبر قتله انه لما طال سجنه كتب اليه بالقصيدة التي تقدم انشادها
فأدركت المعتمد بعض الرقة فوجه اليه ليلاً وهو في بعض مجالس انسه
فأثى به يرسف في قيوده فجعل المعتمد يعدد منته عليه وأياديه قبله فلم
يكن لابن عمار جواب ولا عزر غير انه أخذ في البكاء وجعل يترقق
للمعتمد ويمسح عطفه ويستجلب من الالفاظ كل ما يقدر انه يزرع
له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعد ما أراد من ذلك وعطفت المعتمد
عليه سابقته وقديم حرمة فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً
لاصريحاً وأمر برده الى محبسه فكتب ابن عمار من فوره بمادار له مع
المعتمد الي ابنه الراضى بالله فوافاه الكتاب وبحضرته قوم كانت بينهم

وبين ابن عمار أحن قديمة فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم ما أرى
 ابن عمار الا سيتخلص فقالوا له ومن اين علم مولانا ذلك فقال هذا
 كتاب ابن عمار يخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص فأظهر
 بالقوم الفرح وهم يبطنون غيره فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا
 حديث ابن عمار أقبح نشر وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب
 عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل الى ابن عمار وقال له هل أخبرت
 أحداً بما كان بيني وبينك البارحة فانكر ابن عمار كل الإنكار فقال
 المعتمد للرسول قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في احدهما
 القصيدة فما فعلت الأخرى فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد
 لهم المسودة فلم يجد جواباً فخرج المعتمد خفقاً وبيده الطبرزين حتى
 صعد الغرفة التي فيها ابن عمار فلما رآه علم أنه قاتله فجعل ابن عمار يزحف
 وقيوده تنقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يشنيه
 شيء فعلاه بالطبرزين الذى في يده ولم يزل يضربه به حتى بردورجع
 المعتمد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك فهذا
 ما انتهى الينا من خبر ابن عمار ملخصا حسب ما بقى على خاطرى

ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته والايام تساعده والدمر على
 ما يريد يوازره ويماضه الى أن انتظم له في ملكه من بلاد الاندلس ما
 لم ينتظم لملك قبله أعني من المتغلبين ودخلت في طاعته مدن من مدائنها
 أعيت الملوك وأعجزتهم وامتدت مملكته الى أن بلغت مدينة مرسية
 وهي التي تعرف بتدمير فيها وبين اشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة
 وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة وكان تغلبه على قرطبة
 واخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١

ثم رجع الى اشيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالأمون وهو
أكبر ولده ولد له في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً فكان المعتضد
يضمه اليه ويقول يا عباد ياليت شعري من المقتول بقرطبة أنا أو أنت
فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد وفي السنة التي زال
عنه الملك فيها ولما كانت سنة ٤٧٩ هـ جز المعتمد على الله البحر قاصداً
مدينة مراكنس الى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم فلقبه
يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل وسأله عن حاجته
فذكر انه يريد غزو الروم وانه يريد امداد أمير المسلمين اياه بخيل
ورجل ليستعين بهم في حربه فاسرع أمير المسلمين المذكور اجابته الى
مادعاه اليه وقال له أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولي هذا
الامر أحد الا أنا بنفسى فرجع المعتمد الى الاندلس مسروراً باسعاف
أمير المسلمين اياه في طلبته ولم يدر ان تدميره في تديره وسل سيفاً
يحبسه له ولم يدر انه عليه فكان كما قال أبو فراس

إذا كان غير الله للمرء عدة أنته الرزايا من وجوه الفوائد
كاجرت الخفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

فاخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور الى جزيرة
الاندلس وذلك في شهر جمادى الاولى من السنة المذكورة فاستنفر
من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر
فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرجل فعبر
البحر بعسكر ضخم وكان عبوره من مدينة سبتة فنزل المدينة المعروفة
بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره
واكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين وقدم اليه من الهدايا والتحف

والذخائر المملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك فكان هذا أول مأوقع
في نفس يوسف التشوف الى مملكة جزيرة الاندلس ثم انه فصل عن
الخصراء بجيوشه قاصداً شرقي الاندلس وسأله المعتمد دخول اشبيلية
دار ملكة ليستريح فيها أياما حتي تزول عنه وعناء السفر ثم يقصد قصده
فأبى عليه وقال انما جئت ناويا جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت
وجهه وكان الادفنش لعنه الله محاصراً الحصن من حصون المسلمين
يعرف بحصن الليط فلما سلفه عبور البربر أقاع عن الحصن راجعاً
الي بلاده مستغفراً عما كره ليلقي بهم البربر وتوجه يوسف المذكور
الي شرقي الاندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر والاصلاح بين المعتمد
على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق قد تقدم
ذكره في أخبار ابن عمار فاصالح بينهما يوسف أمير المسلمين على ان
يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد عن ذلك ما لا جعله
له ويؤليه في جهة اشبيلية أضخم ولاية فاجابه ابن رشيق الي ذلك وتسلم
المعتمد مرسية وأعمالها ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الاندلس
الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم بن صمادح صاحب
المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية ثم ان يوسف المذكور
استعرض جنده على حصن لركة فرأى منهم ما يسره فقام للمعتمد على
الله هلم ماجئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من
الاقامة بجزيرة الاندلس ويتشوق الي مراكش ويصغر قدر الاندلس
ويقول في أكثر أوقاته كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن
نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسواً
في ارتفاع نخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد

أيضاً جيش ضخم من أقطار الاندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر
الجهات وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل
ورجال وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرزقة زهاء
عشرين ألفاً والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم وكان الادفنش لعنه
الله قد استنفر الصغير والكبير ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على
النهوض الا استنفضه وجاء يحرق الشوك والشجر وإنما كان مقصوده
الاعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الاندلس والتهيب عليهم فاما
ملوك الاندلس فلم يكن منهم أحد الا يؤدي اليه الاتاة وهم كانوا
أحقر في عينه وأقل من ان يحتفل لهم ولما تراءى الجمعان من المسلمين
والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد
وجودة سلاح وخيل وظهور قوة فقال للمعتمد ما كنت أظن هذا
الخنزير لعنه الله يبلغ هذا الحد وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من
يعظمهم ويذكرهم فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال
الشهادة ماسر به يوسف والمسلمون وكان تراءىهم يوم الخميس وهو الثاني
عشر من شهر رمضان فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف
ليستعد الفريقان فكان من قول الادفنش لعنه الله الجمعة لكم والسبت
لليهود وهم وزرأؤنا وكتابتنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا
عنهم والاحد لنا فاذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف وقصد
لعنه الله مخادعة المسلمين واغتيالهم فلم يتم له ما قصد فلما كان يوم الجمعة
تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمانة عندهم للقتال وبني يوسف بن
تاشفين الامر على ان الملوك لا تغدر فخرج هو وأصحابه في ثياب
الزينة للصلاة فاما المعتمد فانه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكى

السلاح وقال لأمير المسلمين صل في أصحابك فهذا يوم ماتطيب نفسي فيه وهأنا من وراءكم وما أظن هذا الخنزير الا قد أضمر الفتك بالمسلمين فاخذ يوسف وأصحابه في الصلاة فلما عقدوا الركعة الاولى نارت في وجوههم الخليل من جهة النصارى وحمل الادفنش لعنه الله في أصحابه يظن انه قد انتهز الفرصة واذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لاحد من قبله وأخذ المرابطون سلاحهم فاستولوا على متون الخليل واختلط الفريقان فظهر يوسف ابن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد وهزم الله العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه ونجاة الادفنش لعنه الله في تسعة من أصحابه فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالاندلس أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته وقطع طمع الادفنش لعنه الله عن الجزيرة بعد ان كان يقدر انها في ملكه وان رؤسها خدما له وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠ ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم فسر بهم أهل الاندلس وأظهروا التيمن بامير المسلمين والتبرك به وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر له من الثناء بجزيرة الاندلس ما زاده طمعاً فيها وذلك ان الاندلس كانت قبله بصدد التلافي من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها فاطبة فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين أظهر الناس اعظامه ونشأ له الود في الصدور ثم انه أحب ان يحول في الاندلس على طريق التفرج والتزهر وهو يريد غير

ذلك فجاء فيها ونال من ذلك ما أحب وفي خلال ذلك كله يظهر اعظام
المعتمد واجلاله ويقول مصرحاً انما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت
أمره وواقفون عند ما يحده وكان ممن اختص بأمر المسلمين من ملوك
الجزيرة وحظي عنده واشتد تقرب أمير المسلمين له أبو يحيى محمد بن
معن بن صامح المعتمد صاحب المرية وكان المعتمد هذا قديم الحسد
للمعتمد كثير النفاسة عليه لم يكن في ملوك الجزيرة من يناوئه غيره
وربما كانت بينهما في بعض الاوقات مراسلات قبيحة وكان المعتمد
يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته
ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته وقد كان المعتمد قبل عبور
أمير المسلمين بيسير توجه الى شرقي الاندلس يتطوف على مملكته
ويطالع أحوال عماله ورعيته فلما داني أول بلاد المعتمد خرج اليه في
وجوه أصحابه وتلقاه لقاءً نبيلاً وعزم عليه ليد خان بلاده فأبى المعتمد ذلك
ثم اتفقا بعد طول مراودة على ان يجتمعا في أول حدود بلاد المعتمد وآخر
حدود بلاد المعتمد فكان ذلك واصطلحا في الظاهر واحتفل المعتمد في
إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكة المعدة لمجالس
الانس ما ظنه مكماً للمعتمد مثيراً لغمه وقد أعاد الله المعتمد من ذلك
وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه ثم افترقا بعد ان أقام المعتمد
عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد الى بلاده وبأثر ذلك عبر الى
مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتمد معموراً الى ان عبر أمير المسلمين
كما ذكرنا فلقية المعتمد بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته
حتى قربه أمير المسلمين أشد تقرب وكان يقول لأصحابه هذان رجلا
هذه الجزيرة يعني المعتمد والمعتمد وكان أكبر أسباب تقرب أمير

المسلمين اياه ثناء المعتمد عليه عند أمير المسلمين ووصفه اياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بداله ان يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وافساد ما بينهما حسن له ذلك سوء رأيه ودنس سريره وضعف بصره يعواقب الامور وليقضى الله أمراً كان مفعولاً وليبلغ القدر ميقاته واذا أراد الله تمام أمراً له أسباباً فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ولم يدركه ساقط في البئر التي حفر وقتل بالسلاح الذي شهر فكان من حيلة ما ألقى الي أمير المسلمين ان جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنشمه وفرط كبره وانه لا يرى أحداً كفواً له وزعم انه قال له في بعض الايام وقد قال له المعتصم طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة يعني أمير المسلمين لو عوجت له أصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكانك تخاف غائلته وأى شيء هذا المسكين وأصحابه انما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئناهم الي هذه البلاد نطعمهم حسبة واشتجاراً فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الي بلادهم الي أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعاناه على ذلك قوم من وجوه الاندلس الي ان باغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد وقد كان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولاصحابه أجلاً وحدهم له ولهم مدة يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عايمها وانما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمد وتسكيناً لحاظره فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبر أمير المسلمين الي العدو وقد غر صدره وتغيرت نفسه

وما النفس الا نطفة في قرارة اذالم تكدر كان صفواً غديرها هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوفه الي مملكتها وظهرت

للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها انه غير عليه ورجع أمير
 المسلمين الى مرا كش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد فبلغني
 انه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه كنت أظن اني قد ملكت شيئاً
 فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني فملكتي فكيف الحياة في تحصيلها
 فاتفق رأيهم ورأى أصحابه على أن يرسلوا المعتمد يستأذنه في رجال من
 صلحاء أصحابهم يرغبوا في الرباط بالاندلس ومجاهدة العدو والكون
 ببعض الحصون المصاوبة للروم الى أن يموتوا ففعلوا وكتبوا الى المعتمد
 بذلك فأذن لهم بعد ان وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب
 الثغور وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم
 مبثوثين بالجزيرة في بلادها فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار
 لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً وقد كانت قلوب أهل الاندلس
 كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه فجهز يوسف من خيار
 أصحابه رجلاً انتخبهم وأمر عليهم رجلاً من قرابته يسمى بلجين وأمر
 اليه ما أراد فجاز بإجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة
 فقال له أين تأمرني بالكون فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله
 ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه
 وأقاموا هناك الى ان نارت الفتنة على المعتمد وكان مبادها في شوال من
 سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدو دون مقدمة
 ظاهرة توجب ذلك فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتزمة وانتثوت بلاده
 وقلوب أهلها على محبته منتظمة ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف
 ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الاندلس وزحف القوم
 الذين قدمنا ذكرهم الكاثون في الحصون الى قرطبة فحاصروها وفيها

عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون وقد تقدم ذكره وهو من أكبر ولده
 فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً وأظهر في الدفاع
 عن نفسه جلدأً وصبراً وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤
 فزادت الأحنة والمحنة واستمرت في غلوائها الفتنة وأجمعت على الثورة
 بحضرة اشبيلية طائفة فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف
 له عن مرادها وأثبت عنده سوء اعتقادها وأغرى بتزيق أديبها وسفك
 دمها وحض على هتك حریمها وشفق حریمها فأبى له ذلك مجده
 الأنيل وورأيه الأصيل ومذهبه الجميل وما حباه الله به من حسن
 اليقين وصحة العقل والدين إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف
 رجب من السنة المذكورة فقاموا بحيش غير مستنصر واستنصروا بقائناً
 غير مستنصر فبرز هو من قصره سيفه بيديه وغلالته ترف على جسده
 لا درقة له ولا درع عليه فاتى على باب من أبواب المدينة يسمى باب
 الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح فرماه الفارس
 برمح قصير أناب القنا طويل شفرة السنان فالتوى الرمح بغلالته
 وخرج تحت إبطه وعصمه الله منه ودفعه بفضلته عنه وصب هو سيفه
 على عاتق الفارس فشق إلى أضلاعه نحر صريعاً وانهمزت تلك الجموع
 ونزل المتسمنون للأشوار عنها وظن أهل اشبيلية أن الخاق قد تنفس
 فلما كان عصر ذلك اليوم : عاودهم القوم : فظهر على البلد من واديه :
 ويئس من سكني ناديه : وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه : وشبت النار
 في شوانيه : فانقطع عندها العمل والقول : وذهبت القوة من أيدي
 أهلها والحوول : وكان الذي ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب
 يوسف أمير المسلمين يعرف بمحدير بن واسنوا ومن الوادى رجل

يعرف بالقائد أبي حمامة مولي بني سجوت والتوت الحال اياماً يسيرة الى ان ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخي أمير المسلمين بعساكر متظاهرة : وحشود من الرعية وافرة : والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع : وخالط قلوبهم الهلع : يقطعون السبل سياحه : ويعبرون النهر سباحه : ويتولجون بحارى الأقدار : ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد : المقيمون على صريح الود : نابتون الي ان كان يوم الأحد لاحدى وعشرين ليلة خات من رجب من السنة المذكورة وهذا يوم الكائنة العظمى : والطامة الكبرى : فيه حم الامر الواقع : واتسع الخرق على الراقع : ودخل البلد من واديه : وأصيب حاضره وباده : بعد ان جد الفريقان في القتال : واجتهدت الفئتان في النزال : وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وباسه : وتراميه على الموت بنفسه : مالا يزيد عليه : ولا تناء خلق اليه : وفي ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً

لما تماكت الدموع	وتنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضو	ع على في السم النقيع
ان تستلب عني الدنى	ملكى وتسلفي الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطب	ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصنى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي	ص عن الحشى شئ دفع

وبذل نفسى كي تسيـل اذا يسيل بها النجـيع
أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخشوع
مأسرت قط الى القتا لو كان من أمل الرجوع
شيم الاولى أنا منهم والاصل تتبعه الفروع

فخنة الغارة في البلد ولم يترك البربر لاحد ممن أهلها سبداً ولا لبدأ
وانتهت قصور المعتمد نهياً قبيحاً وأخذ هو قبضاً باليد وجذب على
مخاطبة ابنه المعتمد بالله والراضى بالله وكانا بمعقلين من لمعاقل الاندلس
المشهوره لو شاء ان يمتنعا بهما لم يصل أحد اليهما أحد الحصنين يسمى
رندة والاخر مار تلة فكتب رحمه الله وكتبت السيدة الكبرى أمهما
مستعطفين مسترحمين معلمين ان دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما فانفا
من الذل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أيهما ثم عطفتهما
عواطف الرحمة ونظرا في حقوق أبويهما المقرنة بحق الله عز وجل
فتمسك كل منهما بدينه ونبتذ دنياه ونزلا عن الحصنين بعد عهود
مبرمة ومواسيق محكمة فاما المعتمد بالله فان القائد الواصل اليه قبض عند
نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره
قتل غيلة وأخفى جسده ورحل بالمعتمد وآله بعد استئصال جميع
أحواله ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد فركب السفين وحل بالعدوة
بحل الدفين فكان نزوله من العدو بطنجة فاقام بها أياما ولقيه بها
الحصري الشاعر فخرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط
الالحاف فرفع اليه اشعاراً قديمة قد كان مدحه بها وأضاف الي ذلك
قصيدة استجدها عند وصوله اليه ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم
بما زود به فيما باغى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا فطبع عليها وكتب

معها بقطعة شعر يعتذر من قتلها سقطت من حطلي ووجه بها اليه فلم
يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا
الرجل أغنى الحصري الاعمي أسرع الناس في الشعر خاطراً الا انه
كان قليل الجيد منه فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها

قل لمن قد جمع العلم وما أحصى صوابه

كان في الصرة شعر فتشظرننا جوابه

قد أنبئك فهلا جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعائفة الشعراء وملحنى أهل الكدية ما صنع المعتمد
رحمه الله مع الحصري تعرضوا له بكل طريق • وقصدوه من كل فج
عميق • فقال في ذلك رحمه الله

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الإغراب أبعدهم مذهب

سئلوا العسير من الأسير وانه بسؤالهم لاحق فاعجب واعجب

لولا الحياء وعزة الخمية طي الحشا ساواهم في المطلب

قد كان ان سئل التدي يجزل وان نادى الصريح ببابه اركب يركب

وله في هذا المعنى رحمه الله

قبح الدهر فاذاً صنعاً كلما أعطي نفيساً نزعا

قد هوى ظلمنا بمن عادته ان ينادى كل من هوى لعا

من اذا الغيث همى منهمرا اخجلتها كفه فائقطعا

من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانتشعا

من اذا قيل الخنا صم وان نطق العافون همساً سمعا

قل لمن يطمع في نائله قد أزال اليأس ذاك الطمعا

راح لا يملك الا دعوة جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة رحمه الله أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ثم
انتقل الى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً الى أن نفذ الامر بتسييرهم
الى مدينة أغمات فأقاموا بها الى أن توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها
فقبره معروف هناك وكانت وفاته في شهر ربيع سنة ٨٧٠ وقيل سنة ٨٨٠
فإنه أعلم وسنه يوم توفي احدى وخمسون سنة فمن أحسن ما مر بي بما
رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر بن اللبابة أولها

لكل شيء من الاشياء ميقات	والذي من منايها غايات
والدمر في صبغة الحرباء منغمس	والوان حالاته فيها استحيالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده	وربما قرت بالبيد ذق الشاة
فانفض يدك من الدنيا وساكها	فالارض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الارضى قد كتمت	سريرة العالم العلوى اغمات
طوت مظلها لا بل مذلتها	من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندي والبأس أنصه	هنديا وعطايه هنيئات
انكسرت الاتواء للقيود به	وكيف تنكر في الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست	من رأسه نحو رجله الذؤابات
وأوه ليئلاً فخافوا منه عادية	عذرتهم فلعنوا الليث عادات

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها

تبكي السماء بدمع راتج غادى	على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها	وكانت الارض منهم ذات أوتاد
والرايات عليها اليانعات ذوت	انوارها ففقدت في خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على	أسود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها	فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

خطب الزمان ثقافا غير معتاد
أيدى الردى وثنتها دون اغماد
وكل شيء لميقات وميعاد
هناك من درر للمجد أفراد
ذوي وذاك خبي من بعد ايقاد
في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
خف القطين وجف الزرع بالوادي
اغير قصد فما يهديك من هادي

تلك الرماح رماح الحظ ثقفا
والبيض بيض الظبا قلت مضاربها
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة
كم من درارئ سعد قد هوت ووهت
نور ونور فهذا بعد نعمته
يا ضيف اقرر بيت المكرمات تخذ
ويا مؤمل وادهم ليسكنهم
ضلت سبيل الندى بآب السبيل فسر
وفيها يقول

في المنشئات كأموات بالحداد
من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
ومزقت أوجه تمزيق ابراد
أهلا بأهل واولادا باولاد
وصارخ من مفداة ومن فادى
كأنها ابل يحدو بها الحادي
تلك القطائع من قطعات الكباد
ماء السماء أبى سقيا حشا الصادى

نسيت إلا غداة النهر كونهم
والناس قد ملثوا العبرين واعتبروا
حط القناع فلم تستر مخدرة
تفرقوا جيرة من بعد ما نشثوا
حان الوداع فضجت كل صارخة
سارت سفائنهم والنوح يتبعها
كم سال في الماء من دمع وكم حلت
من لى بكم يا بنى ماء السماء اذا

وهي طويلة جداً هذا ما اخترت له منها وابن اللبانة هذا هو ابو
بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية وهى على ساحل البحر الرومى
كان يملكها مجاهد العاصرى وابنه على الموفق على ما تقدم ولا ابن اللبانة
هذا أخ اسمه عبد العزيز وكانا شاعرين الا ان عبد العزيز منهما لم يرض
الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبا وانما كان من جملة التجار وأما ابو بكر

فرضيه بضاعة وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصده الملوك فأخذ جوارهم
ونال أسنى الرتب عندهم وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيح
جمع بين سهوله الإلفاظ ورشاقتها • وجودة المعاني ولطافتها • كان
منقطعاً إلى المعتمد معدوداً في جملة شعرائه لم يفد عليه إلا آخر
مدته فلماذا قل شعره الذي يمدحه به وكان رحمه الله مع سهولة الشعر
عليه واكثره منه قليل المعرفة بعلمه لم يجد الخوض في علومه وإنما
كان يعتد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته يدل على ذلك
قوله في قصيدة له سيرد ما اختاره منها في موضعه

لمن كان ينفق من سواد كتابه فانا الذي من نور قلبي أنفق

ولما خلع المعتمد على الله وأخرج من أشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب
في البلاد إلى أن لحق بحجزيرة مريقة وبها مبشر العامري المتقلب بالناصر
فخطي عنده وعلت حاله معه وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء فنهت قصيدة
ركب فيها طريقة لم أسمع بها للمتقدم ولا متأخر وذلك أنه جعلها من
أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح وهذا لم أسمع به لأحد
وأول القصيدة

وضحت وقد فضحت ضياء النير	فكانما التحفت ببشر مبشر
وتيسمت عن جوهر خسبته	ماقلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكان طيب حديثها	متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما	هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فغرت على	عاداته في المذهب المستغفر
جادت على بوصلها فكانه	جدوى يديه على المقل المقتري
ولتمت فاما فاعتقدت بأنني	من كفه سوغت ثم انحصر

سمحت بتعنيقي فقلت صنعة
 نهد كقسوة قلبه في معرك
 ومعاظف تحت الذوائب خلتها
 حسنت امامي في خمار مثل ما
 وتوشحت فكأنه في جوشن
 غمرت ببعض قسيه من حاجب
 أومت بمصقول الماحظ لخلته
 وضعت حشاياها فوق أرائك
 من رامة أو رومة لاعلم لي
 بنت الملوك فقل لكسرى فارس
 عادت فيها غرقومي فاغندوا
 وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
 طافت على بجمرة من خمرة
 فكان أنتم لها سيوف مبشر
 ملك أزره برده ضمت علي
 هذا ما اخترت له منها ومن نسيه
 المليلح الخفيف الروح قوله يتنزل

فترى فراشاً في فراش يحرق
 ورجعت كالنفس الذي لا يلحق
 طرقي فهل سبب به أتعاق
 في جنب موعذك الذي لا يصدق
 ظل الغمامة والهجير المحرق

سمحت بتعنيقي فقلت صنعة
 نهد كقسوة قلبه في معرك
 ومعاظف تحت الذوائب خلتها
 حسنت امامي في خمار مثل ما
 وتوشحت فكأنه في جوشن
 غمرت ببعض قسيه من حاجب
 أومت بمصقول الماحظ لخلته
 وضعت حشاياها فوق أرائك
 من رامة أو رومة لاعلم لي
 بنت الملوك فقل لكسرى فارس
 عادت فيها غرقومي فاغندوا
 وكذلك الدنيا عهدنا أهلها
 طافت على بجمرة من خمرة
 فكان أنتم لها سيوف مبشر
 ملك أزره برده ضمت علي
 هذا ما اخترت له منها ومن نسيه
 المليلح الخفيف الروح قوله يتنزل
 ويمدح مبشراً هذا

هلاً شاك علي قلب مشفق
 قد صرت كالرمق الذي لا يرتجي
 وغرقت في دمي عليك وغمي
 هل خدعة بحية مخفية
 أنت المنية والمني فيك استوي

لك قد ذابلة الوشيح ولونها
ويقال لك ايكة حتي اذا
يامن رشقت الى السلو فردني
لو في يدي سحر وعندي اخذة
للتذوق ما قد ذقت من ألم الجوي
جسدي من الاعداء فيك لانه
لم بدرطيفك موضعي من مضجعي
جفت عليك مناتي ومنابي
وكان أعلام الأمير مبشر
وفيها يقول يصف لعب الاسطول في يوم المهرجان

بشرى بيوم المهرجان فانه
طارت بنات الماء فيه وريشها
وعلى الخليج كتية جرارة
وبنو الحروب على الجواري التي
ملا الكما ظهورها وبطوها
خاضت غدير الماء ساجحة به
عجبا لها ما خلت قبل عيناها
هزت مجاديفا اليك كانها
وكانها أقلام كاتب دولة

وله فيها احسان كثير وله من قصيدة يتغزل

فؤادي معنى بالחסان معنت
ولي نفس يخفي ويخفت رقة
وكل موتي في التصابي موقت
ولكن جسمي منه أخفي وأخفت

جوبى ميت الاعضاء حي دلالة
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه
أذل له في حجره وهو ينسجى
وما أنبت جبل منه اذ كان في يدى

ومن جيد ماله من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أوطا

راق الربيع ورق طبع هوائه
فانظر نضارة أرضه وسماه

واجعل قرين الورد فيه سلافة
يحكي مشعشعها مصعد مائه

لولا ذبول الورد قلت بانه
خد الجيب عليه صبغ حياته

هيهات أين الورد من خد الذى
لا يستحيل عليك عهد وفائه

الورد ليس صفاته كصفاته
والطير ليس غناؤها كغناها

يتنفس الاصباح والريحان من
حركات معطفه وحسن رواحه

ويجول في الارواح روح ماسر
رياه من تافئه بلفائه

صرف الهوى جسمي شبيه خياله
من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بها خلاوها

بدا على خده خال يزينه
فزادني شغفاً فيه الي شغف

كان حبة قاي عند رؤيته
طارت فقال لها في الخدمه قف

ولابن اللبانة هذا احسان كثير من استقصائه خوف الاطالة

وأيضاً فلان هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب ؛ وإنما يأتي منه

فيه ما تدعوا اليه ضرورة سياق الحديث ثم رجع بنا القول الى أخبار

المعتمد على الله وبلغنى أن رجلاً رأى في منامه قبل الكئنة العظمى !

على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة كان رجلاً أتى حتى صعد

المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعاً صوته

رب ركب قد أناخوا عيسهم في ذرى مجدهم حين يسوق
 سكت الدهر زمانا عنهم ثم أبكاهم دما حين تطوق
 فما كان الا أشهراً يسيرة حتى وقع بهم ماوقع وأبكاهم الدهر كما قال وبلغ
 من حال المعتمد على الله بأعمت ان آثار حظياته وأكرم بناته ألجئت الي
 ان تستدعي غزلا من الناس تسد باجرته بعض حالها • وتضاح به
 ماظهر من/اختلالها • فادخل عاها فيما أدخل غزل لبنت عريف
 شرطة أبيها كان بين يديه يزع الناس يوم بروزه لم يكن يراه الا ذلك
 اليوم واتفق ان السيدة الكبرى أم بنيه اعتلت وكان الوزير أبو العلاء
 زهر بن عبد الملك ابن زهر بمرأ كش قد استدعاه أمير المسلمين لملاجه
 فكتب اليه المعتمد راجعاً في علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه
 فكتب اليه الوزير مؤدياً حقه ومحياً له عن رسالته ومسعفاً له في
 طلبته واتفق ان دعا له في اثناء الرسالة بطول البقاء فقال المعتمد في ذلك
 دعا لي بالبقاء وكيف يهوي أسير ان يطول به البقاء
 أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقى بها الشقاء
 فمن يك من هواه لقاء حب فان هواي من حنفي اللقاء
 أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضربها الحفاء
 خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه اذا أبدوا النداء
 وطرده الناس بين يدي ممري وكفهم اذا غص الفناء
 وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش ان رفع اللواء
 يعنيه امام أو وراء اذا اخنل الامام أو الورا
 ولكن الدعاء اذا دعاه ضمير خالص نفع الدعاء
 جزيت أبا العلاء جزاء بر نوي برأ وصاحبك العلاء

سيسلى النفس عن مافات علمي بان الكل يدركه الفناء
 وورد عليه اغمات أبو بكر بن البانة المتقدم الذكر ملتزماً عهد الوفاء
 قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمي فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن
 اللبنة على السفر استنفذ المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالاً
 وثوبين وكتب اليه معها

اليك النذر من كف الاثير
 تقبل ما يذوب له حياء
 ولا تعجب لخطب غض منه
 ورج لجبره عقبي نداء
 وكم أعلت علاه من حضيض
 وكم من منبر حنت اليه
 زمان تراحت عن جانيه
 فقد نظرت اليه عيون محس
 نحووس كن في عقبي سعود
 وكم أخطي رضاه من حظي
 زمان تنافست في الحظ منه
 بحيث يطير بالابطال ذعر
 فامتنع ابن البانة من قبول ذلك عليه • وصرفه بجماته اليه • وكتب
 جيباً له عن شعره

سقطت من الوفاء على خير
 تركت هواك وهو شقيق ديني
 ولا كنت الطليق من الرزايا
 فذرني والذي لك في ضميري
 لئن شقت برودي عن غدور
 لئن أصبحت أجحف بالاسير

معاذ الله من سوء المصير
على نعمي فما فضل الشكور
وما أنا من يقصر عن قصير
لبست الظل منه في الحرور
على كيفك حالات الفقير
فتسمح من قليل بالكثير
تفتح عن جنى زهر نضير
وترفع للعفاة منار نور
إذا عاد ارتقاؤك للسريـر
عداء تحل في تلك القصور
بها وانيف ثم على جرير
فليس الخسف ملتزم باليدور

وجفا فاستحق لو ما وشكراً
فاستحق الجفاء ان حاط نزرأ
عادلومي في البعض سرأ وجهراً
لاعدمنك في المغارب ذخراً
مت ضرأ فكيف أرهب ضرأ

صرفني البر انما كان برأ
يتشكي فقراً وكم سد فقراً
غدر الدهر بي لكن رمت غدرأ

أسير ولا أصير الي اغتنام
إذا ما الشكر كان وان تنامي
جذيمة أنت والايام خانت
انا أدري بفضلك منك أتى
غنى النفس أنت وان ألحت
تصرف في التدي حيل المعالي
أحدث منك عن نهم غريب
وأعجب منك انك في ظلام
رويدك سوف توسعني سروراً
وسوف تحلني رتب المعالي
تزيد على ابن مروان عطاء
تأهب أن تعود الى طلوع
فراجعه للمعتمد بهذه الايات
رد بري بغيا على وبرأ
حاط نزري اذخاف تأ كيدضري
فاذا ما طويت في البعض حمداً
ياأبا بكر الغريب وفاء
أى نفع يجدي احتياط شفيق
فاجابه ابن اللبابة رحمه الله

أيها الماجد السميع عدراً
حاش لله ان أجيج كريماً
لاأزيد الجفاء فيه شقوقاً

فتري للسوفاء منى سرّاً
ناهضت همى الكواكب قدراً
عن أدبي بها واللبس غفراً
كيف ألقي درأً واطلب تبرا
لاسي الله بعدك الارض قطراً

ليت لي قوة أو آوي لركن
أنت غلغلتى السيادة حتى
ريحت صفقة أزيل بروداً
وكفاني كلامك الرطب نيلاً
لم تمت أنما المكارم ماتت

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره

حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالخصب أن أجذبوا بالرى للصادى
بالموت احمر بالضرغامه العادى
بالدبر فى ظلم بالصدر فى النادى
من السماء فوافانى الميعاد
ان الجبال تهادي فوق أعواد
رواك كل قطوب البرق رعاد
تحت الصفيح بدمع رائح غادي
من أعين الزهر لم تجل باسعاد
على دفينك لا تحصى بتعداد

قبر الغريب سقاك الراح الغادي
بالحلم بالعلم بالتعجبى اذا اتصلت
بالطاعن الضارب الرامى اذا اقتتلوا
بالدمر فى تقم بالبحر فى نعم
نعم هو الحق حابانى به قدر
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه
كفالك فارفق بما استودعت من كرم
يبكى أخاه الذي غيبت وابله
حتى يجودك دمع الطل منهمر
ولا تزل صلوات الله دائمة

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة رشحته للملك من بعده • وجعله ولى عهده • ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن مراده • وحالت الاقدار بينه وبين اصداره وايراده • فلما برح بفخر الدولة هذا تغير الايام بعد الفتنة الى ان أسلم نفسه في السوق وتعلم من الصنائع صنعة الصواغ فمر به محمد بن اللبانة المتقدم المذكور شاعر أبيه فقال في ذلك

اذكي القلوب أسي أبكى العيون دما
أفراد عقد المني منا قد انتثرت
شكائنا فيك يا نحر الهدي عظمت
طوقت من نائبات الدهر مخنقة
وعاد كونك في دكان قارعة
صرفت في آلة الصواع أئمة
يد عهدتك للتقبيل تبسطها
يا صائغاً كانت العاليا تصاغ له
للتفخ في الصور هول ما حكامه سوي
وددت اذ نظرت عيني اليك به
ما حطك الدهر لما حط من شرف
ح في العلي كوكباً ان لم تلخ قرا
واصبر فربما أحمدت عاقبة
والله لو أنصفتك الشهب لا نكسفت
بكي حديثك حتى الدر حين غدا
وروضة الحسن من أزهارها عبرت
بعد النعيم ذوي الرياح حين رأي
لم يرحم الدهر فضلا انت حامله
شقيقك الصبح ان اضحي بشارقه

خطب وجدناك فيه يشبه العدماء
وعقد عروتنا الوثقى قد انفصا
والرزء يعظم فيمن قدره عظما
ضائق عليك وكم طوقتنا نعما
من بعد ما كان في قصر حكي إرما
لم تدرالا الندي والسيف والقلماء
فتستقل الثريا ان تبكون فما
حلياً وكان عليه الحلى منتظماً
هول رأيناك فيه تنفخ الفحما
لو ان عيني تشكو قبل ذاك عما
ولا تحيف من اخلاقك الكرما
وقم بها ربوة ان لم تقم علما
من يلزم الصبر يحمد غب ما لزما
ولو وفي لك دمع المزن لا نسجما
يحكيك رهطاً والفاظاً ومبتما
حزنا عليك لان أشبهتها شيا
ريحانك الغض يزوي بعد ما نعما
من ليس يرحم ذاك الفضل لارحما
وأنت في ظلمة فالصبح قد ظلما

فصل

وانا اوردنا هذه النبذة اليسيرة من اخبار المعتمد على الله معها تعلق بها

وان كانت مخرجة عن الغرض لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله
وغزارة أدبه وإثاره لذلك وأيضاً فليصل نسق الأخبار عن المملكة
أعني مملكة الأندلس الى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ولوجه
ثالث وهو ان ما آلت اليه حال المعتمد هذا من الجمول بهم النباهة
والضعة بعد الرفعة والقبض بعد البسط من جملة العبر التي أرسانها
الأيام والمواظ التي تصغر الدنيا في عيون أولي الأفهام ثم ان يوسف
ابن تاشفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد اذ كان
هو كبش كتيبتها وعين أعيانها وواسطة نظمها فلم يزل أصحاب يوسف
ابن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة الى ان دانت لهم الجزيرة
بأجمعها فأظهروا في أول أمرهم من النكاية في العدو والدفاع عن
المسلمين وحماية الثغور ماصدق بهم الظنون وأنتاج الصدور وأقر العيون
فزاد حب أهل الأندلس لهم واشتد خوف ملوك الروم منهم ويوسف
ابن تاشفين في ذلك كله بمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش
والخيل أثر الخيل ويقول في كل مجلس من مجالسه انما كان غرضنا في
ملك هذه الجزيرة أن يستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم
على أكثرها وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتحاذلهم وإيثارهم
الراحة وانما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه وهو يقطع به أيامه
ولئن عشت لأعبدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة
الى المسلمين ولأملأنها عليهم يعني الروم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة
ولا علم عندهم برحاء العيش انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه
أو سلاح يستجيده أو صرخ يباي دعوته في أمثال لهذا القول فبلغ ذلك
ملوك الهناري فيزداد فرقه ويقتوى مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم

بأسهم وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته
 بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها عد من يومئذ في جملة الملوك واستحق
 اسم السلطنة وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين وصار هو وابنه معدودين
 في أكابر الملوك لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى وأم
 قراء ومعدن الفضائل منه فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون
 إليها ومعدودين منها فهي مطلع شمس العلوم وأقارها ومركز الفضائل
 وقطب مدارها أعدل الأقاليم هواء وأصفاها جواً وأعذبها ماء وأعطرها
 نباتاً وأنداءها طلالاً وأطيبها بكرة مستعذبة وأصلاً

أرض يطير فوادى من قرارته شوقاً لها ولان فيها من الناس
 قوم جنيت جنى ورد بذكرهم فهل بليقياهم أجنى جنى آس
 فانقطع الى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم خوله حتى
 أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه
 من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من
 الا عصار فمن كتب لأمر المسلمين يوسف كاتب المعتمد على الله أبو بكر
 المعروف بابن القصيرة أحد رجال الفصاحة والحوار قصب السبق في
 البلاغة كان على طريقة قدماء الكتاب من إثبات جزل الألفاظ وضح
 المعاني من غير التفات الى الأسجاع التي أخذتها متأخرو الكتاب اللهم
 الا ما جاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء رأيت له عن المعتمد
 رسائل تدل على ما وصفته به ليس على خاطري منها شيء ثم كتب له
 أو لابنه بعد أبي بكر هذا الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون
 قد تقدم من نعمته ما أغنانا عن تكراره وهنا وكان يكتب قبل من كتب
 له منهما للأمر سير بن أبي بكر بن تاشفين وهو الذي دخل على المعتمد

على الله اشيبية فلم يزل يكتب له الى ان اتصل بأمر المسلمين باستدعاء
 منه له فن رسله عنه الى أمير المسلمين رسالة يخبر فيها بفتح مدينة
 شترين أعادها الله وكان سير هذا هو الذي تولى فتحها فكتب عنه
 أبو محمد كتاباً أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي
 ابن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين أعلامه نافذة في السبعة
 الاقاليم أعلامه من داخل مدينة شترين وقد فتحها الله تعالى بحسن
 سيرتك وبمن تقيتك على المسلمين والحمد لله رب العالمين حمداً يستغرق
 الالفاظ الشارحة معناه ويسبق الاحاظ الطامحة أدناه لا يرد وجهه
 نكوص له ولا يحذ كنهه تخصيص • ولا يحزره قبض ولا بسيط مثال
 ولا تخمين • ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين • ولا يسعه
 أمد يحويه • ولا يقطعه أمد يستوفيه • ولا يحجمه عدد يحصيه • اذا
 سبقت هواه • لحقت تواليه • وعلى محمد عبده وأمين وحيه •
 مصادع بأمره ونهيه • نظام الامه • وامام الأئمة • سر ادم من بنيه •
 ونخر العالم ومن فيه • صلاة تامة نقضها • ونحية عامة تؤديها • ترفض
 ارفضاض الزهر من كمامه • وتنفض انفضاض المسك من ختامه • فلقد
 صدع بتوحيده • وجمع على وعده ووعيده • وأوضح الحق وجلاه •
 ونصح الخلق وهده • الامن حقت عليه كلمة العذاب • وسبقت له الشقوة
 في أم الكتاب • وأظهر العزيز عزت أسماؤه • وجلت كبرياؤه • دينه
 على جميع الاديان • على رغم من الصليان • ووقم من الاوثان • وانجز
 لنا تعالى وعده • ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده • وجمع في هذه
 الجزيرة شمل الاسلام بعد انصرامه وانباته • وقطع ميل الاشرار
 بعد انتصابه وثباته • وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بآبائنا من

صياصيم • نأخذ باقدامهم ونواصيم • وكانت قلعة شتيرين • أدام الله أمر
 أمير المسلمين • من أحصن المعادل للمشركين • وأثبت المعادل على المسلمين
 فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه • وهديك الذي اكتفيناه • نخمد شوكتها
 ونحت أثلتها • ونتناولها عللاً بعد نهل • ونطاولها عجلاً في مهل • ونحرف
 الحين بعد الحين سراة رجالها • ونطرف المرة بعد المرة حماة أبطالها •
 ونخوض غمار كفاحهم • وبجار صفاحهم • إلى بسط أشباحهم • وقبض
 أرواحهم • ونهدى للقنا وصدورها رؤسهم • وإلى لظى وسعيرها
 نفوسهم • ونسقلهم من الشفار اليمانية • إلى النار الحامية • ونرفع بالجد
 والتشمير حجاب كيدهم الغامض • ونصمضع باستخارة القديم القدير
 هضاب أيلهم الهائض • ولما رأينا هذه القاعة الشريفة المناسب في القلاع
 المنيفة المناصب على البقاع • قد استشرى داؤها • وأعيا دواؤها • استخرنا
 الله تعالى على صمدها • وضرعنا إليه في تسهيل قصدها • وسألناه أن
 لا يكلنا إلى نفوسنا • وإن كانت في صيانة ديانتنا • بمذوله • وعلى المكروه
 والمحبوب في ذاته محموله • فقصدنا إليها • وهجمنا هجوم الردى عليها • في
 وقت انسدت فيه أبواب السبل • وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل •
 والدمر قد كثر عن أنيابه العصل • وقام من الوحول والسيول على
 أثبت رجل • فزلبنا بساحة القوم • فساء صباحهم ذلك اليوم • فلم نزل
 نصاولها مصاولة المحتسب المؤخر • ونطاولها مطاولة المرتقب لأمر الله
 المنتظر • ونشن الغارات • على جميع الجهات • فترد جيوشنا عليهم خفافا
 وتصدر الينا ثقلاً • فتملاً صدور الأعداء أوجالاً • وأيدى الأولياء
 أموالاً • وأمرنا بإقامة سوق سبيهم وأموالهم • على مرأى ومسمع من
 نسائهم ورجالهم • فازدادت ريجهم بذلك ركوداً • ونارهم خوداً • ولما

ضمهم لضيق ولاجه الحصار • وغشيم بتفريق أمواجه البوار • وأحاط
 بهم البلاء • واستشاط عليهم بغضب الجبار القضا • ولم يكن الليل بأسأثم
 سحر يتأمل • ولا لوزد ضرائهم صدر يؤمل • اختاروا الدنية على المنية •
 ورضوا بالاستسلام للعبودية • واسلام الاهل والذرية • والسلامة من
 مدارج الكفن • وموالج الجن • ولو بجرعة الذقن • وكان القتل كما
 قدمنا قد أتى على صيد أعيانهم • وصناديد فرسانهم • فلم تبق الا شرزمة
 قليلة • وعصبة ذليلة • لاتضر حياتهم موحداً • ولا تسر نجاتهم ملحداً •
 نقلناهم من يمين النون الى شمال الهون • ومن أليم الحصار الى لئيم
 الاسار • وكانوا سألونا الابقاء عليهم فأجبناهم • بعد ان قدموا من
 الخضوع صدقة بين يدي نجواهم • ووهبنا أولاهم لآخراهم • وجعلنا
 العفو عنهم طريقاً لسواهم • بمن يتقبل صنيعهم اذا نحن غداً بأذن الله
 حاصرناهم • وهذه القلعة التي انتهينا الى قرارها • واستولينا على أقطارها
 أرحب المدن أمدا للعيون • وأخصبها بلدا في السنين • لا يريها الخصب
 ولا يخطاها • ولا يرومها الجذب ولا يتعاطاها • فروعها فوق الزيا
 شامخه • وعروقه تحت التري راسخه • تباهي بازهارها نجوم السماء •
 وتناجي بأسرارها أذن الجوزا • مواقع القطار في سواها مغبرة مبردة
 وهي زاهرة ترف انداؤها • ومطالع الانوار في حشاها مقشعة مسودة
 وهي ناضرة • تشف أضواؤها • وكانت في الزمن الغابر • أعيت على
 عظيم القياصر • فنازلها بأكثر من القطر عدداً • وحاولها بأوفر من
 البحر مدداً • فأبّت على طاعته كل الابا • واستعصت على استطاعته أشد
 استعصا • ومردت مرود مارد على الزبا • فامكننا الله تعالى من ذروتها
 وأنزل ركبها لنا عن صهوتها

ومن رسائله الاخوانيات رسالة كتب بها الى أبي عبد الله محمد بن
أبي الخصال يخطب مودته • ويستدعي من اخائه جدته • أنا مع عمادي
الاعظم أدام الله علوه • كعزيب طواه الجهد • واواه من تهامة وهـد
وماله بريحها العقم ولا بجرها المعقد المقم عهد • فرفضت به من سراها
المغرق وشراها المحرق في حمام • فاشرف من ذلك الجحيم وضرمه لولا
تنفيس الرحيم محمه بكرمه على الحمام • فوال الى ربوة من رباها • وسأل
جبال فاران عن مهب صباها • ليلتقط من أنفاسها بوشاطة نجد • بزدا
يهديه الى حر الوجد • فحيت به ببايل • من نسيمها العليل • فاحيته بعد
التعليل • وأنا ما قصدت فيما خطبت به اليك لا آخذ عليك بفضل الابتدا
وانما سلكت سبيل الاقتدا • واتبع دليل الاهتدا • وأردت ان أستدير
باضوائك • واستتير من سوائك • نجوما تهديني في غسق الظلام • أو
رجوما تعديني على مسترق سمع الكلام • فان سمع عمادي بالجواب
ورجعه • غالطت بما حصل منه لدي • ووصل الى الحمام في سجمه •
والانصار في حسانها • والاعصار في نيسانها • وطيتاً في وليدها وجيدها •
وسعداً في خالدها وشيبيها • وخرقت بما أعار من مراح وأثار من ارتياح
جيب مخارق طربا • ولم أدع لابي العتاهية في ثقبه المغرب وخفيفه
المطرب اربا • وطويت كشحا عن اغاريد عبيد • واضربت صفحا عن
انا شيد ليد • وطالبت بلغاء العصر • بالمثل المضروب في حمل مصر •
وقات هذه القارة فراموها وانصفوا • وهذه الغاية فروموها وانصفوا
وان كانت تؤمه البواهر ما انحلت في درجي • ونجومه الزواهر ما حلت في
برجي • وأن كفى من جنا نماره لصفرو • وان طرفي من سنا اقماره القفر
والنهي بضنه على بدرة من بجره • او نفثة من سحره • لبين طنين • لم

أحصل من تحقيقهما على أثر ولا عين • أحدها قلت أنه أجرى اسمي
على خلد • فلم يجدني في إنداده ولا بلده • فقال وما أنظر وفلان وهل
هو الا من الغرب • وان كان بزعمه في الصميم من العرب • وهل الغرب
في الاقطار • الا كاللحق بين الأسطار • والاخر ربما يقول • ما لا تقبله
العقول • أتى لا نظر من فلان باحد من نظر الزرقا • الى أجل من خطر
العنقا • وينشد قول أبي العلاء بن سليمان • شاعر معرة النعمان
* أرى العنقاء تكبران تصادا *

وأنا أقسم بالربيع الممطر واثنلاف أوانه • والبقيع المزهر واختلاف
ألوانه • والشباب ودولته • والمضرب وصولته • والمثاني اذا نسقت •
والقناني • وما وسقت • وان أقسمت من بعضها بيمين • لأنلقى رايتها بشمال
ولا يمين • ان اسمي في البلغة والفهما • كاسم العنقاء في الاسماء • اسم
ما وقع على مسمي • ولفظ مادل على معنى • فاين أقع مما تريد • وكتابي
بين يدي حمدي أو عتابي يريد ينفض تهائم ظنوني • أو ينقض تمام
جنوني • وله الرأي العالي في الجواب • على خطأ كنت من ظني أو
صواب • ان شاء الله عز وجل ومن سلامي • على عمادي الاعظم
وامامي • احفله واحفده • واجزله واوفده • والسلام الاتم الاعم عليه
ورحمة الله وبركاته فراجعه الوزير أبو عبد الله برسالة لم يكتب مثلها في
بابها أبدع فيها غاية الابداع وان كان فيها بعض تكلف تسمي هذه
الرسالة الحولية منعني من ايرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول
ولابي محمد عبد الحميد المذكور احسان قد اشهر عندنا بتلك الاقطار
شهرة الامثال • وصار ذكره فيها سير الجنوب والشمال
واتصلت حال أمير المسلمين يوسف كما ذكرنا في ايثار الغزو وقمع ملوك

الروم والحرس على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الاندلس الى ان
توفي في شهر سنة ٤٩٣ وقام بأمره من بعده ابنه علي بن يوسف
ابن تاشفين . وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين . وسمي أصحابه المرابطين
فجرى على سنن أبيه في اثار الجهاد . واخافة العدو وحماية البلاد .
وكان حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيداً عن الظلم كان الى ان
يعد في الزهاد والمتبتلين . أقرب منه الى ان يعد في الملوك والمتغلبين .
واشد اثاره لاهل الفقه والدين . وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته
دون مشاورة الفقهاء فكان اذا ولى أحداً من قضائه كان فيما يعهد اليه
ألا يقطع أمراً ولا يبت حكمه في صغير من الامور ولا كبير الا بمحض
أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في
الصدر الاول من فتح الاندلس ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمر
المسلمين راجعة اليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم .
طول مدته فمظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس اليهم
فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وفي ذلك يقول أبو
جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني من أهل مدينة جيان من
جزيرة الأندلس .

أهل الرياء ابستموا انا موسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فلكنتموا الدنيا بذهب مالاك وقستموا الاموال بين القاسم
وركنتموا شهب الدواب بشهب وباصبح صبغت لكم في العالم
واتما عرض أبو جعفر هذا في هذه الابيات بالقاضى أبى عبد الله محمد
ابن حمد بن قاضى قرطبة وهو كان المقصود بهذه الابيات ثم هجاه بعد
هذا صريحاً بأبيات أولها

أدجال هذا أوان الخروج ويأشمنس لوجي من المغرب
يريد ابن حديد أن يعتق وجدوا أناي من الكوكب
إذا سئل العرف حكاسته ليثبت دعواه في تغلب

في أمثال لهذه الإبيات وكان القاضي أبو عبد الله بن حديد ينسب إلى تغلب ابنة وائل ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظي عنده إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبت ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقييح علم الكلام وكراهة السلف له ومجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين وربما أدى أكثرهم إلى اختلال في العقائد في أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبت الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقديم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك كافي القاسم ابن الجعد المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه

ابن مروان وابي محمد عبد المجيد بن عبدون المذكور آنفاً في جماعة
يكثر ذكرهم وكان من انهم عنده واكبرهم مكانة لديه ابو عبد الله
محمد بن ابي الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب واحد من
انتهي اليه علم الآداب وله مع ذلك كفي علم القرآن والحديث والآثروما
يتعلق بهذه العلوم الباع الارحب واليد الطولى فما اختار له رحمه الله
فصول من رسالة كتب بها مراجعاً لبعض اخوانه عن رسالة وردت
عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه وهذا الرجل صاحب الرسالة
هو أبو الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة وصل من السيد
المسترق والمالك المستحق. وصل الله انعامه لديه. كما قصر الفضل عليه
كتابه البليغ. واستدراجه المريح. فلولاً ان يصلد زبد اقتداحه.
ويرقد طرف افتتاحه. وتنقبض يد انبساطه. وتغبن صفقة اغطياطه،
للزمت معه مركز قدرى. وصلت سريرة صدرى. لكنه بنفثات
سحره. يسمع الصم. ويستنزل العصم. ويقناد الصعب فيصحب. ويستدر
الصخور فتجلب، ولما فجأتى ابتداءه. وقرع سمعي نداؤه فرغت الى
الفكر، وخفق القلب بين الامن والحذر، فطاردت من الفقر أوابد
قفر. وشوارد هفر، تغبر في وجه سائقها. ولا يتوجه للحاق لوجيها
ولاحقها، فعلمت انها الاهابة والمهابة. والاصابة والاستراة. حتى
اياستنى الخواطر. وأخلفتنى المواطر. الأزر جايقيب جوادا. وبهرجا
لايحتمل انتقادا. وأنى لمثلى والقريحة مرعاة. والبضاعة مرعاة. ببراعة
الخطاب. وبزاعة الكتاب. ولولا دروس معالم البيان. واستيلاء العفاء
على هذا الشأن. لما فاز لمثلى فيه قدح. ولا تحصل لى في سوقه ربح.

لكنه جوخال ومضمار جهال وهي حكمة الله في الخلق وقسمته لارزق
 وأنا أعزك الله أرباً بقدر الذخيرة عن هذه التنف الاخيرة وأرى انها
 قد بلغت مداها واستوفت جلالها وأنا أخشى القدح في اختيارك والاخلاق
 بمخشارك وعلى ذلك فوالله مامن عادني ان أنبت ما أكتب في رسم ينقل
 ولا في وضع المراتب عندما مخاطب بمحتفله ويحتفل وانما هو عفو ففكر
 ويسير ذكر وعذراً أعزك الله فاني خططت ماخططته والنوم مغازل
 والقرّ منازل والريح تلعب بالسراج وتصول عليه صولة الحجاج فطوراً
 تسدده سناناً وتارة تحرّكه لساناً وآونة تطويه حبابة وأخرى تنشره
 ذؤابه وتقيمه أبرة لهب وتعطفه برة ذهب أوحة عقرب وتقويه حاجب
 فتاة ذات غمزات وتسلمه على سايطة وتزيله عن خايطة وتخلعه نجماً
 وتمده رجماً وتسل روحه من ذباله وتعيده الى حاله وربما نصبت أذن
 جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروف برق بكف ودق ولثمت
 بسناه قنديه وألقت على أعطافه منديله فلا حظ منه للعين ولا هداية في
 الطرس لليدين والليل زنجي الأديم تبرى النجوم قد جللنا ساجه وأغرقتنا
 أمواجه فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء
 لا كنتحلت أو خضبت به الشيبة لما انفصلت والكلب قد صافح خيشومه
 ذنبه وأنكر البيت وطنبه والتوى التواء الحجاب واستمدار استدارة
 الحباب وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد غملاه مباح ولا مهرب ولا
 نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عنقاء مغرب أو نجم مغرب
 استوي الفصل ولك في الأغضاء الفضل والسلم ولابي عبد الله هذا
 ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهلا الاندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه
 ونصبوه اماماً يقتفونه من معنى من اراد ما اختارله من ذلك خوف الخروج

الى التطويل الممل والاكثر الخلل فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخوه
 كاتبين لامير المسلمين الى ان أخر أمير المسلمين أبو مروان عن الكتابة
 لموجدة كانت منه عليه سبها انه أمره وأجاء أبو عبد الله أن يكتب عنه
 الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذير لعنه
 الله هزيمة قبيحة وقتل منهم مقتلة عظيمة فكتب أبو عبد الله رسالته
 المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الاندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن
 فيها ما شاء منعى من ايرادها ما فيها من الطول وكتب أبو مروان رسالة
 في ذلك الغرض أخش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر
 من الحاجة فمن فصولها قوله أي بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة الام يزيهكم
 الناقد ويردكم الفارس الواحد قامت لكم بارتباط الخيول ضائلا حالبا
 قاعد لقد أن أن نوسعكم عقابوا وأتلونوا على وجه نقابا وان نعيدكم الى
 صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم في أمثال لهذا القول فاحق
 ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لابي عبد الله أخيه كنفاني
 شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى
 ذلك أبو عبد الله استعفاء فأعفاء ورجع الى قرطبة بعد مامات أخوه
 أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره رحمه
 الله أول الفتنة الكائنة على المرابطين

واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الحسمائة اختلالا شديدا
 فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لاستيلاء أكبر المرابطين على
 البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك الى التصريح بفصل كل منهم
 يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالامر منه واستولى النساء
 على الاحوال وأسندت اليهن الامور وصارت كل امرأة من أكبر

لمثونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشريد وقاطع سبيل وصاحب
خمر وماخور وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه وقمع
باسم امرأة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبذل
فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأعمل أمور الرعية
غاية الاهمال فاختلف لذلك عليه كثير من بلاد الاندلس وكادت تعود
الى حالها الاول لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس

﴿ ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمى بالمهدي ﴾

ولما كانت سنة ٥١٥ هـ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في
صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر ومحمد هذا رجل من أهل سوس
مولدها بضبعة منها تعرف بالجلجلى أن وارغن وهو من قبيلة تسمى هرغة من
قوم يعرفون أيسر غينن وهم الشرفاء بلسان المصامدة ولمحمد بن تومرت
نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجئدت بخطه
وكان قد رحل الى المشرق في شهور سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم وانتهى
الى بغداد ولقى أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول
الدين وسمع الحديث علي المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من الحديثين
وقيل انه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده فآله أعلم وحكى انه ذكر
للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت الى المغرب من احراقها
وافسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي حين بلغه ذلك
ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده وما أحسب المتولي لذلك الا حاضراً
مجلسنا وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم فقوى طمعه وكرّ
راجعاً الى الاسكندرية فأقام بها يختلف الى مجلس أبي بكر الطرطوشي

الفقيه وجرت له بها وقائع في معنى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
أفضت الى أن نفاه متولى الاسكندرية عن البلاد فركب البحر فبلغني
انه استمر على عادته في السفينة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر
الى أن ألقاه أهل السفينة في البحر فأقام أكثر من نصف يوم يجرى
في ماء السفينة لم يصبه شيء فلما رأوا ذلك من أمره انزلوا اليه من
أخذه من البحر وعظم في صدورهم ولم يزلوا مكرمين له الى أن
نزل من بلاد المغرب بجاية فآظمر بها تدريس العلم والوعظ واجتمع
عليه الناس ومالت اليه القلوب فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها
حين خاف عاديته فخرج منها متوجها الى المغرب فنزل بضیعة يقال
لها ملالة على فرسخ من بجاية وبها لقيه عبد المؤمن بن علي وهو إذ ذاك
متوجه الى المشرق في طلب العلم فلما رآه محمد بن تومرت عرفه بالعلامات
التي كانت عنده وكان ابن تومرت هذا أوحده عصره في علم خط الرمل
مع انه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور من بعض
خزائن خلفاء بني العباس أوصله الى ذلك كله فرط اعتناؤه بهذا الشأن
وما كان يحدث به نفسه وبلغني من طنق صحاح انه لما نزل ملالة الضیعة
التي تقدم ذكرها سمع وهو يقول ملالة ملالة يكررها على لسانه يتأمل
أحرفها وذلك لما كان يراه ان أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولا مان
فكان كما ذكرنا اذا كررها يقول ليست هي وأقام بهذه الضیعة أشهراً
وبها مسجد يعرف به وهو باق الى اليوم لا أدري أبني على عهده أو
بعده فاستدعى عبد المؤمن وخلا به وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه
فتسمى له وانتسب وسأله عن مقصده فاخبره انه راحل في طلب العلم
الى المشرق فقال له ابن تومرت أو خير من ذلك قال وما هو قال شرف

الدينا والآخر تصحيفي وتعيني على ما أنا به دده من امانة المنكر واحياه
 العلم واتخاذ البدع فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده وأقام ابن تومرت بملاة
 أشهر ثم رحل عنها وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد يعرفه
 المصامدة بعبد الواحد الشرقي وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن
 وخرج متوجهاً الى المغرب وقيل انه اتما لقي عبد المؤمن بموضع يعرف
 بفزازة من بلاد مديجة وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية انذ كورة فسأله
 ابن تومرت صحبته والقراءة عليه واعانته بعد أن عرفه بالعلامات كما
 قد تقدم وبهذه القرية له حكاية ظريفة وذلك انه رأى وهو بها في المنام
 كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف في صحفة واحدة قال ثم
 زاد أكلني على أكله وأحسست من نفسي شرها الى الطعام ولم يزل
 ذلك بي الى أن اختطفت الصحيفة من بين يديه وانفردت بها فلما اتته قص
 الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشرين يكنى أبا محمد كان
 يقرأ عليه فلما أتني على آخرها قال يابني يا عبد المؤمن هذه الرؤيا لا ينبغي
 أن تكون لك اتما هي لرجل ناثر يشور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض
 بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتهما واتفق له فيها أيضاً
 من العجائب التي ثبتت في باب الكلام الموافقة لا قدر ان رجلاً من
 وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصنهاجي صاحب بجاية والقاعة
 وجد عليه الملك العزيز فاشتد خوفه فهرب منه الى هذه الضيعة التي
 كان فيها عبد المؤمن فكان معه بها يعلم الصبيان وانتهت حال ذلك
 الرجل الى غاية الافلال ثم اتفق أن صاحبه رضي عنه فبلغه ذلك فسار
 الى بجاية فدخل عليه فسأله أين كنت في هذه الايام فأخبره بقصته
 وكيف كان الصبيان يحبونه بالكسر فضحك وقال الضيعة لك وما والاها

وأمر له بمال ومركب وثياب فخرج الرجل الى الضيعة في خيل ورجال معه وخرج اليه أهبا يتلقونه فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قائم بفناء المسجد فقالوا له أتعرف من هذا الذي أهدت له هذه الارض قال لا قالوا هو فلان صاحبك الذي كان يعلمنا معك فقال ان كانت حالة فلان انتهت الى هذا فلا بد أن أكون انا غداً أمير المؤمنين فكان الامر كما قال ووافقت كلمته القدر وخرج ابن تومرت كما ذكرنا متوجهاً الى المغرب حتى أتى مدينة تلمسان فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد جاريا على عادته وكان قد وضع له في النفوس هبة وفي الصدور عظمة فلا يراه أحد الا هابة وعظم أمره وكان شديد الصمت كثير الانقباض اذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة أخبرني بعض أشياخ تلمسان عن رجل من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العباد أنه خرج عليهم ذات ليلة بعد ما صلى العتمة فنظروا اليهم وقال ابن فلان لرجل كان يصحبهم فأخبروه انه مسجون فقام من وقته ودعا رجل منهم يمشي بين يديه حتى أتى باب المدينة فدق على البواب دقاً عفيفاً واستفتح فأجابه البواب الى الفتح بسرعة من غير تلكي ولا ابطاء ولو استفتح أمير المؤمنين لتعذر ذلك عليه ودخل حتى أتى السجن فاستدرك اليه السجانون والحرس يتمسحون به ونادي يا فلان باسم صاحبهم فأجابه فتال اخرج فخرج والسجانون ينظرون اليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد وكانت هذه عادته في كل ما يريد لا يتعذر عليه مراد ولا يمتنع عليه مطلوب قد سخرت له الرعية وذلت له الجبابة ولم يزل مقبياً بتلمسان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور الي ان فصل عنها بعد ان استمال وجوه أهلها وملاك قلوبها فخرج قاصداً

مدينة فاس فلما وصل إليها اظهر ما كان يظهره وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم وكان جل ما يدعوا اليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية وكان أهل المغرب على ما ذكرنا يتنافرون هذه العلوم ويعادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك فجمع وإلى المدينة الفقهاء وأحضره معهم فحرت له مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور لانه وجد جواً خالياً وألقى قوماً صيماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على وإلى البلد باخراجه لئلا يفسد عقول العوام فأمره وإلى البلد بالخروج فخرج متوجهاً إلى مراکش وكتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف فلما دخلها أحضر بين يديه وجمع له الفقهاء للمناظرة فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا رجل من أهل الاندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك في جميع العلوم الا انه كان لا يظهر الا ما يفتق في ذلك الزمان وكانت لديه فنون من العلم رأيت له كتاباً سماه قراضة الذهب في ذكر لثام العرب ضمنه لثام العرب في الجاهلية والاسلام وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب لا نظير له في فنه رأيت في خزانه نبي عبد المؤمن ومالك بن وهيب هذا تحقيق بكثير من أجزاء الفلسفة رأيت بخطه كتاب الثمرة لبطلميوس في الاحكام وكتاب الحسبي في علم الهيئة وعليه حواش بتقييده أيام قراءته اياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبي ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت استشعر حدة نفسه وذكاها خاطره واتسع عبارته فأشار على أمير المسلمين بقتله وقال هذا رجل مفسد لا تؤمن غائته ولا يسمع كلامه أحد الا مال اليه وان وقع هذا في بلاد المصامدة نار علينا منه شر كثير فتوقف أمير المسلمين في قتله وأبى ذلك عليه دينه

وكان رجلاً صالحاً بحاج الدعوة يعد في قوام الليل ووصلهم النهار الا انه كان ضعيفاً مستضعفاً ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شذية من استيلاء النساء على الاحوال واستبدادهن بالامور وكان كل شرير من لص أو قاطع طريق ينتسب الى امرأة قد جعلها ملجأ له وزراً على ما تقدم فلما ينس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت أشار عليه بسجنه حتى يموت فقال أمير المسلمين علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يمتنع لنا عليه حق وهل السجن الا أخو القتل ولكن تأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء فخرج هو وأصحابه متوجهاً الى سوس فنزل بموضع منها يعرف بتينمل من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره ولما نزله اجتمع اليه وجوه المصامدة فشرع في تدريس العلم والدعاء الى الخير من غير أن يظهر أمره ولا طلبه ملك وألف لهم عقيدة بلسانهم وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له وأشرقت قلوبهم بحبته وأجسامهم طاعته فلما استوثق منهم دعاهم الى القيام معه أولاً على صورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها وأقاموا على ذلك مدة وأمر رجلاً منهم بمن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل وجعل يذكر المهدي ويشوق اليه وجمع الاحاديث التي جاءت فيه من المصنفات فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته ادعى ذلك لنفسه وقال أنا محمد بن عبد الله ورفع نسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم وصرح بدعوى العصمة لنفسه وانه المهدي المعصوم وروي في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم انه المهدي وبسط يده فبايعوه على ذلك وقال أبايعكم على

ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله ثم صنف لهم
تصانيف في العلم منها كتاب سماه أعز ما يطلب وعقائد في أصول الدين
وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل الا في إثبات
الصفات فانه وافق المعتزلة في نفيا وفي مسائل قليلة غيرها وكان يبطن شيئا
من التشيع غير انه لم يظهر منه الى العامة شيء وصنف أصحابه طبقات
فجعل منهم العشرة وهم المهاجرون الاولون الذين اسرعوا الى اجابته
وهم المسمون بالجماعة وجعل منهم الحسين وهم الطبقة الثانية وهذه
الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة بل هم من قبائل شتى وكان يسميهم
المؤمنين ويقول لهم ما على وجه الارض من يؤمن بآمانكم وأنتم العصاة
المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام لا يزال طائفة بالمغرب ظاهرين
علي الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وأنتم الذين يفتح الله
بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الامير الذي يصلي بعيسى بن
مريم ولا يزال الامر فيكم الى قيام الساعة هذا مع جزئيات كان يخبرهم
بها وقع أكثرها وكان يقول لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة
فرادت فتنة القوم به وأظهر والله شدة الطاعة وقد نظم هذا الذي وصفناه
من قول ابن تومرت في تخليد هذا الامر رجل من أهل الجزائر مدينة
من أعمال بجاية وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو يتنمل فقام
علي قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأنشد قصيدة أولها

سلام على قبر الامام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحبي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر اسرار الكتاب المسدد
أنتابه البشرى بأن يملأ الدنيا	بقسط وعدل في الانام مغلل

ويفتح الامصار شرقا وغربا
 فمن وصفه أفنى وأجلى إوانه
 زمان واسم والمكان ونسبة
 ويلبث سبعا أو قسعا يعيشها
 فقد عاش تسعا مثل قول نبينا
 وتبعه للنصر طائفة الهدى
 هي الالة المذكور في الذكر أمرها
 ويقدمها المنصور والناصر الذي
 هو المنتقى من قيس عيلان مفخرا
 خليفة مهدي الاله وسيفه
 ٢٢ يجمع الله الجبارة الاولى
 ويقطع أيام الجبارة التي
 فيمزون اعراب الجزيرة عنوة
 ويفتتحون الروم فتح غنية
 ويغدون للدجال يغزونه ضحاً
 ويقتله في باب لد ونجلى
 وينزل عيسى فيهم وأميرهم
 يصلى بهم ذاك الامير صلاتهم
 فيمسح بالكفين منه وجوههم
 وما إن زال الامر فيه وفيهم
 فأبلغ أمير المؤمنين تحية
 عليه سلام الله مادر شارق
 ويملك عربا من مغير ومنجد
 علاماته خمس تبين لمهتدي
 وفعل له في عصمة وتأيد
 كذا جاء في نص من النقل مسند
 فدلكم المهدي بالله يهتدي
 فأكرمهم اخوان ذي الصدق أحمد
 وطائفة المهدي بالحق تهتدي
 له النصر حزب اذ يروح ويفتدي
 ومن مرة أهل الجلال الموطن
 ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
 يصدون عن حكم من الحق مرشد
 أبادت من الاسلام كل مشيد
 ويعرون منها فارساً وكأن قد
 ويقتسمون المال بلترس عن يد
 يذيقونه حدة الحسام المهند
 شكوك أمدت قلب من لم يوحد
 امام فيدعوهم لمحراب مسجد
 بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
 ويخبرهم حقاً بعز مجدد
 الى آخر الدهر الطويل المسرمد
 على النأي في والوداد المأكد
 وما صدر الورد عن ورد مورد

وقد قيل ان منشى هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم يشدها بنفسه منعته عن ذلك الكبرة وبعد الشقة وانما أرسل بها فأنشدت على قبر الامام وكان عمله اياها وعبد المؤمن حي^ي قاله أعلم وهي طويلة هذا ما اخترت له منها ولم أوردتها في هذا الموضع لانها من مختار الشعر ولكن لما وافقنا الفصل الذى قبلها ولم نزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وقتهم به تشتد وتمظيمهم له يتأكد الى أن باغوا في ذلك الى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر الى ذلك من غير ابطاء وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم وهذا أمر جبات عليه فطرحهم واقتضاه ميل اقليمهم حكى أبو عبيد البكرى الاندلسى ثم القرطبي في كتابه المرسوم بالمالك والممالك عن رجال له قال أهديت الى الاسكندر فرس ببعض بلاد الغرب لم تله الخيل أسبق منها لم يكن فيما عيب الا أنها لم يسمع لها صهيل قط فلما حل الاسكندر في أطوافه بجبال درن وهي بلاد المصامدة وشربت تلك الفرس من مياهها صهلت صهلة اصطكت منها الجبال فكتب الاسكندر الى الحكيم يخبره بذلك فكتب اليه أنها بلاد شر وقسوة فمجل الخروج منها فهذه حال بلاد القوم وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شاهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تنممل مع من انضاف اليهم من أهل سوس وقال لهم اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم الى امانة المنكر وأحياء المعروف وازالة البدع والافرار بالامام المهدي المعصوم فان أجابوكم فهم اخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم وأمر على

الجيش عبد المؤمن بن علي وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق
عبد المؤمن من يومئذ اسم امرة المؤمنين وخرجوا قاصدين مدينة
مراكش فلقبهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة بجيش ضخم
من سرقة لمتونة أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين فلما تراهي
الجمعان أرسل اليهم المصامدة يدعونهم الى ما أمرهم به ابن تومرت
فردوا عليهم أسوأ رد وكتب عبد المؤمن الى أمير المسلمين على بن
يوسف بما عهد اليه محمد بن تومرت فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة
مفارقة الجماعة ويدكره الله في سفك الدماء واثارة الفتنة فلم يردع ذلك
عبد المؤمن بل زاده طمعا في المرابطين وحقق عنده ضعفهم فالتقت
الفتنان فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ونجا عبد المؤمن في نفر
من أصحابه فلما جاء الخبر لابن تومرت قال أليس قد نجا عبد المؤمن
قالوا نعم قال لم يفتقد أحد ولما رجع القوم الى ابن تومرت جعل يهون
عليهم أمر الهزيمة وتفرر عندهم ان قتلهم شهداء لانهم ذابون عن دين
الله مظهرون للسنة فزادهم ذلك بصيرة في أمرهم وحرصاً على لقاء
عدوهم ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش
ويقطعون عنها مواء المعاش وموصول المرافق ويقتلون ويسبون ولا
يبقون على أحد ممن قدروا عليه وكثرت الدخول في طاعتهم والمتحاشون
اليهم وابن تومرت في ذلك كله يكثر التزهّد والتقليل ويظهر التشبه
بالصالحين والتشدد في اقامة الحدود جارياً في ذلك على السنة الاولى
أخبرني من رآه ممن أتق اليه يضرب الناس على الخمر بالاكام والنعال
وعسب النخل متشبهاً في ذلك بالصحابه ولقد أخبرني بعض من شهدته وقد
أتني برجل سكران فأمر بحده فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى

يوسف بن سليمان لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها النحس هذه
 العلة من أصلها فاعرض عنه ثم أعاد عليه الحديث فاعرض عنه فلما كان
 في الثالثة قال له أرايت لو قال لنا شربتها في دار يوسف بن سليمان مانحن
 صانعون فاستجيا الرجل وسكت ثم كشف على الامر فإذا عبيد ذلك
 الرجل سقوه فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيماً الى أشياء
 كان يخبر بها فتقع كما يخبر ولم يزل كذلك وأحواله سالحة وأنحسائه
 ظاهرون وأحوال المراءطين المذكورين تختل وانقراض دولهم يتزايد
 الى أن توفي ابن تومرت المذكور في شهر سنة ٥٣٤ بمدا ن أسس الامور
 وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه

﴿ ذكر ولاية عبد المؤمن ﴾

ثم قام بالامر من بعده عبد المؤمن بن علي وبايعه المصامدة واتفقت
 على تقديمه الجماعة وكان الذين سعوا في تقديمه وهيئوا ذلك له ثلاثة وهم
 من أهل الجماعة عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف عندهم بعمر ازناج
 وعمر بن ومزال الذي كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر
 يعرفونه بعمر إبنتي وعبد الله بن سليمان من أهل تينمل من قبيلة يقال
 لها مسكالة ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقي
 الموحدين وذلك ان ابن تومرت قبل موته بأيام سيرة استدعى هؤلاء
 المسلمين بالجماعة وأهل خمسين وهم كما ذكرنا من قبائل مفترقة لا يجمعهم
 الا اسم المصامدة فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله
 وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ويذكر ما كانوا

عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم وان أحدهم كان لا تأخذه
 في الله لومة لائم وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه في الحر وتصميمه
 على الحق في أشباه هذه الفصول ثم قال فانقرضت هذه العصاة نضر
 الله وجوهها وشكرها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيا وخبطت الناس
 فتنة تركت الحليم حيرانا والعالم متجاهل مدهاماً فلم ينتفع العلماء بعلمهم
 بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس اليهم في
 أشباه لهذا القول الى هلم جرا ثم ان الله سبحانه وله الحمد من عليكم
 أيها الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيد
 وقبض لكم من الفاكم ضلالا لا تهتدون وعميا لا تبصرون لا تعرفون
 معروفاً ولا تنكرون منكراً قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الاباطيل
 وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها وأربأ
 بلفظي عن ذكرها فهذاكم الله به بعد الضلالة وبصركم بعد العمى وجمعكم
 بعد الفرقة وأعزكم بعد الذلة ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين
 وسيورثكم أرضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيديهم وأضرته قلوبهم وما
 ربك بظلام للعبيد فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم وأروهم الشكر
 قولاً وفعلًا مايزكى به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم واحذروا
 الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يداً واحدة على عدوكم
 فانكم ان فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا الى طاعتكم وكثر اتباعكم
 وأظهر الله الحق على أيديكم والا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار
 واحتقرتكم العامة فنخطفتكم الخاصة وعليكم في جميع أموركم بمزج
 الرأفة بالغلظة واللين بالعنف واعلموا مع هذا انه لا يصلح أمر آخر
 هذه الامة الاعلى الذى صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلاً

منكم وجعلناه أميراً عليكم هذا بعد ان بلوانه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه واختبرنا سريره وعلايته فرأيناه في ذلك كله نبأ في دينه متبصراً في أمره وانى لارجو أن لا يختلف الظن فيه وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه فان بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والامر أمر الله يقوده من شاء من عباده فبايع القوم عبد المؤمن ودعاهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصودروهم واحداً واحداً فهذا سبب امرة عبد المؤمن رحمه الله ثم توفى ابن تومرت بعد عهده بيسير واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن

(فصل) وعبد المؤمن وهذا هو عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي أمه حرة كومية أيضاً من قوم يقال لهم بنوا مجير موله بضیعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا وقيل انه كان يقول اذا ذكر كريمة است منهم وانما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكمية علينا حق الولادة بينهم والمنشا فيهم وهم الاخوال وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر وبهذا استجار الخطباء أن يقولوا اذا ذكروه بعدا بن تومرت قسيمة رضى الله عنه في النسب الكريم كان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يوسف بن تاشفين وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ومدة ولايته من حين استوثق له الامر بموت علي بن يوسف أمير المسلمين في سنة ٣٧ على التحقيق احدى وعشرين سنة الى أن توفى في التاريخ المذكور وكان أبيض ذا جسم عظم تعلوه حمرة شديدة سواد الشعر معتدل القامة وضى الوجه جهوري الصوت فصيح الالفاظ جزل المنطق وكان محببا

الى النفوس لا يراه أحد الا أحبه بديهة وبانفي أن ابن تومرت كان
ينشد كذا آراء

تكاملت فيك أخلاق خصصتها فكلنا بك مسرور ومغبط
فالسن ضاحكة والكف مانحة والصدر منشرح والوجه منبسط
أولاده كان له من الولد ستة عشر ذكراً وهم محمد وهو أكبر
ولده وولى عهده وهو الذى خلع على وعمر ويوسف وعثمان وسليمان
وبحى واسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن وعيسى
وموسى واراھيم وياقوب ووزراؤه وزر له فى أول الامر أبو حفص
عمر أرنج الى أن استمر الامر واستقل عبد المؤمن فأجل أبا حفص
هذا عن الوزارة ورأى بقدره عنها اذ كان عندهم فوق ذلك واستوزر
أبا جعفر أحمد بن عطية فجمع بين الوزارة والكتابة فهو معدود فى
الكتاب والوزراء فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له الى أن افتتحوا بجاية
فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلاً من نهاء الكتاب يقال له أبو
القاسم القالى وسيأتي ذكره فى كتابه واستمرت وزارة أبى جعفر الى
أن قتله عبد المؤمن فى شهر سنة ٥٣ واستصفي أمواله ثم وزر له عبد
السلام الكومى وكان يدعى المقرب لشدة تقرب عبد المؤمن اياه فاستمرت
وزارة عبد السلام هذا الى أن أرسل اليه عبد المؤمن من قتله خنقا فى
شهر سنة ٥٥٧ ثم وزر له ابنه عمر الى أن توفى عبد المؤمن كتابه أبو
جعفر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء كان قبل اتصاله بعبد المؤمن
وفى الدولة الامتونية يكتب لعل بن يوسف فى آخر أيامه وكتب عن
تاشفين بن على بن يوسف فلما انقضى أمرهم هرب وغير هيئته وتشبه
بالجند وكان محسناً للرمى وكان فى الجند الذين خرجوا الى سوس لقتال

ثائر قام هناك كان الامير على هذا الجند أبو حفص عمر أئني المتقدم
 بالذكر في أهل الجماعة فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقتل هو وانقضت
 تلك الجموع طاب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة الى
 الموحدين الذين بمرا كس فدل على أبي جعفر هذا ونبه على مكانه
 فاستعداه وكتب عنه الى الموحدين رسالة في شرح الحال أجاد في أكثرها
 ما شاء منعى من رسمها في هذا الموضع ما فيها من الطول فلما بلغت
 الرسالة عبد المؤمن استحسنها واستدعي أبا جعفر هذا واستكتبه وزاده
 الى الكتابة الوزارة لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله فلم يزل
 وزيره كما ذكرنا الى ان قتله في التاريخ الذي ذكر كان سبب قتله
 فيما بلغني انه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف
 ببنت الصحراوية وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم
 يعرف أيضاً يحيى بن الصحراوية فخطب يحيى هذا عند الموحدين وقودوه
 على من وخدم من متونة ولم يزل وجهها عندهم مكرماً لديهم وكان خليفاً
 بذلك الى ان نقلت عنه الى عبد المؤمن أشياء كان يفعلها وأقوال كان يقولها
 احببته عليه فتحدث عبد المؤمن ببعض ذلك في مجلسه وورعاهم بالقبض
 على يحيى هذا فرأى الوزير ابو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح
 أميره ونحذر صهره فقال لأمرائه أخت يحيى المذكور قولي لأخيك
 تحفظ واذا دعواه غداً فليعتل ويظهر المرض وان قدر على الهروب
 واللاحاق بجزيرة مبرقة فليفعل فاخبرته أخته بذلك فمارض وأظهر انه
 لما به فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن علته فأسر الى بعضهم ممن كان
 يشق به ما بلغه عن الوزير فخرج ذلك الرجل الذي أسراليه فقتل ذلك
 كله بمجملته الى رجل من ولد عبد المؤمن فكان هذا هو السبب الأكبر

في قتل أبي جعفر المذكور وأمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه فكان في سجنه الى أن مات ثم كتب له بعد أبي جعفر هذا أبو القاسم عبد الرحمن القالمي من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم وكتب له معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة

(قضائه) أبو محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالمالقي لم يزل قاضياً له الى أن توفي عبد المؤمن وصدر من خلافة أبي يعقوب وكان عبد المؤمن مؤثراً لاهل العلم محباً لهم محسناً اليهم يستدعيهم من البلاد الى السكون عنده والجوار بحضرته ويجري عليهم الارزاق الواسعة ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم وقسم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الجضر هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين لتسمية بن تومرت لهم بذلك لاجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه وكان عبد المؤمن في نفسه سرى الهمة نزية النفس شديد الملوكة كأنه كان ورثها كابراً عن كابر لا يرضى الا بما عالى الامور أخبرني الفقيه المتفني أبو القاسم عبد الرحمن ابن محمد بن أبي جعفر الوزير عن أبيه عن جده الوزير أبي جعفر قال دخلت على عبد المؤمن وهو في بستان له قد ائبعت ثماره • وفتحت أزهاره • وتجاوبت على أغصانها أطياره • وتكامل من كل جهة حسنه وهو قاعد في قبة مشرفة على البستان فسلمت وجلست وجعلت أنظر بمنة وشامة متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي يا أبا جعفر أراك كثير النظر الى هذا البستان قلت يطيل الله بقاء أمير المؤمنين

والله ان هذا المنظر حسن فقال يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا قلت نعم
فسكت عني فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بمرض العسكر أخذى
أسلحتهم وجلس في مكان مظل وجعلت العسكر تمر عايه قبيلة بعد
قبيلة وكتيبة أثر لكتيبة لا تمر كتيبة الا والتي بعدها أحسن منها جودة
سلاح وفراصة خيل وظهور قوة فلما رأى ذلك التفت إلى وقال يا أبا
جعفر هذا هو المنظر الحسن لا تمارك وأشجارك ولم يزل عبد المؤمن
بعد وفاة ابن تومرت يطوى الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد الى أن
ذلت له البلاد . وأطاعته العباد وكان آخر ما استولى عليه من
البلاد التي يملكها المرابطون مدينة مرايكش دارملك أمير المسلمين .
وناصر الدين . على بن يوسف بن تاشفين . وهذا بعد وفاة أمير
المسلمين المذكور حثف أنفه في شهر سنة ٥٣٧ وكان قد عهد في حياته
الى ابنه تاشفين فعاثته الفتنة عن تمام أمره ولم يتفق له ما أمسه من
استقلال ابنه تاشفين المذكور بشئ من الامور وخرج تاشفين بعد
وفاة أبيه قاصداً تلمسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد فقصد مدينة
وهران وهي على ثلاث مراحل من تلمسان فحاصره الموحدون بها
فلما اشتد عليه الحصار خرج راجباً فرساً شهباء عليه سلاحه فاقتحم
البحر حتى هلك ويقال انهم اخرجوه من البحر وصابوه ثم أحرقوه
فأله أعلم بصحة ذلك فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه الى
أن قتل كما ذكرنا بمدينة وهران ثلاثة أعوام الا شهرين وكان قتله سنة
٥٤٠ وكان بطول هذه الولاية لا يستقر به قرار ولا تستقيم له حال تنبو
به البلاد وتنكر له الرعية فلم تزل هذه حاله الى أن كان من أمره ما ذكر
وبعد دخول عبد المؤمن رحمه الله مرايكش طلب قبر أمير المسلمين

وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث فأخفاه الله وستره بعد وفاته كما ستره
 في أيام حياته وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين وانقطعت
 الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه فلم يذكروا على
 منبر من منابرهما إلى الآن خلا أعوام يسيرة بأفريقية كان قد ملكها
 يحيى بن غانية الثائر من جزيرة مريقة على ماسياني ياناه وكانت مدة
 المرابطين من حين نزولهم رحبة مراکش إلى أن انقرض ملكهم جملة
 واحدة بموت أمير المسلمين وابنه نحواً من ست وسبعين سنة

ولما ديان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه
 المرابطون علي ما قدمنا وأطاعه أهلها جمع جوعاً عظيمة وخرج من
 مراکش يقصد مملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن المنتصر الصنهاجي
 وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات وهذا الموضع
 هو الحد فيما بينه وبين لتونة فقصده عبد المؤمن كما ذكرنا في شهور
 سنة ٥٤٠ فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق فلما رأى
 يحيى بن العزيز ألا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم هرب في البحر
 حتى أتى مدينة بونة وهي أول حد بلاد أفريقية ثم خرج منها حتى أتى
 قسطنطينية المغرب فأرسل إليه عبد المؤمن رحمه الله بالجيوش فاستنزل
 وأوتى به عبد المؤمن هذا بعد أن عهد عبد المؤمن أن يؤمن يحيى في
 نفسه وأهله ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها وملك قلعة بني حماد وهي
 معقل صنهاجة الأعظم وحرزهم الأمان فيها نشأ ملكهم ومنها انبثت
 أمرهم وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجدته المنصور والمنتصر وجدهم
 الأكبر حماد من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ومن بلادهم
 أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها

ونصروها فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمراً ودولتهم قائمة وأمرهم نافذاً لا ينازعهم أحد شيئاً مما في أيديهم الى ان أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه الى مملكته ابو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي كُتِبَ ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقاعة وأعمالها رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها واستعمل عليها ابنه عبد الله وكر راجعاً الى مراکش ومعه وفي جنده يحيى بن العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته فحين وصلوا الى مراکش أمرهم بالمنازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسي الفاخرة والاموال الوفرة وخص يحيى من ذلك بأجزله وأسناء وأحفله ونال يحيى هذا عنده رتبة عالية وجاها ضخماً وأظهر عبد المؤمن عناية به لا مزيد عليها بلغنى من طرق عدة ان يحيى بن العزيز كان في مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف فقال يحيى أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة وعبيدى في كل يوم يشكون الى ما يلقون من ذلك ويدكرون ان أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك ان عاداتهم في بلاد المغرب انهم يضربون انصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بيعاتهم فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس اتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صروف كلها وقال لرسوله قل لهم لا يتعذر عليك مطلوب مادمت بمحضرتنا ان شاء الله عز وجل وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتباً للامور المختصة بالملكة من بناء دور واتخاذ قصور واعداد سلاح واستئصال مستعص وتأمين سبل واحسان الى رعية وما هذا سبيله

(فصل) فأما أحوال جزيرة الأندلس فانه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تحاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام بن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية فأما بلاد إفراغة فاستولى عليها ملك أرغن لعنه الله وملك مع ذلك سرقسطة أعادها الله للمسلمين وكثيراً من أعمال تلك الجهات وافق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه عبد الرحمن بن عياض وكان عبد الرحمن هذا من صاحب أمة محمد وخيارهم بلغنى عن غير واحد من أصحابه انه كان مجاب الدعوة ومن عجائب أمره انه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس اذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس فحى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردهم عن البلاد وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويدود عنها إلى أن توفى رحمه الله ونضر وجهه وشكر له سعيه لا انحقق تاريخ وفاته وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه

محمد بن سعد المعروف عندهم بابن مردئش كان محمد هذا خادماً لابن
عباس يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه فلما حضرته
الوفاة اجتمع اليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له الى من تسند أمورنا وبمن
تشير علينا وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال انه لا يصلح لاني سمعت
انه يشرب الخمر ويففل على الصلاة فان كان ولا بد فقدموا عليكم هذا
وأشار الى محمد بن سعد فانه ظاهر النجدة كثير الفناء ولعل الله أن
ينفع به المسلمين فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد الى أن مات في
شهر سنة ٥٦٨ وأما أهل المربة فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من
المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على انفسهم فندبوا اليها القائد ابا عبد
الله بن ميمون ولم يكن منهم انما هو من أهل مدينة دانية فأبى عليهم
وقال انما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت فكل عدو جاءكم
من جهة البحر فانا لكم به فقدموا على انفسكم من شتم غيري فقدموا
على انفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد يعرف بابن الرميحي فلم
يزل عليها الى أن دخاها عليه النصاري من البر والبحر فقتلوا أهلها
وسبوا نساءهم وبنينهم وانهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره وملك
جيان وأعمالها الى حصن شقورة وما الى تلك الثغور رجل اسمه
عبد الله لا أعرف اسم أبيه هو معروف عندهم بابن همشك • وربما
ملك عبد الله هذا قرطبة أياما يسيرة وأقامت علي طاعة المرابطين
اغرناطة وأشبيلية فهذه جملة أحوال الاندلس في آخر دعوة المرابطين
وفي ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن
الصغار أضربت عن ذكرها خوفا من الاطالة لأنها نكرة والتعريف

بها محرج الى الطول وقام بمغرب الاندلس دعاة فتن ورؤس ضلالات
فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة من جلنهم رجل اسمه
احمد بن قسي كان في أول أمره يدعى الولاية وكان صاحب حيل
ورب شعبذة وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان ويمتثل طريق البلاغة
ثم ادعى الهداية بلغنى ذلك عنه من طرق صحاح ثم لم يستقم له شيء
فما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بمحسن مارتلة وقد تقدم اسم
هذا الحصن في أخبار الدولة العبادية فأسلمه كما ذكرنا أصحابه واختلفوا
عليه ودسوا اليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون
قبضاً باليد فعبروا به الى العدو فأتوا به عبد المؤمن رحمه الله فقال له
بلغنى انك ادعيت الهداية فكان من جوابه أن قال أليس الفجر فجران
كاذب وصادق فأنا كنت الفجر الكاذب فضحك عبد المؤمن وعفاه عنه
ولم يزل بمحضرة الي ن أفتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالاندلس
ولا بن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه والتهاون
بأمر الولاية بمعنى من ذكرها صرف العناية الى ما هو أهم منها
ولما انتشرت دعوة المصامدة كما ذكرنا بالمغرب الأقصى تشوف اليهم
اعيان مغرب الاندلس فجعلوا يقدون في كل يوم عليهم ويتنافسون في
الهجرة اليهم فدخل في ملكهم كثير من جزيرة الاندلس كالجزيرة
الحضراء ورندة ثم اشيلية وقرطبة واغرناطة وكان الذي فتح هذه
البلاد الشيخ ابو حفص عمر ابنى المتقدم الذكر في أهل الجماعة واجتمع
على طاعتهم أهل مغرب الأندلس
فلما رأى عبد المؤمن ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد جزيرة

الاندلس فسار حتى نزل مدينة سبتة فعبر البحر ونزل الجبل المعروف
 بجبل طارق وسماه هو جبل الفتح فأقام به أشهراً وابتنى به قصوراً عظيمة
 وبنى هناك مدينة هي باقية الى اليوم ووفد عليه في هذا الموضع وجوه
 الاندلس للبيعة كأهل مالقة واعرناطة وورندة وقرطبة وأشبيلية وما
 الى هذه البلاد وانضم اليها لوكان له بهذا الجبل يوم عظيم اجتمع له
 وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة
 والاندلس ما لم يجتمع لملك قبله واستدعي الشعراء في هذا اليوم
 ابتداء ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك انما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم وكان
 على بابهم طائفة أكثرهم مجنونون فدخلوا فكان أول من أنشد
 ابو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس وكانت طريقته في الشعر
 على نحو طريقة محمد بن هاني الاندلسي في قصد الالفاظ الرائعة والقفايع
 الموهولة وإيثار التعبير الا ان محمد بن هاني كان أجود منه طبعاً وأحلا
 مهيباً فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
 وبحسبه أن كان شيئاً قابلاً وجد الهداية صورة فتشكلا

لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين ولابن حبوس هذا
 قصائد كثيرة وكان حظياً عنده نال في أيامه ثروة وكذلك في أيام ابنه
 أبي يعقوب وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء حتى نقلت اليهم عنه
 حماقات فهرب الى الاندلس ولم يزل بها مستخفياً ينتقل من بلد الى بلد
 حتى انتقلت الدولة المرابطية قرأ على ابنه عبد الله من خط أبيه هذه
 الحكاية قال دخلت مدينة شلب من بلاد الاندلس ولي يوم
 دخلتها ثلاثة أيام لم أطمع فيها شيئاً فسألت عن من يقصد اليه فيها فدلني

بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح فعمدت الى بعض الوراقين فسألته سحاة ودواة فأعطانيها فكتبت أبياتاً امتدحها وقصدت داره فإذا هو في الدهليز فسلمت عليه فرحب بي ورد على أحسن رد وتلقاني أحسن لقاء وقال أحسبك غريباً قلت نعم فقال لي من أي طبقات الناس أنت فأخبرته اني من أهل الأدب من الشعراء ثم انشدته الايات التي قلت فوقعت منه أحسن موقع فأدخلني الى منزله وقدم الى الطام وجعل يتحدثني فما رأيت أحسن محاضرة منه فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يدي ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطة فدفعها الي وقال هذه لك ثم دفع الى صرة فيها أربعون مثقالاً وقال هذه من عندي فتعجبت من كلامه وأشكل على جداً وسألته من اين كانت هذه لي فقال لي سأحدثك اني أوقفت ارضا من جملة مالي للشعراء غلتها في كل سنة مائة دينار ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتولي الفتن التي دهمت البلاد فاجتمع هذا المال حتي سبق اليك وأما هذه فن حر مالي يعني الاربعين دينار فدخلت عليه جائئاً فقيرا وخرجت عنه شعبان غنيا وانشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطالبي المرواني كان شريفاً من جهة امه

* ما للعدى جنة أوتي من الحرب *

فقال عبد المؤمن رافعا صوته الي ابن الى ابن فقال الشاعر

* ابن المفر وخيل الله في الطلب *

وأين يذهب من في رأس شاهقة وقد رمته سماء الله بالشهب

حدثت عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن بمنزل هذا تمدح الخلفاء فسَمي

نفسه خليفة كما ترى ويجد هذا الشاعر هو الشريف الطليق طليق
 النعامة وإنما سمي بذلك لأنه كان محبوباً في مطبق أبي عامر محمد بن
 أبي عامر الملقب بالنصور القائم بدعوة هشام المؤيد أقام في ذلك
 الحبس سنين فكتب يوماً قصة يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق
 الحبس وضنك العيش فرُفعت إلى ابن أبي عامر فأخذها في جملة
 رقع ودخل إلى داره فجاءت نعاماً كانت هناك فجعل يلقي إليها الرقع
 فتبذلع شيئاً وتلقى شيئاً فألقى إليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقع
 وهو لم يقرأها فأخذتها ثم دارت وألقها في حجره فرمى بها إليها ثانية
 فدارت القصر كله ثم جاءت وألقها في حجره فرمى بها إليها ثالثة وفعلت
 ذلك مراراً فتعجب من ذلك وقرأ الرقعة وأمر بإطلاقه فسمي بذلك
 طليق النعامة وأنشد في ذلك اليوم رجل من أهل إشبيلية يعرف
 بابن سيد ويلقب بالاص

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل

وانظر إلى الجبل الراسي على جبل

أني استقر به أني استقل به

أني رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المؤمن لقد تقلتنا يا رجل فأمر به فأجلس وهذه

القصيد من خيار ما مدح به لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب

البليسي المعروف بالرصافي كان مستوطناً مدينة مالقة

لوجئت نار الهدى من جانب الطور

قبست ما شئت من علم ومن نور

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها
 فيضية القدح من نور النبوة أو
 مازال يُقضمها التقوى بموقدها
 حتى أضاءت من الإيمان عن قبس
 نور طوى الله زناد الكون منه على
 وآية كآيات الشمس بين يدي
 يادار. دار. أمير المؤمنين بسفح
 ذات العمادين من عز وملكة
 ما كان ياتيك بالواني الكرامة عن
 مواطئ من نبى طال ما وصلت
 حيث استقلت به نعلاه بوركتنا
 وحيث قامت قناة الدين ترفل في
 في كف منشمر البردين ذى ورع
 يلقاك في حال غيب من سريره
 تسنم الفلك من سخط المار وقد
 فسرن يحملن أمر الله من ملك
 يومى له بسجود كل تحركة
 لما تسابقن في بحر الزقاق به
 أهر من موجه أثناء مسرور
 كأنه سالك منه على وشل
 من السيوف التي ذابت لسطوته
 ذو المنشئات الجوارى في أجرتها

ليلا لساو ولم تشب لمقمون
 نور الهداية تجلوا ظلمة الزور
 صوام هاجرة قسوام ديجور
 قد كان تحت رماد الكفر مكفور
 سقط الى زمن المهدي مذخور
 غزو على الملك القيسى منذور
 الطود طود الهدى بوركت في الدور
 على الاساسين من قدس وتطهير
 قصر على جمع البحرين مقصور
 فيها الخطى بين تسييح وتكبير
 فطيت كل موطوء ومعبور
 لواء نصر على البرين منشور
 على التقى وصفاء النفس مفطور
 بعالم القدس مشهود ومحضور
 تؤدين ياخير افلاك العلى سبرى
 بالله مستنصر فى الله منصور
 منها ويوليه حمداً كل تصرير
 ركن شطيه في شك ونحيير
 أم خاض من لجه أحشاء مدعور
 فى الارض من مهج الاسياف مقطور
 وقد رمى ناز هيجاها بتسمير
 شكل الغدائر فى سدل وتضفير

أعدي المياه وأنفاس الرياح لها
 من كل عذراء حبلى في ترائبها
 تخالها بين أيد من مجاذفها
 وربما خاضت التيار طائفة
 كأنما عبرت تحتال عامة
 حتى رمت جبل الفتحين من كذب
 لله ما جبل الفتحين من جبل
 من شاخ الأتق في سخناه طلس
 معبراً بذراء عن ذرى ملك
 تسمى النجوم على الكليل مفرقه
 وربما مسحته من ذوائبها
 وأردد من ثيابه بما أخذت
 محنك حلب الايام أشرطرها
 مقيد الخطو جوال الخواطر في
 قدو اصل الصمت والاطراق مفكراً
 كأنه مكمد مما تعبد
 أخلق به وجبال الارض راجفة
 كفاه فضلاً أن انتابت مواطئه
 مستنشئاً بهما ريج الشفاعة من
 ما انفك أمل أمر منه بين يدي
 حتى تصدي من الدنيا على رفق
 مستقبل الجانب الغربي مرتقباً

ما في سجاياه من لين وتعطير
 ردعان من عتبر ورد وكافور
 يغرقن في مثل ماء الورد من جود
 بمثل أجنحة الفتح الكواسير
 في زاخر من يدي يئناه معصور
 بساطع من سنانه غير مهور
 معظم القدر في الاجبال مذكور
 له من الغيم جيب غير مزور
 مستمطر الكف والاكناف مطور
 في الجو حائمة مثل الدنانير
 بكل فضل على قوديه مجرور
 منه معاجم أعواد الدهاير
 وساقها سوق حادي العير للير
 عجيب أمره من ماض ومنظور
 بادی السكينة مغفر الاساير
 خوف الوعيد من دك وتسير
 ان يطعن غداً من كل محذور
 نعلا ملك كريم السعي مشكور
 نرى امام بأقصي الغرب مقبور
 يوم القيامة محتوم ومقدور
 يستعجز الوعد قبل النفخ في الصور
 كأنه باهت في جو اسمير

لبارق من حسام سله قدراً
 اذا تألق قيسياً أهاب به
 ملك أتى عظماً فوق الزمان فما
 ماعن في الدين والدنيا له أرب
 ولا رمي من أمانيه الى غرض
 حتي كأن له في كل آونة
 ميمز الجيش ملتفاً مواكبه
 من الاولى خضعوا قسراً له وعنوا
 من بعد ما عاندوا أمراً فآركوا
 بقية الحرب فاتوها وما بهم
 لا ينكر القوم مما في أكفهم
 اذا صدعت بأمر الله مجتهداً
 لا يذهان لتقليل أخو سبب
 فالبحر قد اعد من ضرب العصا يساً
 وانما هو سيف الله قلده
 فان يكن بيد المهدي قائمه
 والشمس ان ذكرت موسى فانسيت
 . وكان الرصافي يوم انشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة
 وهو من مجيدي شعراء عصره لا سيما في المقاطيع كالخمس الايات فما
 دونها وقد رويت شعره عن جماعة ممن لقيه وقد رأيت أن أورد منه
 هاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف نهر
 اشيلية الاعظم وهو نهر لانظير له في الدنيا

ومهول الشطين تحسب انه
فادت عليه مع الهجيرة سرحة
فتراه ازرق في غلالة سمره
وله وقد اجتمع مع اخوان له في بعض العشايا في بستان رجل يقال
له موسى بن رزق

ما مثل موضعك ابن رزق موضع
فكأنما هو من محاجر غادة
وعشية لبست رداء شحوبها
بانغت بها أمد السرور تألفاً
قابل بهار مق الغبوق فقد أنى
سقطت فلم يملك نديمك ردها

وله يصف عشية ايضا في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر
محل ابن رزق جر فيه ذيوله
ذكرت عشيا فيك لا ذم عهده
ولم يعلق بي منك عند افتراقنا
وكنت أرائي في الكرى وكأني
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه
وله يصف دولابا

وذى حنين يكاد شوقا
لما غدا للرياض جارا
يتسم الروض حين يبكي
من كل جفن يسيل سيفا

يمختل الأنفس اختلاسا
قال له المحل لا مساسا
بأدم —ع ما رأين باسا
صار له غمده رثاسا

وله قد رأي صيدا يتباكى ويحجل من ريقه على عينيه يحكي بذلك الدموع
عذيري من لحدلان يبدى كآبة وأضله عما يحاوله صفر
أميلد مياس اذا قاده الصبي الى ملح الادلال أبده السحر
يبل ما بقي زهرته بريقه ويحكي الكا عمدا كما ابتسم الزهر
ويوهم ان الدمع بل جفونه وهل عصرت يوما من النرجس الحمر
وقال يصف نائما قد تحجب العرق على خده

ومهمه كف كالفصن الا انه سلب الثنى النوم عن أثنائه
أنحى نيام وقد تحجب خده عرقا فقلت الورد رش بئائه
وللرصافي هذا اقتنان في الآداب وكان رحمه الله عفيف الطعمة
نزاهة النفس لا يحب أن يشتهر بالشعر مع اجداته في كثير منه
وأقام عبد المؤمن رحمه الله بحبل الفتح مرتبا للامور عمدا للمملكة
وأعيان البلاد يفدون عليه في كل يوم الى أن تم له ما أراد من اصلاح
ما استولى عليه من جزيرة الاندلس فولى مدينة اشبيلية وأعمالها ابنه
يوسف وهو الذي ولى الامور بعده على ما سيأتي بيانه وترك معه بها
من أشياخ الموحدين وذوى الرأي والتحصيل منهم من يرجع اليه في
أموره ويعول عليه فيما ينويه وولى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر ايتى
وولى اغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن يكنى ابا سعيد وكان
من نهاء اولاده ونجباهم وذوى الصرامة منهم وكان محبا في الآداب
موثرا لأهلها يهتز للشعر ويثيب عليه اجتمع له من وجوه الشعراء
واعيان الكتاب عصابة ما علمتها اجتمعت لملك منهم بعده ثم كر عبد
المؤمن راجعا الى مراکش بعد ما ملأ ما ملكه من اقطار جزيرة
الاندلس خيلا ورجالا من المصامدة والعرب وغيرهم من اصناف الجند

وقد كان حين أراد العبور الى جزيرة الاندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز وهم قبائل من هلال بن عامر خرجوا الى البلاد حين خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق الى المغرب فعانوا في القيروان عينا شديداً أوجب خرابها الى اليوم ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد وهذا بعد موت المعز بن باديس فانتقل تميم الى المهديّة وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور ابن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك فاقاموا على ذلك باقى أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز وأيام يحيى الى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن رحمه الله فزال ذلك من أيديهم وصيرهم جنداً له واقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد فكتب اليهم رسالة يستنفرهم الى الغزو بجزيرة الاندلس وأمر أن تكتب في آخرها -
آيات قالها رحمه الله في ذلك المعنى وهي

اقبموا الى العلياء هوج الرواحل

وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة نائر	وشدوا على الاعداء شدة صائل
فها العز الاظهر أجرد سابع	يفوت الصبي في شدة المتواصل
وأبيض مأثور كأف فرنده	على الماء منسوج وليس بسائل
بنى العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت الى الغزوة نية	عواقبها منصوره بالاوائل
هي الغزوة الغراء والموعود الذى	تجز من بعد المدى المتطاوّل
بها يفتح الدنيا بها يبلغ المنى	بها ينصف التحقيق من كل باطل
اهبنا بكم للخير والله حسبنا	وحسبكم والله أعذل عادل

فأهنا الا صلاح جميعكم وتسريحكم في ظل أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترف طلاها عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنمة وللمدح السارى صفاء المناهل
فاستجاب له منهم جمع ضخم فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها
فجعل بعضهم في نواحي قرطبة وبعضهم في نواحي اشبيلية بما يلى مدينة
شريش وأعمالها فهم بها باقون الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ وقد انتشر
من نسلهم بتلك المواضع خلق كثير وزاد فيهم ابو يعقوب وابو يوسف
حتى كثروا هنالك فبالجزيرة اليوم من العرب من زغبة ورياح وجشم
ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجلة وكان عبور
عبد المؤمن رحمه الله الى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح في سنة ٥٣٨ ثم
كر كما ذكرنا راجعاً الى مراکش فأخبرني غير واحد ممن أرى
نقله انه لما نزل مدينة سلا وهى مدينة على البحر الاعظم المحيط ينصب
اليها نهر عظيم يصب في البحر المذكور عبر النهر وضربت له خيمة
على الشاطئ وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة فلما نظر الى كثرة
العدد وانتشار العالم خر ساجداً ثم رفع رأسه وقد بل الدمع لحينه
والتفت الى من عنده وقال اعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة
لا شئ لهم الا رغيغ واحد فراموا عبور هذا النهر فأتوا صاحب
القارب وبذلوا له الرغيغ على ان يعبروا ثلثم فقال لا آخذه الا على
اثنين خاصة فقال لهم أحدهم وكان شاباً جلدأ خذا ثيابي معكما وأعبر
أنا سباحة فأخذا ثيابي معهما وصعدا في القارب فجعل الشاب يسبح
فكلما أعيأ دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح فيضربه صاحبه
بالمجذاف الذى معه حتى يؤلمه فما بلغ البر الا بعد جهد شديد فماشك

السامعون للحكاية انه العابر سباحة وان الانسين المذكورين هما ابن
تومرت وعبد الواحد الشرقي ثم سار حتى أتى مرا كش فزها وأخذ
في البناء والغراسة وترتيب القصور غير محل بشيء مما تحتاج اليه المملكة
من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتعجب الى الرعية
واخافة من محب اخافه

وأخبرني السيد حقيقة • والماسجد خلقاً وخليلة ابوز كرية
يحيى بن الامام أمير المؤمنين ابى يعقوب بن الامام أمير المؤمنين أبي محمد
عبد المؤمن بن علي انه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة
عبد المؤمن هذين البيتين وقال لي رحمه الله لا أدري هما له أو لغيره
وحكم السيف لا تغبأ بعاقبة ، وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة ولا ترد صدور الخيل بالكتب
وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن حجابة وولى عليها ابنه عبد الله
حسب ما تقدم عهد اليه أن يشن الغارات على نواحي افريقية وان
يضيق على تونس ويمنع عنها المرافق التي تصل اليها على طريقه ففعل
ذلك ثم ان عبد الله تجهز في جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم
وسار حتى نزل على مدينة تونس وهي حاضرة افريقية بعد القيروان
وكرسى مملكته ومقر تدبيرها واياها يستوطن والى افريقية لم يزل
هذا معروفاً من أمرها الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فحاصرها عبد الله
المذكور وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها وكان الذي يملكها في
ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقه الرومي صاحب صقلية
لعنه الله وكان عامله عليها رجل من المسلمين اسمه عبد الله يعرف بابن
خراسان لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريج الذي

سند كره فلما طال على ابن خراسان الحصار اجمع رأيه ورأى أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة ففعلوا ذلك وخرجوا بجند ضخمة فالتقوا هم وأصحاب عبد الله فانهزم أصحاب عبد الله وقتل منهم خلق كثير ورجع عبد الله ببقية أصحابه الى بجاية فكتب الى أبيه يخبره بذلك فلما كان في آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن في الحركة الى افريقية فجمع جموعاً عظيمة من المصامدة وغيرهم من جند المغرب وسار حتى نزل على مدينة تونس فافتتحها عنوة وفصل عنها الى مهبدة بن عبيد وفيها الروم أصحاب ابن الدوقه وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم ابن المعز بن باديس بن المنصور بن بلجين بن زيري بن مناد الصنهاجي ملوك القيروان فنزل عبد المؤمن عليها فحاصرها أشد الحصار وهي من معاقل المغرب النسيعة لان بنيانها في غاية الاحكام والوثاقه بلغنى ان عرض حائط سورها مئى سنة أفراس في صف واحد ولا طريق لها من البر الا على باب واحد والبحر في قبضة من في البلد يدخل الشيني كما هو يعقائلته الى داخل دار الصناعة لا يقدر أحد ممن في البر على منعه فبهذا قدر الروم على الصبر على الحصار لان النجدة كانت تأتيتهم من صقلية في كل وقت وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر الا أياماً وأصابتهم عليها شدة شديدة من غلاء السعر بلغنى عن غير واحد انهم اشتروا الباقلاء في العسكر سبع باقلات بدرهم مومنى وهو نصف درهم النصاب ثم افتتحها عبد المؤمن رحمه الله بعد أن آمن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية بلدهم حيث مملكة صاحبهم ففعلوا ذلك ودخل عبد المؤمن وأصحابه المهدية فملكوها وبعث الى قابس من افتتحها وفيها الروم أيضاً ثم افتتح

طرابلس المغرب وأرسل الى بلاد الجريد وهي توزر وقفصة ونقطة
والحامة وما الى هذه البلاد فافتحت كلها وأخرج الافرنج منها والحقهم
ببلادهم كما تقدم فمحا الله به الكفر من افريقية وقطع عنها طمع العدو
فأنتبه بها الدين بعد خموله وأضاء كوكب الايمان بعد انطماسه وأقوله
وتم لعبد المؤمن رحمه الله ملك افريقية كلها منتظما الى مملكة المغرب
فلك في حياته من طرابلس المغرب الى سوس الاقصى من بلاد المصامدة
وأكثر جزيرة الأندلس وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله
منذ اختلت دولة بني أمية الى وقته ثم كر عبد المؤمن راجعاً من افريقية
بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها فأخبرني بعض أشياخ الموحدين
من ذوى التحصيل منهم والثقة ان عبد المؤمن مر في طريقه راجعاً من
افريقية بجاية فدخل البلد متزهاً فيه فر بسويقة بناحية باب من أبوابها
يدعي باب تاطنت فوقف ووقف معه وجوه دولته فسأل عن بيعها
سماء باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته فقال هل خائف عقباً قالوا نعم
فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السويقة وأوقفها عليهم وأمر لهم
بمال كثير ثم ألغيت الى بعض خواصه وقال له أثبت الى هذا البيع
ولي وللإمام يعني ابن تومرت والجماعة من أصحابنا من الطلبة أيام لم
نعلم فيها وما معي الاسكين الدواة فأخذت منه خبزاً وإداماً ثم وضعت
عنده الاسكين رهناً علي ذلك فأبى قبولها وقال لي اني توسمت فيك الخير
فتي أعوزك شيء فلم الى الدكان فهو بين يديك وبحكمك خفقه علي
أكثر من هذا ونظر في هذا اليوم الذي ركب فيه مختزقاً بجاية الى
يحيى بن العزيز يمشي بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار قدمعت عيناه
واستدعاه فقال له أئذ كر يوماً خرجت الى بعض منزهاتك فاذا كراتني

جعنى واياك هذا الباب فوطئت دابتك عقي فلما نظرت اليك أمرت
 بعض عبيدك فوكزنى وكزة كدت أقع منها لنى فاستحياني وتغير لونه
 وأطرق وجعل يقول الله الله يا مولاي وظن أنه الشر فلما رأى ذلك
 منه قال له انما ذكرت لك ذلك على طريق الاعتبار ولتذكر وتنظر
 كيف تقلب الايام بأهلها وأمر له بما زال به روعه ومرفى طريقه هذا
 ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوم فجاءت منه دوحه
 عظيمة فى وسطها رحبة نقيه فأمر أن يضرب خباؤه هنالك وهو غير
 منزل معروف فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول قال لبعض
 خواصه اتدرون لما آثرت النزول بهذا المكان قالوا لا قال ذلك لاني بت
 بهذا الموضع فى بعض الليالى جائعاً مقروراً وكانت ليلة ممطره فما زال
 هذا الدوم وقائى حتى أصبحت فأردت النزول هنا على هذه الحاله
 لاشكر الله سبحانه على الفرق ما بين المنزلتين والفصل ما بين البيتين
 ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكر الله عز وجل وجدت هذه الحكاية
 بخط رجل من ولد عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد
 المؤمن وبداله فى هذا الوجه أن يمر على القرية التى تسمى تاجرا
 وبها كان مولده كما تقدم لزيارة قبر أمه وصلة من هناك من ذوى رحمه
 فلما أطل عليها والجيش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه
 أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية وهرت أكثر من مائتى
 طبل وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الضخامة يخيل لسامعها اذا ضربت
 ان الارض من تحتها تهتز ويحس بقلبه يكاد يتصدع من شدة دويها فخرج
 أهل القرية للقاءه والتسليم عليه بالخلافة فقالت امرأة عجوز من عجائر
 القرية ممن كانت تصحب أمه هكذا يعود الغريب الى بلدك تقول ذلك

رافمة صوتها ونازع عبد المؤمن الأمر قوم من قرابة بن تومرت يعرفون
بأيت ومغار معناه بالعربية بنو ابن الشيخ واتهوا في ذلك الى أن أجمع
رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن
خباءه ليلا فيقتلوه وظنوا ان ذلك يخفى من أمرهم وان عبد المؤمن
اذا فقد ولم يعلم من قتله صار الامر اليهم لانهم أحق به اذ كانوا أهل
الامام وقرابته وأولى الناس به فأعلم بما أرادوه من ذلك رجس من
أصحاب بن تومرت من خيارهم اسمه اسماعيل بن يحيى الهزرجي فأنى
عبد المؤمن فقال له يا أمير المؤمنين لى اليك حاجة قال وما هي يا أبا
ابراهيم فجميع حوائجك عندنا مقضية قال أن تخرج عن هذا الخباء
وتدعني أبيت فيه ولم يعلمه بمراد القوم فظن عبد المؤمن انه انما يستوجهه
الخباء لانه أعجبه فخرج عنه وتركه له فبات فيه اسماعيل المذكور فدخل
عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى برد فما أصبحوا ورأوا انهم لم
يصيبوا عبد المؤمن فروا بأنفسهم حتى أنوا مرا كش وراموا القيام بها
فأنوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح فأبوا عليهم فضربوا
عنق أحدهم وفر باقيهم وكادوا يغابون على تلك القصور ثم ان الناس
اجتمعوا عليهم من الجند وخاصة العبيد فقاتلوهم قتالا شديداً آمن لدن
طلوع الفجر الى طلوع الشمس ثم ان العبيد غابوهم على أمرهم ولم
يزل الناس يتكاثرون عليهم الى أن أخذوا قبضاً باليد فقيدوا وجعلوا
فى السجن الى أن وصل ابو محمد عبد المؤمن رحمه الله الى مرا كش
فقتلهم صبراً وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة بلغه أنهم قادحون في
ملكه متربصون به ولما أصبح أبو ابراهيم اسماعيل المتقدم الذكر في الخباء
مقتولا على الحال التي ذكرنا اعظم ذلك عبد المؤمن ووجد عليه وجداً

مفرطاً أخرجه عن حد التماسك الى حيز الجزع فأمر بفسله وتكفينه
وصلى عليه بنفسه ودفن ولم يترك اسماعيل هذا من الولد سوى ولد
واحد ذكر اسمه يحيى نال يحيى هذا في أيام أبي يعقوب جاهاً متسهماً
ورتبة عالية وكذلك في أيام أبي عبد الله كانت أكثر أمورهم ترجع
اليه لم يزل كذلك الى أن مات في شهر سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة
تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن اسمها فاطمة
لا عقب له منها طال عمرها تركتها بالحياة حين فصلت عن مراکش
في شهر سنة ٦١١ ولا اسماعيل هذا مع ابن تومرت خبر بقرب مآقدهما
في النصيح والتحذير تلطف فيه اسماعيل غاية التلطف وذلك ان ابن
تومرت حين خرج من مراکش على الحال التي تقدمت من اخراج
أمير المسلمين اياه عنها سار حتى نزل الضيعة التي فيها أبو ابراهيم فدخل
المسجد فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون الى ابن تومرت
ويقول بعضهم لبعض همسا هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده
لأفساده عقول الناس ونحو هذا القول وهموا بقتله تقرباً بذلك الى أمير
المسلمين فلما رأى ذلك أبو ابراهيم من أمرهم تقدم الى ابن تومرت
فسأله عن اعراب هذه الآية (ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج
اني لك من الناصحين) ففهم بن تومرت ما أراد وخرج عن تلك الضيعة
وعرف لابي ابراهيم نصحه ثم لحق به أبو ابراهيم هذا بعد ما اشتهر
أمره بتنميل فهو معدود في أهل الجماعة ولما قتل عبد المؤمن أولئك
القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً هابه المصامدة وسائر أهل دولته
وعظم أمره في صدورهم

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي

أول سنة ٥٨ خرج أمره الى الناس كافة بالغزو الى بلاد الروم من جزيرة الاندلس وكتب عنه الكتب الى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الاندلس مظهراً للغزو والاحتساب ويتم أيضاً مع ذلك ما بقى عليه من مملكتهما من ما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر فصار بالجيوش حتى نزل مدينة سلا فأقام بها ينتظر تكامل العساكر فاعتل علة التي مات منها رحمه الله وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة أعني سنة ٥٨ وكان قد عهد في حياته الى أكبر أولاده محمد وبايعه الناس وكتب ببيعته الى البلاد فاني تمام هذا الامر لمحمد هذا ما كان عليه من أمور لاتصلح معها الخلافة من اتمان شرب الخمر واختلال الرؤى وكثرة الطيش وجبن النفس ويقال انه مع هذا كان به ضرب من الجذام فالله أعلم ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختاف عليه اختلافاً كثيراً فكانت ولايته الى أن خلع خمساً وأربعين يوماً واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة وكان الذي سعى في خلعه مع ما قدّمنا من استحقاقه لذلك أخواه يوسف وعمر

﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ﴾

(وما يتعلق بها)

ولما تم خلع محمد في التاريخ المذكور بعد اتفاق من وجوه الدولة على

ذلك دار الامر بين اثنين من ولد عبد المؤمن يوسف وعمر وهما من نهاء
اولاده ونجياتهم وذوى الراى والغناء منهم قاباها عمر منهما وتأخر عنها
مختاراً وبابيع لاخته ابى يعقوب وسلم له الامر حملاً على ذلك فرط عقله
وايثار دينه وحب المصلحة للمسلمين لانه كان يعلم من نفسه اشياء لا يصلح
معها لتدبير المملكة واضبط امور الرعية فبايع الناس ابا يعقوب واتفقت
عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من أخوته ولا غيرهم وذلك
كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن وشدة تعلقه وجودة
رأيه فاستوثق لابی يعقوب هذا أمره وتمت بيعته فى التاريخ المذكور
وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها الى أن تمت كما ذكرنا اخوه لآبيه
وامه ابو حفص المتقدم الذكر وابو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد
المؤمن بن على أمه وأم أخيه أبى حفص امرأة حرة اسمها زينب ابنة
موسى الضرير كان من أهل ينممل من ضبعة يقال لها انسا كان موسى
هذا من شيوخ أهل ينممل وأعيانهم وكان عبد المؤمن يستخلفه على
مراكش اذا خرج عنها وكانت مصاهرته اياه أيام كان عبد المؤمن
يتنممل برأى ابن تومرت وخلف موسى هذا من الولد المذكور ثلاثة
ابراهيم وعلياً ومحمداً وبنات

﴿ صفة أبى يعقوب ﴾ كان أبيض تعلوه حرة شديد سواد
الشعر مستدير الوجه أفوه أعين الى الطول ما هو فى صوته جهارة
رقيق حواشى اللسان حلو الالفاظ حسن الحديث طيب المجالسة أعرف
الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم بآيائها ومآثرها وجميع أخبارها
فى الجاهلية والاسلام صرف عنايته الى ذلك أيام كونه باشيلية واليا
عليها فى حياة أبيه ولقى بها رجلاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن

منهم الاستاذ اللغوي المتقن أبو اسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف
عندهم بابن ملكون فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه أخبرني
من لقيته من ولده كافي زكريا وأبي عبدالله وأبي ابراهيم اسحق وغيرهم
عن لقيته وشافته منهم انه كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن وأسرعهم
نفوذ خاطر في غامض مسائل النجوم وأحفظهم للغة العربية وكان شديد
الملوكية بعيد الهمة سخيا جواداً استغنى الناس في أيامه وكرث في أيديهم
الاموال هذا مع ايثار للعلم شديد وتعطش اليه مفرط صح عندي انه
كان يحفظ أحد الصحيحين الشك في إما البخاري أو مسلم وأغلب ظني
انه البخاري حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن هذا مع ذكر جمل
من الفقه وكان له مشاركة في علم الادب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في
علم النجوم حسب ما تقدم ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم
الفلسفة فجمع كثيراً من أجزاءها وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من
الكتاب المعروف بالملكي أكثر مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل
ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع
كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الاموي
أخبرني ابو محمد عبد الملك الشذوني احد المتحققين بعلمي الطب واحكام
النجوم قال كنت في شببتي استعير كتب هذه الصناعة يعني صنعة الاحكام
من رجل كان عندنا بمدينة اشبيلية اسمه يوسف يكنى أبا الحجاج يعرف
بالمراني بتخفيف الراء كانت عنده منها جملة كبيرة وقعت الى ابيه في ايام
الفتنة بالاندلس فكان يعيرني اياها في غرار أحمل غرارة واجبي بغيرارة
من كثرتها عنده فاخبرني في بعض الايام انه عدم تلك الكتب بمجملتها
فدأله عن السبب الموجب لذلك فاسر الى ان خبرها انهي الى أمير

المؤمنين فأرسل الى دارى وانا فى الديوان لاعلم عندى بذلك وكان
الذى أرسل كافور الخصى مع جماعة من العبيد الخاصة وأمره ألا يروى
أحدا من أهل الدار وان لا يأخذ سوى الكتب وتوعده والذين
معه أشد الوعيد ان نقص أهل البيت ابرة فما فوقها فأخبرت بذلك وانا
فى الديوان فظننته يريد استصفاء أموالى فركبت وما معى عطفى حتى
أتيت منزلى فاذا الخصى كافور الخالجب واقف على الباب والكتب تخرج
اليه فلما رآنى وتبين ذعرى قال لى لا بأس عليك وأخبرنى ان أمير
المؤمنين يسلم على وانه ذكرنى بخير ولم يزل يبسطنى حتى زال ما فى نفسى
ثم قال لى سل أهل بيتك هل راعهم أحد او نقصهم شيئا من متاعهم
فسألتهم فقالوا لم يرعنا أحد ولم ينقصنا شيئا جاء ابو المسك حتى استأذن
علينا ثلاث مرات فاخلينا له الطريق ودخل هو بنفسه الى خزانة
الكتب فأمر باخراجها فلما سمعت هذا القول منهم زال ما كان فى نفسى
من الروع وولوه بعد اخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان
يحدث بها نفسه ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الاندلس والمغرب
ويبحث عن العلماء وخاصة اهل علم النظر الى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع
ملك قبله ممن ملك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء المتفنيين ابو بكر
محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان متحقيقا بجميع أجزاء الفلسفة
قرأ على جماعة من المتحقيقين بعلم الفلسفة منهم ابو بكر بن الصائغ المعروف
عندنا بآبن باجة وغيره ورأيت لآبى بكر هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة
من الطبيعيات والالهيات وغير ذلك فمن رسائله الطبيعيات رسالة سمي
لها رسالة حى بن يقطان غرضه فيها بيان مبدأ النوع الانسانى على
مذهبهم وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ومن تصانيفه

الالهيات رسالة في النفس رأيتها بخطه رحمه الله وكان قد صرف عنايته
في آخر عمره الى العلم الالهى ونبتد ما سواه وكان حريصاً على الجمع
بين الحكمة والشريعة معظماً لامر النبوت ظاهراً وباطناً هذا مع
اتساع في العلوم الاسلامية وبلغنى انه كان يأخذ الجامكية مع عدة
أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة
والاجناد الى غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم
الموسيقا لأنفقته عندهم وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف
به والحب له بلغنى انه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر
وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته أنشدنى ابنه
يحيى بمدينة مراکش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله

ألمت وقد نام المشيع وهو ما	وأسرت الى وادي العقيب من الحما
وجرت على ترب المحصب ذيلها	فما زال ذاك الترب منها مقسما
تناوله أيدي التجار لطيمة	وبحمله الدارى أيان بما
ولما رأت ألا ظلام يجنحها	وأن سراها فيه لن يتكتما
نضبت عذبات الریط عن حروجهما	فأبدت محيا يدهش المتوسما
فكان تجليها حجاب جمالها	كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعد طول تهاجر	وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق	فلم أدر من شق الدجنة منها
وساعدني جفن الغمام على البكا	فلم أدر دمعاً أينما كان أسجما
فخالت وقد رق الحديث وأبصرت	قرائن أحوال أذعن المكتما
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا	يهون صعباً أو يرخص مأثما
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها	ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره في الزهد رحمه الله ما قرأ على ابنه من خطه في التاريخ المذكور

يا باقيا فرقة الاحباب عن شحط
نور تردد في طين الي أجل
ياشد ما افتراقا من بعد ما اعتلقا
ان لم يكن في رضى الله اجتماعهما
هل لا بكيت فراق الروح للبدن
فانحاز علواً وخلي الطين للكفن
أظنها هدة كانت على دخن
فيا له ما صفقة تمت على غبن
وأنشدني بعض أصحابنا من الكتاب له رحمه الله

ما كل من شم نال رائحة
قوم لهم فكرة تجول بهم
وفرقة في القشور قد وهوا
لا غاية نخجلى لناظرهم
لناس في ذا تباين عجب
بين المعاني أولئك النجب
وليس يدرون لب ما طلبوا
منه ولا ينقضى لهم أرب
لا يتعدى امرؤ جباته
قد قسمت في الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب اليه العلماء من جميع الاقطار ويبنه عليهم ويحضره على اكرامهم والتنويه بهم وهو الذي نبهه على بن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم أخبرني تلميذه الفقيه الاستاذ ابو بكر بندود بن يحيى القرطبي قال سمعت الحكيم أبا الوليد يقول غير مرة لما دخلت على أمير المؤمنين انى يعقوب وجدته هو وأبو بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثنى على ويذكر بيتي وسألتني ويضم فضله الى ذلك اشياء لا يبلغها قدرى فكان أول ما فاتحنى به أمير المؤمنين بعد أن سألتني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي ما رأيهم في السماء يعنى الفلاسفة أقديمة هي أم حادثة فادركنى الحياء والخوف فأخذت أتعلم وأنكر اشتغالى بعلم الفلسفة ولم أكن أدرى

ما قرر معه ابن طفيل ففهم أمير المؤمنين في الروع والحياء فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسئلة التي سألتني عنها ويذكر ما قاله ارسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ولم يزل يبسطني حتي تكلمت فعرف ما عندي من ذلك فلما انصرفت امر لي بمال وخلعة سنية ومركب وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال استدعاني ابو بكر بن طفيل يوما فقال لي سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة ارسطوطاليس او عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض اغراضه ويقول لو وقع لهذه الكتب من ياخصها ويقرب اغراضها بعد أن يفهمها فهمها جيداً لقرب مأخذها علي الناس فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل واني لارجو أن تقي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة وما يمنعني من ذلك الا ما تعلمه من كبره سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي الي ما هو أهم عندي منه قال ابو الوليد فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما تلخصته من كتب الحكميم ارسطوطاليس وقد رأيت انا ابو الوليد هذا تلخيص كتب الحكميم في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ترجمه بكتاب الجوامع لخص فيه كتاب الحكميم المعروف بسمع الكيان وكتاب السماء والعالم ورسالة الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ثم لخصها بعد ذلك وشرح اغراضها في كتاب مبسوط في أربعة أجزاء وبالجملة لم يكن في نبي عبد المؤمن في من تقدمهم وتأخر ملك بالحقيقة غير ابني يعقوب هذا (وزراؤه)

وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ثم ارتفع قدره عن

الوزارة اذ رآها دونه ثم وزر له ابو العلاء ادريس بن ابراهيم بن جامع الى أن قبض عليه واستصفي أمواله في شهور سنة ٥٧٧ ووزر له بعده ابنه ابو يوسف ولي عهده الى أن مات سنة ٥٨٠ فكانت ولايته من حين يوبع له الى أن استشهد رحمة الله عليه ببلاد الروم اثنتين وعشرين سنة الا أشهراً

(كتابه) ابو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش كاتب أبيه وابو القاسم المعروف بالقلمي وأبو الفضل جعفر بن احمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية كان يخدم أبا القاسم القلمي الى أن مات فكتب مكانه هؤلاء كتبه الانشاء خاصة وكتاب الجيش ابو الحسين الهوزني الاشيلي وابو عبد الرحمن الطوسي

(حاجبه) كافور مولاه اخلصى كان يدعى كافور بغرة (أولاده) كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً وهم عمرو وعقوب وهو ولي عهده وابو بكر وعبد الله واحمد ويحيى كان يحيى هذا رحمه الله لي صديقاً ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم لم أرى في الملوك ولا في السواق مثله رحمة الله عليه وما استخرت لفظة الصداقة مع ان الواجب لفظ الخدمة الا لما كان رحمه الله يكتب الى أخى وصديقى في بعض الاوقات وولى في بعضها اجتمعت غندى بخطه رقاع كثيرة خلع على فيها فضله وحلاقي بما لم أكن استحقه وموسى وابراهيم وادريس وعبد العزيز وطلحة واسحق ومحمد وعبد الواحد وعثمان وعبد الحق وعبد الرحمن واسماعيل وبنات

(قضائه) ابو محمد الملقب المتقدم المذكور ثم عزله وولى بعده عيسى ابن عمران التازي من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس من قبيلة

يقال لها تسول من البربر يرجعون الى زنانة كان عيسى هذا من فضلاء
أهل المغرب ونهائهم وكان خطيباً مصقفاً وبلغا لساناً وشاعراً مقلداً
مشاركاً في كثير من العلوم ونال في أيام أبي يعقوب حظوة ومكانة كان
يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة وكان مع هذا
ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع اليه مفرط اخبرني ابنه ابو عمران
قاضي الجماعة في وقتنا هذا قال سمعت أبي يقول وقد لاهمه بعض من يلوذ
به في التتوبه بأقوام ليست لهم سوابق ولا اقدار رفعهم من الخسيس
جاهه ونههم بعد الحمول اعتناؤه ليس العجب ممن يأتي الى رجل نبيه
القدر يرفعه انما العجب ممن يحبي الميت وينبه الخامل ويرفع الوضيع
قاما نبيه القدر تنباهته تكفيه وبلغ من افراطه في التعصب ان قال يوما
ليس بحماية أن تحمي صاحبك وهو محق فان الحق أظهر وأقوى من
أن يحمي انما الحماية ان تحميه وهو مبطل في اشياء هذه الاخبار وكان
له أولاد ما منهم الا من ولي القضاء وهم على " وكان على هذا رجل
صالحاً ولي في حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ثم عزل عنها وولي مدينة
تلمسان وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل في دينه وعن لا تأخذه
هواة في الحق ومن أولاده طلحة ولي قضاء تلمسان ويوسف تركته
قاضياً بمدينة فاس بلغتني وفاته وانا بمكة في سنة ٦٢٠ وإبو عمران موسى
قاضي الجماعة في وقتنا هذا وسيأتي ذكره في موضعه ان شاء الله عز وجل
ثم ولي بعد أبي موسى هذا رجل اسمه حجاج بن ابراهيم التجيبي من
أهل مدينة اغمت من أعمال مدينة مراکش كان حجاج هذا رجلاً
صالحاً يعد في الزهاد المتبتلين وكان له تبحر في الفقه ومعرفة بأصوله

وبصر بعلم الحديث هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم في الحق
 افطر في ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ونالوا منه
 عند أبي يعقوب فما زاده ذلك الا حياء وتقربا الى أن مات رحمه الله في
 حياة أبي يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته انه دخل يوما على أمير
 المؤمنين أبي يعقوب وقد بل لحينه ورداه بدموعه فلما مثل بين يديه
 زاد في البكاء فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه فقال يا أمير المؤمنين سألتك
 بالله الا اعفيتني قال عزمت عليك لتخبرني أولا بسبب بكائك قال بينا
 انا قاعد في مجلس الحكم اذ أتيت بشيخ سكران كنت قد حددته مراراً
 فكان من كلامي ان قلت له يا شيخ كيف تحشر ففتح يديه وقال هكذا
 فوالله ما ملكت دمعتي حين عرفت ما عني بقوله انما عرض لي بقول
 النبي صلى الله عليه وسلم ان القاضي يحشر مطوالة يداه الى عنقه فاما
 أن يحمله عدله أو يهوى به جوره هذا معنى الحديث فاسئلك بالله الا
 اعفيتني فوعده بذلك فقال عسى ان يكون في مقامى هذا فقال له لا افعل
 حتى أجد عوضاً منك فخرج من عنده فما لبث الا أياماً يسيرة حتى مات
 رحمه الله عليه ثم ولى بمده القضاء ابو جعفر احمد بن مضاء من أهل
 مدينة قرطبة فلم يزل ابو جعفر هذا قاضياً الى أن مات أمير المؤمنين
 ابو يعقوب وصدرأ من خلافة ابي يوسف المنصور رحمه الله

❦ فصل ❦ ولما استوثق لابي يعقوب هذا الامر لم يزل مقبلاً
 بمراكش الى أن كانت سنة ٥٦٧ فبدأ له أن يعبر الى جزيرة الاندلس
 مظهرأ قصد غزو الروم ومبطناً اتمام تملك الجزيرة والتغلب على ما في
 يد محمد بن سعد المعروف بابن مرذئش منها وكان يملك منها ابن سعد

المذكور من اول اعمال مرسية الى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقها وقد تقدم تلخيص التعريف بملكته اياها ومن اين اتصلت اليه فجمع امير المؤمنين ابو يعقوب جموعا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من اصناف الجند وسار حتى نزل مدينة سبتة فبنى له بها منزل هو باق هناك الى اليوم فأقام بها الى أن تكاملت جموعه ولحق به من كان تأخر عنه من العساكر ثم عبر البحر وقصد مدينة اشبيلية فنزلها ووجه العساكر الى محمد بن سعد وكان أخو ابي يعقوب عثمان بن عبد المؤمن واليا على مدينة اغرناطة فكتب اليه أن يقصد بالعساكر الى مدينة مرسية دار مملكة محمد بن سعد فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريبا منها بموضع يدعي الجلاب وخرج اليه محمد بن سعد في جموع عظيمة أكثرها من الافرنج لان ابن سعد كان مستعينا بهم في حروبه قد أخذهم اجناد آله وأنصاراً وذلك حين احس باختلاف وجوه القواد عليه وتنكرا أكثر الرعية له فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعة بأنواع من القتل بلغنى أن منهم من بني عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً الى غير هذا من ضروب القتل واستدعي النصارى كما ذكرنا فجعلهم اجناداً له وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكونه وأخرج كثير من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم فزحف كما ذكرنا بجيشه ومعظمهم من الافرنج فالتقى هو والموحدون بالموضع المعروف بالجلاب على أربعة أميال من مرسية فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزاما قبيحا وقتل من أعيان الروم جملة ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعداً للحصار فضايقه الموحدون وما زالوا محاصرين له الى أن مات وهو في الحصار حتف أنفه وسترته وفاته الى أن ورد أخوه يوسف بن سعد الملقب

بالرئيس من بالنسبة وكان واليا عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيهم
 ورأى أكابر ولد محمد بن سعد بعد أن اتهموا وأنجكوا وأخذوا في كل
 وجه من وجوه الحيل على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أبي
 يعقوب ويسلموا إليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل إن أبا عبد الله محمد بن سعد
 حين حضرته الوفاة جمع بنيه وكان له من الولد على عامي ثمانية ذكور
 وهم هلال يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده واليه أوصي وغاثم والزبير
 وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي بأسماهم وبنات
 تزوج أحدهن أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوج الأخرى أمير المؤمنين
 أبو يوسف يعقوب بن يوسف فكان فيما أوصاهم به أن قال يا بني اني
 أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر واتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد في
 طاعتهم واني أظن انه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا اليهم الامراختياراً
 منكم تحفظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم
 ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فإله أعلم أي الأمرين
 كان وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من اشيلية قاصداً بلاد الادفنش
 لعنه الله فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وبذ وذلك انه بلغه ان أعيان
 دولة الادفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة فأقام محاصراً له أشهراً
 الى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة يكثر
 عندهم ممن أدركت من شيوخ أهل الامر ان أهل هذه المدينة لما برح
 بهم العطش أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم على أن
 يخرجوا له عن المدينة فإني ذلك عليهم وأطعمه فيهم ما نقل اليه من شدة
 عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سمع لهم في بعض
 الليالي لغط عظيم وجلبة أصوات وذلك انهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع

قسيوهم ورهبانهم يدعون ويؤمن باقبيهم فجاء مطر عظيم كأفواه القرب
 ملا ما كان عندهم من الصهاريج وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين
 فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى أشبيلية بعد أن هادن الادرش
 لعنه الله مدة سبع سنين ولم يزل أمير المؤمنين مقبلاً بالاندلس بقية سنة
 سبع وثمان وتسع إلى أن رجع إلى مراکش في آخر سنة ٥٦٩ وقد
 ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجملتها ولم يخرج عن طاعته شيء منها
 وفي سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلاف وقع هناك بين بعض القبائل
 الذين بدرن قم له ما أراد من اتحاد الفتنة وجمع الكلمة وإطفاء النائرة
 وجسم الخلاف وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة
 مفارقة الجماعة وحسم اليد من الطاعة وكان رأسهم في ذلك الذي إليه
 يرجعون وعميدهم الذي عليه يعولون رجل اسمه سبع بن حيان ووافقهم
 على ذلك أخ له يسمى مرزدغ فدعوا إلى الفتنة واجتمع عليهما خلق
 كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حذر لكثرة
 مسافة بلادها طويلاً وعرضاً نحو من اثني عشرة مرحلة فخرج إليهم
 أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فأسلمتهما مجموعهما وتفرق عنهما من كان
 اجتمع عليهما وأخذ قبض اليد فقتلا صبراً وصلبا ثم رجع أمير المؤمنين
 أبو يعقوب إلى مراکش

وفي أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراکش قاصداً بلاد إفريقية
 فقصده منها مدينة قصصة وكان قد قام بها رجل اسمه علي يعرف بابن
 الرند وتلقب بالناصر لدين النبي فحصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن
 استنزله وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ورجعوا إلى مراکش
 وفي هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالآتاوة بعد أن خافه

بالرئيس من بالنسبة وكان واليا عليها من جهة أخيه محمد فاجتمع رأيه
 ورأي أكابر ولد محمد بن سعد بعد أن اتهموا وأنجكوا وأخذوا في كل
 وجه من وجوه الحيل على أن يلقوا أيديهم في يد أمير المؤمنين أتى
 يعقوب ويسلموا إليه البلاد ففعلوا ذلك وقيل إن أبا عبد الله محمد بن سعد
 حين حضرته الوفاة جمع بنيه وكان له من الولد على عامي ثمانية ذكور
 وهم هلال يكنى أبا القمر وهو أكبر ولده واليه أوصي وغاثم والزبير
 وعزيز ونصير وبدر وأرقم وعسكر وأصاغر لا علم لي باسمهم وبنات
 تزوج أحدهن أمير المؤمنين أبو يعقوب وتزوج الأخرى أمير المؤمنين
 أبو يوسف يعقوب بن يوسف فكان فيما أوصاهم به أن قال يا بني اني
 أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر واتباعهم قد كثر ودخلت البلاد في
 طاعتهم واني أظن انه لا طاقة لكم بمقاومتهم فسلموا اليهم الامر اختياراً
 منكم تحفظوا بذلك عندهم قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم
 ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة ففعلوا ما أمرهم به فإله أعلم أي الأمرين
 كان وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من اشبيلية قاصداً بلاد الادفنش
 لعنه الله فترل على مدينة له عظيمة تسمى وبذ وذلك انه بلغه ان أعيان
 دولة الادفنش ووجوه أجناده في تلك المدينة أقام محاصراً له أشهراً
 الى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد أخبرني جماعة بكثر
 عندهم ممن أدركت من شيوخ أهل الامر ان أهل هذه المدينة لما برح
 بهم العطش أرسلوا الى أمير المؤمنين يطلبون الامان على أنفسهم على أن
 يخرجوا له عن المدينة فإني ذلك عليهم وأطمعه فيهم ما نقل اليه من شدة
 عطشهم وكثرة من يموت منهم فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم في بعض
 الليالي لفظ عظيم وجلبة أصوات وذلك انهم أخرجوا أناجيلهم واجتمع

قسيسوم و رهبانهم يدعون ويؤمن باقيم ف جاء مطر عظيم كما فوا القرب
 ملا ما كان عندهم من الصوامع وشربوا وارتووا وتقروا على المسلمين
 فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً الى اشبيلية بعد أن هادن الادفش
 لعنه الله مدة سبع سنين ولم يزل أمير المؤمنين مقبياً بالاندلس بقية سنة
 سبع وثمان وتسع الي أن رجع الى مراکش في آخر سنة ٥٦٩ وقد
 ملك الجزيرة بأسرها ودانت له بجمليتها ولم يخرج عن طاعته شئ منها
 وفي سنة ٧١ خرج الى سوس لحسم خلاف وقع هناك بين بعض القبائل
 الذين بدرن قم له ما أراد من اخضاع الفتنة وجمع الكلمة واطفاء النار
 وجسم الخلاف وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغمارة
 بمفارقة الجماعة وحسم اليد من الطاعة وكان رأسهم في ذلك الذي اليه
 يرجعون وعيدهم الذي عايه يعولون رجل اسمه سبع بن حيان ووافقهم
 على ذلك أخ له يسمى مرزدغ فدعوا الى الفتنة واجتمع عليهما خلق
 كثير والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عدد ولا يحدها حزر لكثرتها
 مسافة بلادها طويلاً وعرضاً نحو من اثني عشرة مرحلة فخرج اليهم
 أمير المؤمنين أبو يعقوب بنفسه فاسلمتهما جوعهما وتفرق عنهما من كان
 اجتمع عليهما وأخذوا قبض اليد فقتلا صبراً وصلبا ثم رجع أمير المؤمنين
 أبو يعقوب الى مراکش

وفي أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراکش قاصداً بلاد افريقية
 فقصده منها مدينة قفصة وكان قد قام بها رجل اسمه علي يعرف بابن
 الرند وتلقب بالناصر لدين النبي فحصره أبو يعقوب والموحدون الى أن
 استنزله وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ورجعوا الى مراکش
 وفي هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل اليه بالاتاوة بعد أن خافه

خوفاً شديداً فقبل منه ما وجه به اليه وهادنه على أن يحمل اليه في كل سنة مالا اتفقا عليه وبلغني انه اتصلت اليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثاها مما اشتهر منها حجير ياقوت يسمى الحافر جعلوه فيما كللوا به المصحف ١
لا قيمة له على قدر استدارة حافر الفرس هو في المصحف الى اليوم مع أحجار نفيسة وهذا المصحف الذي ذكرناه وقع اليهم من نسخ عثمان رضى الله عنه من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلى النفيس ونياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يحملونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لوا أن أخضران وموضع الاسنة منهما ذهب شبه نقاحتين وخلف الناقة بغل محلى أيضاً عليه مصحف آخر يقال انه بخط ابن تومرت دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة موهة بالذهب هذا كله بين يدي الخليفة منهم ورجع أمير المؤمنين ابو يعقوب الى مراکش من افريقية بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ودانت له جزيرة الاندلس بأسرها كما ذكرنا وكثرت في أيامه الاموال واتسع الخراج وكان كما ذكرنا سخياً جواداً بلغني انه اعطي هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر صاحب شرقي الاندلس اثني عشر ألف دينار في يوم واحد وللال هذا معه أخبار عجيبية من تربيته اياه واحسانه اليه وحبه له أخبرني بعض ولده للال هذا انه سمع أباه يقول رأيت في المنام في بعض الليالي كأن أمير المؤمنين ابو يعقوب ناولني مفتاحاً فلما أصبحت اذا رسوله يستحثني فركبت وأتيت القصر فدخلت عليه وسلمت فاستدناني حتى مست نياي ثيابهم ثم أخرج إلي من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذي رأيت في المنام وقال

خذ اليك هذا المفتاح فتهيأت أن أسأل عن شأن المفتاح فقال لي ابتداء
يا أبا القمر ان عامل مرسية أرسل الينا في جملة ما أرسل صندوقا وجده
زعم في بعض خزائسكم لا يدري ما فيه وهذا مفتاحه ونحن لا ندري
ما فيه فقلت هلا أمر أمير المؤمنين ان يفتح بين يديه فقال لو أردنا أن
يفتح بين أيدينا لم نسلم اليك المفتاح وأمر فحمل الصندوق إلى ففتحته
فاذا فيه حلي وذخائر من ذخائر أبي ماساوي أكثر من أربعين ألف
دينار ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم أمر العلماء أن يجتمعوا
أحاديث في الجهاد تمل على الموحدين ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم
إلى اليوم فجمع العلماء ذلك وجاؤا به إليه فكان يمليه على الناس بنفسه
فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء
فجاء هلال هذا المذكور يوما ولا لوح معه فأخرج القوم الواحهم فقال
له الوزير أين لوحك يا أبا القمر فخرج واقتح يعتذر فأخرج له أمير
المؤمنين من تحت برنسه لوحا وناوله إياه وقال هذا لوحه فلما كان من
الغد جاء ومعه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين فلما نظر إليه قال
له أين لوحك بالأمس يا أبا القمر فقال خبائه وأوصيت اذا امت ان يجعل
بين جلدي وكففي واتبع ذلك بكاء حتى أبكي بعض من كان في المجلس
فقال أمير المؤمنين هذا الحب الصادق وأمر له بنخيل وأموال وخلق ولبنه
بمثل ذلك وكان الذي يسهل عليه بذل الاموال مع ما جبل عليه من
ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التي تحصل منها الاموال كان يرتفع
إليه خراج افريقية وجزائره في كل سنة وقرمئة وخمسين بغلا هذا من
افريقية وحدها خلا بجاية واعمالها وتلمسان واعمالها والمغرب وحدها
المغرب عندهم الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط

تأزا الى مدينة تدعى مكناسة الزيتون طول هذه المسافة وعرضها نحو
من سبعة مراحل وهي اخصب رقعة على الارض فباعلت وأكثرها
أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعا وأعنابا ومدينة سلا وأعمالها
وسبئة وأعمالها وأعمال سبئة هذه في غاية السعة والضخامة لان بلاد غمارة
كلها ترجع اليها وهي كما ذكرنا طولا وعرضا نحو من اثنتي عشرة
مرحلة وجزيرة الاندلس قاطبة أول ذلك آخر بلاد المسلمين مما يتأخم
أرض الروم وآخره أيضاً مما يتأخم أرض الروم من أعمال شلب ومسافة
ذلك طولا وعرضا نحو من أربع وعشرين مرحلة هذا كله لا ينازعه
ايام أحد ولا يمتنع عليه منه درهم مضافا الى مراكش وأعمالها وأعمال
مراكش أيضاً في نهاية من السعة لان بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاد
كثيرة فلم يرتفع ملك من الملوك اعنى ملوك المغرب قبل أبي يعقوب
هذا وبعده ما ارتفع اليه من الاموال وقد بلغني من جهة رجل من
أصحابنا كان يتولى بيوت الاموال قال لي وجدت خرائط كثيرة مما
كان يرتفع الى أمير المؤمنين أبي يعقوب بحتمها قال لي هذا القول في
غرة سنة ٦١١ وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها
من الغز وذلك في آخر سنة ٧٤ وما زالوا يكثرزون عندنا الى آخر
أيام أبي يوسف ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم
كثرة خصب وانتشار امن ودرور أرزاق واتساع معاش لم ير
أهل المغرب أياماً قط مثلها واستمر هذا صدراً من امارة أبي يوسف
ولما كانت سنة ٧٩ تجهز ابو يعقوب للغزو واستفرأهل السهول
والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة
الاندلس فعبّر البحر بعساكره كما ذكرنا وقصد مدينة اشيلية على

عاده اذ هي منزله ومنزل الامراء من بني بالاندلس أيام كونهم بها فاقام بهاريت ما أصلح الناس شؤنهم وأخذوا أهبتهم ثم خرج يقصد مدينة شترين أعادها الله للمسلمين وهذه المدينة أعنى شترين بغرب الاندلس وهي من أمتع المدائن وقد تقدم ذكرها في أخبار الدولة اللمونية يملكها وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ملك من ملوك النصارى يعرف بابن الرقيق لعنه الله فخرج أمير المؤمنين كما ذكرنا في جيوشه حتى نزل عليها فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وافساد زروعها وشن الغارات على نواحيها وكان بن الرقيق لعنه الله حين سمع بحركة ابى يعقوب اليه وصح عنده انه يقصده نظر في أمره فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته فلم يكن له هم الا ان جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوى الغناء من قواده وسائر أتباعه ودخل بهم مدينة شترين وانقا بخصائمه وشدة منقمهم انما بعد ان ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميع ما يحتاج اليه وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدرق والقسى والحزاب الى غير ذلك مما يحتاج اليه فنزل عليها ابو يعقوب فالفأها كما ذكرنا قد استعد أهلها بكل ما يظنونه بأفعا لهم ودافعا عنهم وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الاندلس المشهورة يسمى تاجوا فبالغ أبو يعقوب كما ذكرنا في التضيق عليها واتساف معاشها وقطع المواد والمدد عنها فازاد ذلك أهلها الا صرامة وشدة وجلدا تخاف المسلمون هجوم البرد وكان في آخر فصل الخريف وخافوا ان يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره ويتقطع عنهم المدد فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع الى اشبيلية فاذا كان وجه الزمان عادوا اليها أو بعث من يتسلمها وصوروا له انها في يده لا يمنعه منها مانع فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه وقال نحن راحلون غداً ان شاء الله ولم ينتشر هذا

القول كل الاشارة لانه كان قاله في مجلس الخاصة فكان أول من قوض خبائه واطهر الاخذ في أهبة الرحيل ابو الحسن على بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بالمالقي وقد تقدم ذكر ابيه في قضاة عبد المؤمن وكان ابو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم يدعى خطيب الخلافة وكان له حظ جيد من الفقه ومعرفة الحديث وقسم وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة فلما رآه الناس قوض خبائه قوضوا أخبيتهم ثقة به لمكانه من الدولة ومعرفة بأخبارها فعبر في تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل ولم يبق الا من كان بقرب خبائه أمير المؤمنين وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له بذلك فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه ابو يعقوب والمسلمون من الرحيل ورأوا انقضاء الاجناد وافتراق أكثر الجموع خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتهم في خيل كثيفة فحملوا على من يليهم من الناس فانهزموا أمامهم حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين ابو يعقوب فقتل على باب الخباء من اعيان الجنود خلق كثير أكثرهم من اعيان الاندلس وخلص الى أبي يعقوب فطعن تحت ستره طعنة مات منها بعد أيام يسيرة وتدارك الناس فانهزم الروم راجعين الى بلادهم بعد أن قضوا ما قضوا وعبر بأمر المؤمنين النهر جريماً فجعل في محفة وسير به وسأل أمير المؤمنين من كان السبب في حركة الناس على هذا الوجه المؤدى الى هذا الاختلال فأخبر بما فعله ابو الحسن المالقي فقال يتوعدكم سيجي ثمرتها ان شاء الله فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شتزين فأرأى بنفسه علي ملك الروم ابن الرقيق فأحسن

نزله وأكرم مثواه وأجري عليه رزقا واسعاً ولم يزل عنده مكرماً إلى أن
 بداله من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحدين يستعطفهم ويسأل من
 عرفه من أعيانهم الشفاعة له وأدرج في ضمن ذلك فصلياً كرفيه ضعف
 المدينة وانهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها ويدلهم على بعض
 عوراتها مما كان خفي عنهم وقال الملك الروم ابن الرقيق أنني أحب أن
 أكتب كتاباً إلى عيالي وأولادي وأخبرهم بسلامتي وأعلمهم كرام الملك
 إياي وإحسانه إلى وما أنا فيه من العافية حتى تطمئن نفوسهم وأريد أن
 توجه مع الذي يجعله من يخفره إلى أول بلاد المسلمين فأذن له في ذلك
 وأجابه إليه فكتب الكتاب وكان العلاج الموكل به الذي يقوم عليه ويأتيه
 بكل ما يحتاج إليه يعرف لسان العرب إلا أنه لم يكن يتكلم به ويقرأ الخط
 العربي فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً
 ولم يخطر له أن العلاج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي
 فلمح العلاج الكتاب لمح ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده فغضب
 حتى دخل على الملك وأخبره الخبر وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى
 بعض عبيده فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحو من مرحلة
 أمر بالقبض عليه هناك وأخذ الكتاب منه فلما أتى بالكتاب فتحه وجمع
 المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور
 واستحضر أبو الحسن وقال لترجمانه قل له ما حملك على ما صنعت مع أكرامي
 لك وبري بك فكان من جوابه أن قال إن بركي وأكرامك إياي لا يمنعني
 من النصيح لأهل ديني والدلالة لهم على ما فيه مصلحتهم فشاورة ابن الرقيق
 لعنه الله قسيسيه في أمره فاشاروا عليه باحراقه فأحرقه وأما ما كان من
 أمر أمير المؤمنين أبي يعقوب فانهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا أثقله الجرح

واشتد عليه فما سألوا به الا ليلتين أو ثلاثاً حتى مات رحمه الله فآخبرني من كان معهم في تلك السفرة انه سمع النداء فيما بين العشاءين في العسكر كله الصلاة على الجنائزة جنازة رجل فصلى الناس قاطبة على الجنائزة لا يعرفون على من صلوا ولم يعلم بذلك الا خواص أهل الدولة وساروا به حتى بانوا اشيلية فنزلوها فصبروه وبعثوا به في تابوت مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر الى ينمل فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت وكانت وفاته يوم السبت قبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠ أخبرني ابنه ابو زكريا يحيى رحمه الله عليه انه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت طوى الجديدان ما قد كنت أنثره وأنكرتني ذوات الأعين النجل

﴿ ذكر ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف ﴾

(ابن عبد المؤمن)

هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي كما ذكرنا يكنى أبا يوسف أمه أم ولد رومية اسمها ساحر بويج له في حياة أبيه بامر به بذلك وكانت سنه يوم صار اليه الامر اثنتين وثلاثين سنة فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن توفي في شهر صفر الكاثر في سنة ٥٩٥ ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وتوفي وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب

(صفته) كان صافي السمرة جداً الى الطول ما هو جميل الوجه

واعين افوه اقنى شديد الكحل مستدير اللحية ضخم الاعضاء جهورى
 والصوت جزل الالفاظ اصدق الناس لهجة واحسنهم حديثاوا كثرهم
 اصابة بالظن كان لا يكاد يظن شيئا إلا وقع كما ظن مجريا للامور عارفا
 باصول الشر والخير وفروعهما الى الوزارة ايلم آيه فبحث عن الامور
 بحثا شافيا وطالع احوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع اليه
 الامور مطالعة افادته معرفة جزئيات الامور فديرها بحسب ذلك فحرت
 أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسب ما يقتضيه الزمان والاقام
 (أولاده) كان له من الولد محمد ولي عهده وسيأتي ذكر مولده
 ووفاته و ابراهيم وعبد الله وعبد العزيز وابو بكر وزكريا وإدريس
 وعيسى وموسى وصالح وعثمان ويونس وسعد ومساعد والحسن
 والحسين هؤلاء أولاده الخلفون بعده ومات له في حياته عدة من
 الولد وله بنات فيهن كثرة

(وزراؤه) ابو حفص عمر بن ابي زيد الهنتاني الى أن مات
 ثم وزر له بعده أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص عمر ابنى المتقدم
 المذكور واستمرت وزارة أبي يحيى هذا الى أن استشهد رحمه الله ببلاد
 الروم على ما سيأتي بيانه إن شاء الله فاضطرب أمر الوزارة قليلا ثم وقع
 اختيارهم على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ ابي حفص المتقدم المذكور
 وابو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل هو ابن عم الوزير الشهيد
 المذكور آنفا فوزر ابو عبد الله هذا أياما يسيرة ثم ترك الوزارة مختارا
 وهرب الى بعض نواحي اشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهده فأرسلوا
 اليه من رده وأعفوه من الوزارة ثم وزر له ابو زيد عبد الرحمن ابن
 موسى بن يوجان الهنتاني فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيرا الى أن مات

ابو يوسف وصدر من امارة ابنه ابى عبد الله ثم عزل عن الوزارة
 (حجابه) عنبر الخصى مولاة ثم ربحان الخصى مولاة أيضاً
 الى أن مات وحجب ابنه ابا عبد الله فلم يزل حاجباً له الى أن مات
 ربحان المذكور

(كتابه) ابو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة كان من
 كتاب أيه حسب ما تقدم جمع أبو الفضل هذا الى براعة الكتابة
 سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس لم يزل كاتباً له الى أن توفي
 أعني ابا الفضل فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن
 عياش من أهل برشانة من أعمال الميرية من بلاد الاندلس لم يزل ابو
 عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف تركته حياً حين
 ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ثم اتصلت بي وفاته في شهر سنة ٦١٩
 وأنا يومئذ بالبلاد المصيرية هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما كاتباً الانشا
 خاصة وكتاب الجيش رجل يعرف بالكباشي ذهب عنى اسمه كان يكتب
 الجيش وقد كان يكتب قبله ابو الحسن بن مغن استمرت كتابة الكباشي
 هذا ديوان الجيش الى ان مات امير المؤمنين ابو يوسف ولم يكتب لهم
 منذ قام امرهم اعني من كتبة الانشا من عرف طريقهم وصب في
 في قلوبهم وجرى على ميعهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله بن
 عياش هذا فان القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ثم جرى
 الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم
 لتلك الطريقة

(قضائه) ابو جعفر احمد بن مضاء المتقدم الذكر الى أن مات
 وولى بعده ابو عبد الله محمد بن مروان من أهل مدينة وهران ثم

غزله وولى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد رجلا من ولد بقي بن مخلد
 الفقيه المحدث الذى يروى عن أحمد بن حنبل وقد تقدم ذكر بقي
 هذا وطرف من أخباره فى صدر الدولة الاموية فى أخبار الامير محمد
 ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل
 بالاندلس لم يزل أبو القاسم هذا قاضياً الى أن توفى أمير المؤمنين أبو
 يوسف وشيئا من أيام ابنه محمد

✽ تلخيص التعريف بخير بيعته ✽

ولما مات أبو يعقوب كما ذكرنا على مراحل من مدينة شتريين
 سرت وفاته الى أن بلغوا اشيلية وهم فى كل يوم يصبحون بمشون بين
 يدي الدابة التى عليها المحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ثم يركبون
 والمحفة مسدول عليها ستر أخضر الى أن بلغوا اشيلية كما ذكرنا فخرج
 الاذن من أمير المؤمنين أبى يعقوب زعموا تجديد البيعة لابنه أبى يوسف
 فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الاصناف وكان الذى سعى فى
 بيعته وقام بها ورغب فيها وتولى كبر أمرها ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن
 ابن عمر بن عبد المؤمن فتم له الامر وبايعه الناس يحسبون ذلك باذن
 أبيه فلما فرغ مما أراد من ذلك ونهيا له أعلن وفاة أبيه عند خواص
 الدولة ولم تجر عاداتهم باعلان موت خلفائهم عند العامة الى هلم وكان له
 من أخوته وعمومه منافسون لا يرونه أهلا للامارة لما كانوا يعرفون
 من سوء صباه فلقى منهم شدة على ماسياى بيانه وكانت هذه البيعة العامة
 كما ذكرنا فى سنة ٥٨٠ ولما استوثق أمره على ما تقدم عبر البحر
 بعساكره وسار حتى نزل مدينة سلا وبها تمت بيعته واستجاب له من
 كان تلکاً عليه من أعمامه من ولد عبد المؤمن بعد ما ملأ أيديهم أموالا

واقطعهم الاقطاع الواسعة ثم شرع في ببناء المدينة العظمى التي على
 ساحل البحر والنهر من العدو التي تلى مراكش وكان أبو يعقوب
 رحمه الله هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنائها فعاقد الموت
 المحتوم عن إتمامها فشرع أبو يوسف كما ذكرنا في بنائها الى أن أم
 سورها وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم
 في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مأذنة في نهاية العلو على هيئة منار
 الاسكندرية يصعد فيه بغير درج تصعد الدواب بالطين والاجر والجص
 وجميع ما يحتاج اليه الى أعلاها ولم يتم هذا المسجد الى اليوم لان العمل
 ارتفع عنه بموت أبي يوسف ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً وأما
 المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكلت أسوارها وأبوابها وعمر كثير
 منها وهي مدينة كبيرة جداً منها نجي في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة
 العرض ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من
 أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها
 وفي مسجد المذكور طويلاً مدة ولايته الى سنة ٥٩٤ وسار هو
 حتى نزل مراكش

وفي هذه السنة أعني سنة ٨٠ خرج الميرقيون بنو ابن غانية من
 جزيرة ميرة قاصدين مدينة بجاية فلكوها وأخرجوا من بها من الموحدين
 وذلك لست خلون من شعبان من السنة المذكورة وهذا أول اختلال
 وقع في دولة المصامدة لم يزل أثره باقياً الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١
 وتلخيص خبر هؤلاء القوم أعني بني بن غانية إن أمير المسلمين علي بن
 يوسف بن تاشفين وجه إلى الاندلس برجلين إسم أحدهما يحيى والاخر
 محمد ابني علي من قبيلة مسوفة يعرفان بابني غانية وهي أهمها فاما يحيى

منهما وهو الأكبر فكان حسنة من حسنات الدهر اجتمع له من المناقب
 ما افرق في كثير من الناس فمنها انه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله
 عز وجل والتعظيم له والاحترام للصالحين هذا مع علو قدم في الفقه
 واتساع رواية للحديث وكان مع هذا شجاعاً فارساً اذا ركب عدو حده
 يخمساه فارس وكان على بن يوسف يعده للعظام ويستدفع به المهمات
 وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الاندلس ودفع به عن المسلمين
 غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم كان أمير المسلمين ولاء مدينة بلنسية
 ثم عزله عنها ولاء قرطبة فلم يزل بها والياً الى أن مات رحمة الله عليه
 أول الفتنة الكائنة على المرابطين لا أعلم له عقباً وكان أخوه محمد والياً
 من قبله على بعض أعمال قرطبة فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقى
 يحول في بلاد الاندلس والفتنة تزايد ودعوة المصامدة تنتشر فلما اشتد
 خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فغير منها الى جزيرة مبرقة في حشمه
 وأهل بيته فلكها والجزيرتين اللتين حولها منزقة ويابسة ويقال ان أمير
 المسلمين على بن يوسف نفاه اليها على طريق السجن بها فآله أعلم
 وهذه الجزيرة أعنى مبرقة أخصب الجزر أرضاً وأعدلها هواءً وأصفها
 جواً طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً اتفق أهلها على أنهم لم يروا
 فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت من ذئب أو سبع أو حية
 أو عقرب الى غير ذلك مما يخشى ضرره ويجاورها بالقرب منها جزيرتان
 قربان منها في الخصب تسمى احدهما منزقة والاخرى يابسة وقد تقدم
 ذكرهما فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر وضبطها لنفسه وأقام فيها
 جارياً على أمر لمتونة الاول يدعو لبني العباس وكان له من الولد عبد
 الله وإسحاق والزبير وطاححة وبنات فعهد في حياته الى أكبر ولده

عبد الله فنفس ذلك عليه اخوه اسحاق ودخل عليه في جماعة من الجند وعبيد له فقتله قيل في حياة أبيه وقيل بعد وفاته وتوفي عبد الله المذكور واستقل ابو ابراهيم بالملك استقلالاً حسناً وحسنت حاله وكثر الداخلون عليه بجزيرة مبرقة من قلمنة وبقاياهم فكان يحسن اليهم ويصلهم حسب طاقته وأقبل على الغزو وصرف عنايته اليه فلم يكن له هم غيره فكان له في كل سنة سفرتان الى بلاد الروم يغم ويسبي وينكي في العدو أشد نكابة الى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً فقوى بذلك أمره واتشبه بالملوك ولم يزل هذه حاله ان أن توفي في سنة ٧٩ في أولها وفي آخر أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان يرسل الموحدين ويهلبهم ويهادنهم ويختصم من كل ما يسي ويغم بنفسه وجيده يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم اليها فلما كان في شهر سنة ٥٧٨ والوا اليه الكتب يدعونه الى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه على ترك ذلك فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه فاختلفوا عليه فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وخاض له على الدخول فيما دعوه اليه فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر الى أن ينظر وخرج الى بلاد الروم غازياً فاستشهد رحمه الله هناك وقيل انه طعن طعنة في حلقه لم يمت منها مكانه وانما جيء به حيا حتى أدخل قصره فمات فيه فالله أعلم وكان له من الولد علي وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده ويحيى وأبو بكر وسير وتاشفين ومحمد والمنصور وابراهيم توفي ابراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل ولما توفي أبو ابراهيم اسحق بن محمد المذكور قام بالأمر من بعده ابنه علي بعهد أبيه اليه وخرج بأسطول مبرقة الى العدو وقصد مدينة

بجاية حين واسله جماعة من أعيانها على ما يقال يدعونه الى أن يهلكوه
ولولا ذلك لم يحسر على الخروج ومما جراه أيضا كون الموحدين
بالاندلس وسماعه خبر موت أبي يعقوب واشتغالهم ببيعة أبي يوسف
وظن ان الامر سيضطرب وان الاخلاق سينشأ فكان هذا أيضا مما
أعانه على الخروج ولولا هذه الاسباب التي ذكرنا لم يحسر على الخروج فقصده
ساحل بجاية فزل به فقاتله أهلها قتالا غير كثير ثم دخلها وكان دخوله
اياها كما ذكرنا يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة
وكان فيها اذ دخلها أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن لم يكن واليا عليها
وانما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن
وكان أبو موسى مارا بها حين رجع من افريقية وكان واليا عليها هو
وأخوه الحسن من قبل أخيهما أبي يعقوب فظهر من العرب افساد
ببعض نواحي افريقية فخرج أبو موسى هذا وأخوه أبو على بجيش من
المصامدة ومن انضاف اليهم من العرب وسائر الجند فالتقوا هم وأولئك
العرب المفسدون فانهزم جند افريقية عنهما وأخذتها العرب أسيرين
فاقاموا عندهم وانتهى الخبر الى أبي يعقوب فأرسل الى أولئك العرب
فطلبوا مالا اشتطوا فيه غاية الاشتطاط ثم ان الامر تقرر بينهم وبين
الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال فلما أخبر بذلك أبو يعقوب
استكثر المال وقال هذه أيضا مضرة أخرى ان أعطيناهم مثل هذا
المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا
لهم دنابر من الصفر موهة ففعلوا ذلك وأرسلوا بها اليهم فأطلقوا أبا على
وأبا موسى ومن كان معهم من خدمهما وحاشيتهما فهذا ما أوجب
كون أبي موسى ببجاية فخرج من أسر العرب الى أسر الميرقيين

فدخل على بن اسحق كما ذكرنا بحجاية في اليوم المؤرخ وأقام بها سبعة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعالي بنى العباس ثم للامام أبي العباس أحمد الناصر منهم وكان خطيبه الفقيه الامام المحدث المتقن ابو محمد عبدالحق ابن عبد الرحمن الازدي الاشيلي مؤلف كتاب الاحكام وغيره من التأليف فأحق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين ورام سفك دمه فعصمه الله منه وتوفاه حنف أنفه وفوق فراشه وخرج على بن اسحق من بحجاية بعد أن أسس أموره فيها وصار حتى نزل على قلعة بنى حماد فملكها وملك جميع تلك النواحي فانتهى ذلك الى أمير المؤمنين يعقوب فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بحجاية فلما سمع علي بقدمه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بحجاية فلتقاه أهلها فلقبهم منشراح الصدر ظاهر البشر وقال لهم من القول ما بسطبه نفوسهم ورد اليهم نافر أنسهم وقد كانوا يظنون غير ذلك فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا واستعمل على بحجاية من أعيان الموحدين رجلا اسمه محمد بن أبي سعيد الجنفيسي ثم سار حتى نزل مدينة تونس فجهز جيشا عظيما أمر عليهم رجلا من ولد عمر بن إبيد المؤمنين اسمه يعقوب وذلك لما كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب بموضع يعرف بوطا عمره فصار يعقوب هذا بالجيش المذكور وأقام هو في تونس فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر وذلك ان الموحدين التقواهم وأصحاب علي بن غانية فانهزم الموحدون انهزاما قبيحا واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه وهلك أكثرهم عطشا ورجع بقيتهم الى تونس حيث أمير المؤمنين فلم تشعهم وجبر ماوهي من أحوالهم وخرج هو

بنفسه حتى لقي على بن غانية بموضع يعرف بالحامة حامة دقيوس فما
 وقف أصحاب على الا يسيرا حتى انكشفوا عنه وأبلى هو عذرا فأنخن
 جراحا وخرج فارا بنفسه فمات في خيمة لعجون الهرايبية وكان حين
 خرج من ميرة خرج معه من اخوته عبد الله ويحيى وأبو بكر وسير
 فبقي هؤلاء المذكورين بعد موت أخهم على من كان معهم من أصحابهم
 ثم رأوا أن يقدموا عليهم يحيى لما رأوا من شهرته وشجاعة نفسه
 فقدموه ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك الى
 أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه وفي هذه السفرة انتقضت عليهم
 أيضا مدينة قفصة ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين فزل
 عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ثم دخلها عنوة
 فقتل أهلها قتلا ذريعا بلغني انه قتل أكثرهم ذبحا وأمر بأسوارها
 فهدت وفي ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتاب اسمه ابراهيم
 يعرف عندنا بالزويلي في قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا
 يوسف ويذكر شأن قفصة ورميهم اياها بحجارة المنجنيق

سائل بقفصة هل كان الشقي لها بعلا وكانت له حمالة الحطب

تبنت يدا كافر بالله أهلها فكان كالكافر الاشقي أبي لب

وفيا يقول

لما زنت وهي تحت الامر محصنة حصبتموها اتباع الشرع بالحصب

أنشدني رجا الله هذه القصيدة بلفظه من أولها الى آخرها فلما

انتهى الى هذا البيت لما زنت غلبني الضحك لما سبق الى خاطري

من سوء معناه فسترت وجهي وقال لي مالك فلم أملك ان قهقهت فتغير

لي فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق الى خاطري فسبنى وقال لي أنت

والله شيطان سيئ القريحة غالب على طباعك اللهو واستمر في انشاده حتى أتم القصيدة وأبو اسحق الزويلي هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء جمعتي وإياه مجالس عند السيد الاجل أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيت منه العجب ولما فرغ أبو يوسف من أمر افريقية كر راجعا الى المغرب ولم يزل يحيى بن غانية قائما بما كان يقوم به أخوه من تدبير الامور ورجع منهم عبد الله خاصة الى جزيرة ميرة فالفاهها قد انتقضت عليهم ودعى فيها للموحدين فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن اسحق فلما قدم عبد الله قام معه عاج من علوج أبيه يسمى نجاحا كان نجاح هذا لم ينقض عهدا ولا نزع يدا من طاعة وكان متحصنا في قلعة ومعه جماعة على رايه من الموالي والجند فلما قدم عبد الله كما ذكرنا تلقوه وانضاف اليهم خلق من بوادي الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم فهد بهم عبد الله الى المدينة فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها بمتنع ففتحوا له الابواب ودخلها بمن معه وأخرج أخاه محمدا ونفاه الى الاندلس فحفظ محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة وولوه مدينة دانية فلم يزل واليا عليها حتى مات واستقر عبد الله بميرة فضببط أمرها وجري في الغزو واخافة العدو على سنن أبيه فلم يزل كذلك الى أن دخلها عليه الموحدون في سنة ٥٩٩ علي ماسياني بيانه ان شاء الله ولم يزل أمر يحيى بافريقية ينتبه نارة ويحمل أخرى وله أخبار يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائبا في هذا الوجه الذي ذكرنا طمع في الامر أخوه أبو حفص عمر المتلقب بالرشيد وعمره سليمان بن عبد المؤمن وكان أحدهما بشرقي الاندلس بمدينة مرسية

والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة فأما أبو الربيع سليمان فسولت له نفسه وزين له سوء رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعونه وصرح بذلك ودعا أشياخهم فالتقى اليهم ما أراد فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعث عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الاشئعة القبيحة وبلغ الخبر أمير المؤمنين وأما عمر فكان قد بدأ من ذلك بتقص أمير المؤمنين أبي يوسف على رؤس الاشهاد تعريضا مرة وتصريحا تارة والقاء ذلك الى خواصه ليلقوه الى وجوه الاندلس وانتهى ان قتل قاضي مرسية وخطبها المعروف بابن أبي حمزة قبل انه وكزه برئاس السيف في صدره وكزه ماتك منها بعد أيام فاستحضت هذه الاخبار أمير المؤمنين وأزعجته فعمل من بحاجة الى فاس سبع عشرة مرحلة وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير مثله فلما سمع بقدومه ابو الربيع سليمان وعمر المذكور ان خرجا يلتقيانه فعبر عمر البحر وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقاءه أيضا فأما عمر فلقبه بالقرب من مدينة مكناسة فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه فلما قرب منه لم تدر بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده وحمل بعد التقييد الى مدينة سلا ولقيه سليمان عمه ففعل به مثل ذلك وسار حتى نزل مدينه سلا وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما وأثقلهما بالحديد وسار حتى باغ مرا كش فكتب الى القيم عليهما بقتلها وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما فقتلها صبرا ودفنهما وكتب يعلمه بذلك فبلغني انه قال له بنيت قبريهما بالكندان والرخام وجعل يذكر حسنهما فكتب اليه مالنا ولدفن الجبارة انما هما رجلان من المسلمين فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأشربت قلوبهم خوفه بعد أن كانوا

مهاونين بأمره محتقرين له لاشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك وكان قتله هذين الرجلين في سنة ٥٨٣ وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت وقامت لهم سوق وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد كدونة سخون وكتاب ابن يونس ونوادير ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جالس هذه الكتب ونحوها لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار وتقدم الى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة الصحيحة والترمذي والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن البزار ومسند ابن أبي شيبة وسنن الدارقطني وسنن البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه الى ذلك وجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يملئه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنن من الكسا والاموال وكان قصده في الجملة نحو مذهب مالك وأزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث

وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده الا انهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا يشهد لذلك عندي ما أخبرني غير واحد ممن لقي الحافظ أبابكر بن الجرد أنه أخبرهم قال لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله أرأيت يا أبا بكر المسئلة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا في أي هذه الأقوال هو الحق وأيها يجب ان يأخذ به المقند فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي يا أبا بكر ليس الا هذا وأشار الى المصحف أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف فظهر في أيام يعقوب هذا مخفي في أيام أبيه وجده ونال عنده طلبة العلم أعنى علم الحديث ما لم ينالوا في أيام أبيه وجده وانتهى أمره معهم الى ان قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعونهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على اوضاعهم منه وتقريبه اياهم وخلوته بهم دونهم يامعشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع الى قيادته وهؤلاء يعني الطلبة لا قبيل لهم الا انا فهمنا نابهم أمر فانا ملجأهم والى فزعهم والى ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وباتع الموحدون في برهم واكرامهم

ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطرو بن الرقيق لعنه الله مدينة شلب من جزيرة الاندلس فنزل عليها بعساكره وأعاناه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان وقد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلاد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها وسبوا أهلها وملك ابن الرقيق لعنه الله البلد

وتجهز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر ولم يكن له هم الامدينة شلب المذكورة فنزل عليها فلم تطلق الروم دفاعه وخرجوا عنها وعن ما كانوا قد ملكوه من أعمالها ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنا من حصونهم عظيما يقال له طرش ورجع الى مرا كش وبعد رجوعه مرض مرضا شديدا خيف عليه منه وكان قد ولي أخاه أبا يحيى الاندلس فجعل يتلكأ في خروجه وبطيء تربيصاً به وطمعاً في وفاته وكلما أفاق هو سأل هل عبر أبو يحيى أم لا فلما بلغ أبا يحيى استحثائه إياه أسرع الى العبور وهو لا يشك ان أول ما يرد عليه خبر وفاته فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم الى نفسه وقال ما تركت أمير المؤمنين الا هامة اليوم أوغد وأبس لها غيرى فجعل أشياخ الجزيرة يميل بعضهم على بعض وأهل بلد على أهل بلد حتى بلغ مرسية وكتبوا بذلك مساطير خوفا على أنفسهم وأفاق أمير المؤمنين من مرضه وأشار عليه الاطباء بالسفر فخرج قاصدا مدينة فاس يحمل في محفة على بغلين وبلغه أمر أبي يحيى المذكور وجاءته كتب أهل الاندلس والمساطير التي كتبوها ولما سمع أبو يحيى بحركته جاء معتذراً اليه حتى عبر البحر فلقبه بمدينة سلا فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده هذا الشقي قد جاء وأمر به فقيد ووجه الى أشياخ الاندلس فحضروا وأدوا شهادتهم وأمر به فأحضر وقال انما أفتلك بقوله صلى الله عليه وسلم اذا بويح خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما وأمر به فضربت عنقه تولى قتله أخوه لابييه عبد الرحمن بن يوسف وذلك بمحضر من الناس وأمر به فكفن ودفن وأقبل على القرابة فقال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذا شديداً وأمر باخراجهم على أسوأ حال حفاة عمارة الرأس فخرجوا وكل واحد منهم لا يشك انه مقتول ولم يزل أمر

القراية من يومئذ في خول وهلم وقد كانوا قبل ذلك لافرق بين أحدهم
 وبين الخليفة سواء نفوذ العلامة فكان جملة من قتل يعقوب أخويه وعمه
 ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من
 العهد فخرجت خيل الادفنش تدوس البلاد وتجووس خلالها الى ان
 كثر عيها بالاندلس وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور فعبّر البحر
 في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بمجموع عظيمة ونزل مدينة اشبيلية
 فلم يبق بها الا سيرا ريث ما عترض الجند وقسم الاموال وخرج يقصد
 بلاد الروم وسمع الادفنش لعنه الله بقصده فتجهز هو أيضاً في جموع
 ضخمة والتفوا بموضع يعرف بفحص الجديد وكان الادفنش قد جمع
 جموعاً لم يجتمع له مثلاً قط فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين
 وساءت ظنونهم لما رأوا من كثرة عدوهم وأمر المؤمنين في ذلك كله
 لامستند له الا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين
 فلما كان يوم الاربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة
 التقى المسلمون وعدوهم فأنزل الله على الموحدين نصره وأفرغ عليهم
 صبره ومنحهم اكتاف الروم وكانت الدائرة على الادفنش لعنه الله
 وأصحابه ولم ينج الا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده واستشهد
 من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم منهم الوزير أبو يحيى
 أبو بكر بن عبد الله بن الشيخ أبي حفص المتقدم الذكر في وزراء
 أبي يوسف وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح وقد انجلى
 عنها أهلها فدخلها وأمر بكنيستها فقبرت مسجداً فصلي فيها المسلمون
 واستولى على ماحول طليطلة من الحصون ثم رجع الى مدينة اشبيلية
 منصوراً مفتوحاً عليه وكانت هذه الهزيمة أخيراً لهزيمة الزلاقة المتقدم

ذكرها في مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين
وأقام أمير المؤمنين باشبيلية بقية سنة ٥٩١ وقصد بلاد الروم
في السنة الثانية فنزل على مدينة طليطلة بعساكره فقطع أشجارها
وانتسف معاشها وغور مياهها وأنكى في الروم أشد نكابة ثم عاد في
السنة الثالثة أيضاً وتوغل بلاد الروم ووصل الى مواضع لم يصل اليها
ملك من ملوك المسلمين قط ورجع الى مدينة اشبيلية فارسل الادقش
اليه لعنه الله يسئله المهادنة فهادنه الي عشرين فعب البحر بعد أن أصلح
الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مراکش وذلك في
سنة ٥٩٤ فبغى عن غير واحد انه صرح للموحدين بالراحة الى المشرق
وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ويقول نحن
ان شاء الله مطهروها ولم يزل هذا عزمه الى أن مات رحمه الله في
صدر سنة ٥٩٥ كما ذكر ودفن يتنملل مع آبائه وكان في جميع
أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحريراً له بحسب طاقته وما يقتضيه اقليمه
والامة التي هو فيها كان في أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء
الاول فمن ذلك انه كان يتولى الامامة بنفسه في الصلوات الخمس لم يزل
على ذلك مستمراً أشهر الى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر ابطاء كاد
وقتها يفوت وقعد الناس ينتظرونه فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لوما
وتأنيباً وقال ما أرى صلاتكم الا لنا والافا منعكم عن أن تقدموا
رجلا منكم فيصلي بكم أليس قد قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب أما
لكم بهم أسوة وهم الائمة المتبعون والهداة المهتدون فكان ذلك سبباً
لقطعه الامامة وكان يقعد للناس عامة لا يحجب عنه أحد من صغير ولا

كبير حتى اختصم اليه رجلان في نصف درهم فقضى بينهما وأمر
الوزير أبي يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما
وقال لهما أما كان في البلد بحكام قد نصبوا لمثل هذا فكان هذا أيضاً
مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره
ولما ولي أبا القاسم بن بقی المتقدم الذكر كان فيما اشترط عليه أن يكون
تقوده بحيث يسمع حكمه في جميع القضايا فكان يقعد في موضع بينه
وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء
الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم
وحكامهم وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم
وقضاتهم وولاتهم فإذا أنشوا خيراً قال اعلموا انكم مسؤولون عن
هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم لاحقاً وربما تلا في
بعض المجالس (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو
على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة
٩٢ وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل الله فيها
الادفئش وجوعه وأعز الإسلام وأنصاره كتب قبل خروجه إلى
جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه
فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه فإذا نظر
إليهم قال لمن عنده هؤلاء الجند لاهؤلاء ويشير إلى العسكر فكان في
ذلك شياً بما حكى عن قتبية بن مسلم وإلى خراسان حين لقي الترك
وكان في جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع فجعل يكثر السؤال عنه
فاخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه إلى
السماء ينضض بها فقال قتبية لأصبعه تلك أحب إلى من عشرة آلاف

سيف ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة فقبل منهم من رأى القبول وردد من رأى الرد فتساوى عنده رضى الله عنه الفريقان وقال لكل مذهب ولم يزد هؤلاء ردهم ولا نقص أولئك قبولهم وكان كثير الصدقة بلغنى أنه تصدق قبل خروجه الى هذه الغزوة أعنى التي كانت فيها الوقعة الكبرى بأربعين ألف دينار خرج منها للعامة نحو من نصفها والباقي فى القرابة أدركتهم وقد قسموا مدينة مرا كش أرباعا وجعلوا فى كل ربع أمناء معهم أموال يخرجون بها المسائير وأرباب البيوتات وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الايتام المنقطعون فيجمعون الى موضع قريب من قصره فيختنون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وتوب ورغيف ورمانة وربما زاد على المثقال درهمين جديدين هذا كله شهادته لا أنقله عن أحد من الناس وبني بمدينة مرا كش بيارستان مأطن ان فى الدنيا مثله وذلك انه تخير ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الاشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك فى وسطه احداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحريير والاديم وغيره بما يزد على الوصف ويأتى فوق النعت وأجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الادوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الاشربة والادهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للتوم من جهاز الصيف والشتاء فاذا نقه المريض فان

كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريث ما يستقل وإن كان غنيا دفع إليه ماله وتركته وسببه ولم يقصره علي الفقراء دون الاغنياء بل كل من مرض بمرا كش من غريب حمل اليه وغولج الي أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاة يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم الي غير ذلك من السؤال ثم يخرج لم يزل مستمرا على هذا الي أن مات رحمه الله وفي أول ولايته إما سنة ٨٣ أو ٨٢ ورد علينا البلاد الغز من مصر كان فيمن ورد علينا مملوك يسمى قراقش ذروا انه كان مملوكا لنتي الدين بن أخي الملك الناصر وزجل يسمى شعبان ذكروا انه من أمراء الغز ومن أجناد المصريين رجل يعرف بالقاضي عماد الدين في آخرين فاحسن نزلهم وبالع في تكرمهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك ان الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات في كل سنة في كل أربعة أشهر مرة وجامكية الغز مستمرة في كل شهر لانتحتل وقال الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشئ لهم في البلاد يرجعون اليه سوى هذه الجامكية والموحدين لهم الاقطاع والاموال المتأصلة هذا مع انه أقطع أعيانهم اقطعا كاقطاع الموحدين أو أوسع أقطع رجلا منهم فيما أعرف من أهل اربل يعرف باحمد الحاجب مواضع ليس لاحد من قرابته مثلها وأقطع شعبان المذكور بالاندلس قرى كثيرة تغل في كل سنة نحو من تسعة آلاف دينار هذا خارجا عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لاحد من الاجناد غيرهم مثلها ولم يرد المغرب من هذه الطائفة أعني الغز أطف حسا ولا أذكي نفسا ولا أحسن محاضرة ولا أطيب عشرة من شعبان هذا

المذكور ما لقيه الاستنشدني أو أنشدني أنشدته يوما لشاعر من أصحابنا
من أهل اشبيلية

وقائل فيهم لم تهجع فقلت له كيف الهجوع لطرف نافر الوسن
لم تدران الكري المعنوع عن بصرى هي السنوات التي في مقلتي حسن
فضحك وقال لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ورفرف فما طار وأراد
غاية فوق دونها والله من أنار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ
وأيسر كلفة حيث يقول

أعيدوا صاحبي فهو عند الكواعب وردوا رقادى فهو لحظ الحباب
قلت هو أبو الطيب قال لي نعم هو الطيب أبو الطيب وأنشدته يوما
وأود جري ذكر التنجيس اللفظي فأنشد هو منه وأكثر

إذا صال ذو ود بود صديقه فيا أيها الخل المصاحب لي صل بي
فاني مثل المساء لنا لصاحبي وناهيك للإعداء من رجل صلب
فاستحسنهما وكتبهما عنده وقال لي رحمه الله لك على بهذين البيتين حق
فما وافقني شيء من الشعر في هذا المعنى ولا في غيره ولا وقع منى موقعهما
وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد وكان يقرض شيئا من الشعر
وربما ندرت له الابيات الجيدة سألته ان يكتب لي شيئا من شعره أو
ينشدني فأنى على كل الاباء وحلف لا يفعل وخرج أمير المؤمنين أبو
يوسف الى تينملل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون ففعدوا تحت
شجرة خروب مقابلة للمسجد وقد كان ابن تومرت قال لاصحابه فيما
قال لهم ووعدهم به ليبصرون منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر
مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة
تحتها كان ذلك اليوم في تينملل يوما عظيما اتصل التكبير من كل جهة

وجاء النساء يولولن ويضررن بالدفوف ويقلن مامعناه بلسانهم صدق مولانا المهدي نشهد أنه الامام حقا فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفافا لعقولهن لانه لا يرى شيئا من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت قاله أعلم أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بمحجر الكعبة قال قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف يا أبا العباس اشهد لي بين يدي الله عز وجل اني لا أقول بالعصمة يعني عصمة ابن تومرت قال وقال لي يوما وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر الى وجود الامام يا أبا العباس أين الامام أين الامام واخبرني شيخ عن لقيته من أهل مدينة جيان من جزيرة الاندلس يسمى أبا بكر بن هاني مشهور البيت هناك لقيته وقد علت سنه فرويت عنه قال لي لما رجعت أمير المؤمنين من غزوة الاركوهي التي أوقع فيها بالادفنس وأصحابه خراجنا لتقاء فقدمني أهل البلد لتكليمه فرفعت اليه فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضائه وولاته وعماله على ما جزت عادته فلما فرغت من جوابه سألني كيف حالي في نفسي فتشكرت له ودعوت بطول بقاءه ثم قال لي ما قرأت من العلم قلت قرأت تواليف الامام أعني ابن تومرت فنظر الى نظرة المغضب وقال ما هكذا يقول الطالب انما حكمك ان تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئا من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت في اضراب بهذه الحكايات لو أوردناها لاطال بها هذا التلخيص وكان عند رجوعه من السفارة التي استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم على ما تقدم أمر ان يبنى له على النهر الاعظم نهر اشبيلية حصن وان تبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب جاريا في ذلك على عادته من حب البناء

وايثار التشييد فانه كان مهتماً بالبناء وفي طول أيامه لم يخل من قصر
يستجده أو مدينة يمرها زاد في مدينة مرا كش في أيامه زيادة
كثيرة يطول تفصيلها فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد
وفوقه وسمي ذلك الحصن حصن الفرج ولما رجع من غزوة العظمي
المتقدم ذكرها في سنة ٥٦١ جالس للوفود في قبة من تلك القباب
مشرفة على النهر الاعظم وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم وأنشده
الشعراء فمن أنشده في ذلك اليوم صديق لى من أهل مرسية اسمه
على بن حزمون أنشده قصيدة في عروض يسمى الخب كان يقترحه
على الشعراء فوقت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع
استحسان أولها

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومآثمهم	ان الاسلام لى عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الارض من الدنس
وملاّت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم ففسدوا	فرساً في قبضة مفترس
جاءوك تضيق الارض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
خرجوا بطراً ورثاء لنا	س ليختلسوا مع مختلس
ومضيت لامر الله على	ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم	المرفض مع الحذب الضرس

سقيت بجميعهم أكم
فأولئك حزب الكفر ألا
أذوى الصليان وراءكم
ولو أن البحر ساء لها
ولو أن الصم تراجعها
ملاً التوحيد أعنتها
نهضت فحضت فقضت أملاً
جاست جنبات الكفر فلم
لم يبق بهاموى رجل
لحقوا بقرون النمل فلا
إن كان نجماً أدفنهم
نظر الملك الأعلى فرأى
كالصبح توشح رونقه
فمضى لم يلو على أحد
لصليل الهند بمفرقه
سهر الموتور وأرقه
وبكاء عقائل هانفة
برزت وكان ذوائبها
ترنوا كظباء الرمل على
قد كن منها أنس فغدت
إن الأيام قد ازدهرت
وتناسقت الآمال لنا

وطئوا منهم - ن على دهم
إن الكفار لفي نكس
خيل الملك الخبر النديس
جرعاً وطئته على يديس
أضحت كحل المقل النعس
وأغار بها روح القدس
أنسى عبث الدنيا فنتسى
ترك لهم مالم تجبس
ألا وعليه شذى فرس
سقى لطلولهم الدرس
فألى عيش نكد تعس
ملكاً ما بين قنا وقى
كالطور بنور الله كسى
ورمى بالدرع وبالترس
لا يسمع صلصلة الجرس
تذكر المنصل والمرس
كالورق يخن مع الغلس
أذئاب رواءحة شمس
وجل لضراغمة شرس
تحت الرايات بلا أنس
كالروض بروق لمغترس
كالنفر تنظم في لعس

وتألاً نور الحق على الأثر المهدي فاقبس
 أجزيرة أندلس اعصمى بامام الأمة واحتسى
 وعاك حراسته ملك جبريل له أحد الحرس
 حكمت أسياfk سيدنا في كل مصر الكفر مى
 ومضت في الروم مضاربها وكذلك تفعل في الفرس
 لا يخاف ربك موعده دوخ أقطارهم ودس

أوردتها على تواليا وان كان فيها طول لغرابة عروضها وجودة
 أكثر أبياتها أنشدنها منشئها المذكور من لفظه ثم أعدتها عليه
 بلفظي آخر مرة لقيته بمدينة مرسية في سنة ٦١٤ وأعلى بن حزمون
 هذا قدم في الآداب واتساع في أنواع الشعر ركب طريقة أبي عبد الله
 ابن حجاج البغدادي سأل الله وغفر له فإربي فيها عليه وذلك انه لم
 يدع موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد الا عمل في عروضها
 ورويا موشحة على الطريقة المذكورة وله مع هذا في الهجاء يد
 لا تطاول غير انه يفحش في كثير منه فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك
 وأسلمه من الفحش والاقذاع أبيات ركب فيها طريقة الخطيئة ابتداء
 بهجو نفسه ثم استطرد بهجو رجلا من أعيان قواد الاندلس يقال له

محمد بن عيسى مشهور النجدة عندهم والابيات

تأملت في المرأة وجهي نخلته كوجه عجوز قد أشارت الى اللهو
 كان على الاضرار منى عورة تنادى الورى غصوا ولا تنظروا ونحو
 فلو كنت مما تنبت الارض لم أكن من الرائق الباهي ولا الطيب الحلو
 واقبح من رأى بطنى فانه يقرقر مثل الرعد قرقر في الجو
 والا كقلب بين جنبي محمد سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو

يود بأن لو كان في بطن أمه حديثاً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
ثقل ولكن عقله مثل ريشة تطير بها الأرواح في مهمه دوى
تميل بشدقيه الى الأرض لحية تظن بها ماء يفرغ من دلو
وقد حدثوا عنه بكل نقصة ولكن مثلي لا يروى ولا يروي
وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً الا أنه أقذع فيه فلذلك لم
أودعه هذه الأوراق لاني لأستجيز ان ينقل مثل هذا عني ونال ابن
حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاها وثروة كل ذلك
خوفاً من لسانه وحذراً من محبته ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً
الاوأهاجى هذا الرجل يحفظ فيه وتدرس أسأل الله له المسامحة ولجميع
أخواننا من المسلمين وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم
في السلاح التام فلما انتشم وابين بديه وأعجبه ما رأي من حسن هيأهم
قام فصلى ركعتين شكر الله عز وجل واتفق أثر فراغه من ذلك
الركوع ان جاءت سحابة فامطرت مطراً جوداً حتى ابتل الناس فقال
في ذلك صديق لي من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أسله من الجزيرة
الخضراء كان يكتب لابي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن
وكان مختصاً به

بادى الكرامة بل بادي الكرامات قد شفع الله آيات بآيات
يالبث شعري ما شيء دعوت به قل السلام ومن بعد التحيات
شيء تأثر عنه الجوفاتصلت من السحاب رايات برايات
من كل وطفاء لقاء الرباب همت ماء نقيا على زعف نقيات
قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد تفتحت لك أبواب السموات
فاشهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره وله

الحسان كثير وقدم راسخة في صناعتى النظم والنثر مع تحقق بشئ من
 أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق أنشدنى رحمه الله من شعره
 قف بالقباب وأين ذاك الموقف وأسألهم بمشهم ان يعطفوا
 وأنشد فؤادك ان عرفت مكانه بين القباب وما أخالك تعرف
 عند التي رمت الجمار غدية وبنائها بدم القلوب مطرف
 نفسى الفداء لها وان لم تبق لى نفسا تذكرنى بها وتعرف
 وهي قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد على خاطرى سوى ما أوردته
 وأنشدته رحمه الله يوما ونحن فى قبة على شاطئ نهر وقد أخذ المطر
 فى الانسكاب يتبين أحفظهما لشاعر قديم

حاكت يمين الرياح بحكمة فى نهر واضح الاسابر
 فكلمها ضعفت به حلقاً قام لها القطر بالمسامير
 فاستحسنهما وقال لى ذكرتني هذا المعنى وأنشدنى فيه نفسه أبيتا
 ما سمعت بمنلها هذا على اكنار الناس فى هذا المعنى وتوارد هم عليه
 حتى صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الاسماع فلا
 يتخلص منه الا من لطف حسه وجاد طبعه وحسن ميزه والابيات
 بين الرياض وبين الجو معترك بيض من البرق أو سمر من السمر
 ان أوترت قوسها كف السماء رمت نبلا من الماء فى زغف من الغدر
 لاجل ذاك اذا هبت طلائعها تدرع النهر واهتزت قنا الشجر
 فانظر حفظك الله الى حسن توطئته لهذا المعنى وقوة تخلصه الى
 هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهل على السمع والنطق واستأذنت عليه
 يوما وهو فى مجلس أنس له فلم ير رحمه الله ان يحجبني فاسترفع ما كان
 لديه وأذن لى فدخلت فتلقاتنى أحسن لقاء وأخذ يحدثني وفهمت انه

مستحي خجل اذ عرف اني تفطنت لبعض الامر فانشدته رافعا عنه
كلفة الخجل لبعض الشعراء

أدركها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لاسباب تضمنها السكر
اذا لم يكن سكر يزل به الفتى فسيان ماء في الزجاجة أو بحر
فطرب نضر الله وجهه وعاوده أنسه وانبسط ثم سكت عني ساعة
واستدعى الدواء وكتب بديها في قريب من المعنى الذي أنشدته فيه
ما ضرت الحمر لولا الشرع يشربها قوم حديثهم همس التسابيح
ليسوا برعشه اذا أدوا فروضهم عند القيام ولا ميل مراجيح
بيت كيت وفيه شادن سدن مزج الكؤوس به وقد المصاييح
وأنشدني بعد هذا لنفسه في هذا المجلس من قديم شعره مقطوعة
سنية لم أسمع بأحسن منها لم يبق على خاطري منها سوى آخر بيت
فيها وهو

ولكن قوما لا يغيب نهارهم اذا غربت شمس يديرونها شمسا
وله رحمه الله رحلة الى مصر لقي فيها ابن سنا الملك وأخذ عنه من
شعره وهو أول من سمعت يذكره عندنا ويروى شعره ولابي عبد
الله هذا اتساع في صناعة الشعر الا أنه نحل كثيراً من شعره السيد
الاجل أبا الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أيام كتابته له ولم
يدع بعد ذلك في شيء مما نحلله اياه من شعره ولا ذكر انه له فكان
أكثر شعره ينشد لابي الربيع وترويه الرواة له عرفت ذلك بعد
مفارقته اياه لاني فقدت شعر السيد أبي الربيع واختاف على كلامه
ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً فعلمت ان ذلك الاول
ليس من نسجه وأخبرني ابن عبد ربه هذا قال دخلت على السيد أبي

الربيع وهو في قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صفار في
أعلاها فلما رأيت ذلك المنظر أعجبتى وقلت بديها

لما رآته الشمس يفعل فعلمها في العالمين مقاسها ومساها

خافت توألى الجود ينقد ماله نرت عليه دنائراً ودراهماً

خذف الياء من دنائير وهذا جائز كما قال الاول

تضل به أنا وفيه العاصفر

ومما يتعلق بأخبار أبى يوسف رحمه الله ما أخبرنى شيخى وأستاذى

أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى رحمه الله أيام قراءتى عليه
بقرطبة سنة ٦٠٦ وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة الى مقطوعة ابن زبابة

التي أوطأ

يا لهف زبابة للحرث الـ صاحب فالغائم فالآثب

فلما انتهينا منها الى قوله

والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

قال لنا أحدكم بأعجب ما اتفق لى في هذا البيت وذلك ان أمير

المؤمنين أبى يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجها الى لقاء

الادقش لعنه الله قال لى ولدى عصام بعد انفصالي بليلة أو ليلتين

يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلا قرطبة وقد رجع من السفر

وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني لان صدقت رؤياك هذه لهرمن الادقش

لعنه الله وخطر لى هذا البيت

والله لو لاقيته خالياً لآب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير وأبو جعفر هذا المذكور آخر من انتهى

اليه علم الآداب بالاندلس لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر

قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أوبيت
 نادر أو سجمة مستحسنة منه رضى الله عنه وجزاه عنا خيراً أدرك
 جلة من مشايخ الاندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعاناه
 على ذلك طول عمره وصدق محبته وافراط شغفه بالعلم قال لي ولده
 عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت على أو
 أكثرها فألقيتها شديدة الصحة فقلت له لقد كتبها من أصل صحيح
 وتحرزت في نقلها فقال لي ما يمكن ان يكون في الدنيا أصل أصح من
 الاصل الذي كتبت منه فقلت له أين وجدته قال هو موجود الآن
 بين أيدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو فقال لي
 عن يمينك فعلبت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني الا الاستاذ فقال
 لي هو أصلي وبالله كُتبت كان يلى على من حفظه فجعلت أتعجب
 فسمع الاستاذ حديثاً فلفت اليه وقال فيما أتتفا فآخبره ولده الخبر
 فلما رأى تعجبي قال بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان
 المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه
 حافظاً ولا يروونه مجتهداً توفي أبو - حنيفة هذا في شهر صفر من سنة
 ٦٦٠ وقد كُتبت له ست وتسعون سنة لم يبق في لاندلس أعلى رواية
 منه في كل ما يروى ولم أر قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تميزه
 وحسن اختياره ومعرفة بعلم هذه الصناعة أكثر انصافاً منه ولا
 أسرع رجوعاً الى الحق كنت أنشده من شعري على ركاكته وكثرة
 تكلفه وبعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً يحماني على انشاده
 اياه فرط استعدائه ذلك في فناءها ويشد استحسانه لها وربما درسها
 حفظها أنشدته يوماً وقد استدعى في ذلك على عاداته بيتين ارجحتهما

في شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة رحمه الله مع حسن رائع
وظرف ناصع كان اسمه فتحاً وهما

يا من له عن كناس من المتيم قلبه
ما أنت كاسمك فتح وانما أنت قلبه

فطرب والتفت الى ابنه وقال له هذا والله الشعر لا ما تصدعني به
طول نهارك وان كنت تقول مثل هذا والا فاسكت فلما كان من الغد
قال لي رحمه الله أعلمت ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا
في المثل سكت ألفاً لم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ
معنى بيتك فسأبه روحه وأعلمه رواقه ومسحه جملة فقال

سبي فوادي خشف فقوتي اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً وفي الحقيقة حنف

ما زاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة فقلت أنا هذا والله أحسن
من شعري فتعبر لي وقال يا بني دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما تخلق
فيه الانسان الملق وتزيين الباطل سيما اذا أضاف الى ذلك الحلف
الكاذب والله أنك تعلم ان هذا ليس بشيء والا فقد اختل ميزك وساء
اختيارك وما أظن هذا هكذا وسمعته من شدة انصافه رحمه الله
يستحسن بيتين هجاء بهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله وذلك ان
الاستاذ رحمه الله وعفا عنه كان يلقب بالوزغي وكان عنده شاب يقرأ
عليه يلقب بالفرنوق وهو اسم عندهم للسكركي والفصيح فيه غرنيق
فكان بعض الطلبة يهتمون الاستاذ بالميل الى ذلك الشاب وذلك خلق
قد أعاده الله منه ونزّهه بفضلته عنه فقال ابن خروف في ذلك سأل الله
أحقا سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء

وكيف وأنت في الحيطان تمشي وذلك يطير في جو السماء
 فأبعده الاستاذ رحمه الله وأنهى خبره الى القاضي أبي الوليد بن
 رشد فأوجعه ضربا وامتنع الاستاذ من قراءته عليه فخرمه الله بهذين
 البيتين فوائده علمه وابعده عن مريع جنابه وولاه الاستاذ خطته والتي
 حبله على غاربه فلم يفاح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من
 العلم وانما كان يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة وقد امتد بنا عنان
 القول الى مالا حاجة لنا بأكثره رغبة في تنشيط الطالب وابثارا
 للاحاض ولنرجع الآن الى ما قطعنا

وفي آخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب
 بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكم مفرطة السعة
 تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمامة كلونات على أشنع
 صورة كأنها البراديع تباع الى تحت آذانهم فشاع هذا الزي في جميع
 يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرا من أيام ابنه أبي
 عبد الله الى ان غره أبو عبد الله المذكور بعد ان توسلوا اليه بكل
 وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعة تنفعهم فأمرهم أبو
 عبد الله بإبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا
 هذا وهو سنة ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم
 بهذا الزي وتمييزه اياهم به شك في اسلامهم وكان يقول لو صح عندي
 اسلامهم لتركهم يخلطون بالمسلمين في أنكحهم وسائر أمورهم ولو
 صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرارهم وجعلت أموالهم
 فيئا للمسلمين ولكني متردد في أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي
 ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب

بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد
ويقرؤون أولادهم لقرآن جارين. على ملتنا وسلتنا والله أعلم بما تكن
صدورهم ونحوه بيوتهم وفي أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد
ابن رشد المقدم الذ ذكر محنة شديدة وكان لها سيان جلي وخفي فأما
سببها الخفي وهو أكبر أسبابها فان الحكيم أبا الوليد رحمه الله أخذ في
شرح كتاب الحيوان لارسطاطاليس صاحب كتاب المنطق فهذه
وبسط اغراضه وزاد فيه ما رآه لأثابه فقال في هذا الكتاب عند
ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ وقد رأيتها عند ملك
البربر جاري في ذلك على طريقة العلماء في الاخبار عن ملوك الامم
وأبناء الاقاليم غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلوا
الكتاب من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق فكان هذا
مما أحقنهم عليه غير انهم لم يظهروا ذلك وفي الجملة فانها كانت من أبي
الوليد غفلة فقد قال القائل رحمه الله من عرف زمانه فانه وميز مكانه
فكانه وما أحسن ما قال الاول

وأزلى طول النوى دار غربة اذا شئت لا قيت الذي لا أشاكله
خامقته حتى يقال سحبة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله
واستمر الامر على ذلك الى ان استحكم ما في النفوس ثم ان
قوما ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة في البيت وشرف
السلف سعوا به عند أبي يوسف ووجدوا الى ذلك طريقاً بان أخذوا
بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن
بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم فقد ظهر ان الزمرة أحد الآلهة
فاوقفوا أبا يوسف على هذه السكامة فاستدعاه بعد ان جمع له الرؤساء

والاغيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة فلما حضر أبو الوليد رحمه الله قال له بعد ان نبذ اليه بالاوراق أخطك هذا فأنكر فقال أمير المؤمنين لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلعنه ثم أمر باخراجه على حال سيئة وابعاده وابعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذت سم القبله فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها ثم لما رجع الى مراكنش نزع عن ذلك كله وجنح الى تعلم الفلسفة وأرسل يستدعي أبا الوليد من الاندلس الى مراكنش للاحسان اليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد رحمه الله الى مراكنش فمضى بها مرضه الذي مات منه رحمه الله وكانت وفاته بها في آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين رحمه الله ثم توفي أمير المؤمنين أبو يوسف بعد هذا التاريخ بيسير وكانت وفاته كما ذكرنا في غرة صفر الكائن في سنة ٥٩٥

﴿ذكر ولاية أبي عبد الله محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين﴾

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي أمه أم ولد اسمها زهر رومية بويج له بعد أبيه الى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه وقد كان أبوه أمر ببيعته في سنة ٨٦ وسنه اذذاك عشر سنين الا أشهراً وكان مولده في آخر سنة ٥٧٦ ولم يزل مرشحا للخلافة معروفا بها الى ان مات أبوه واستقل بالامر في التاريخ المذكور

وسنه يوم يبيع له البيعة الكبرى العامة سبع عشرة سنة وأشهر وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة الا أشهراً صفته ابيض أشقر شعر اللحية أشهل العينين أسيل الخدين حسن القامة كثير الاطراف شديد الصمت بعيد الغور كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه حلماً شجاعاً عفيفاً عن الدماء قليل الخوض فيما لا يعنيه جداً الا أنه كان يخجل أولاده كان قليل الولد جداً لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولي عهده ويحيى واسحاق توفي يحيى في حياته باشبيلية سنة ٦٠٨ وبلغنى عن جماعة من الحشم انه كان رشح يحيى هذا للولاية العهد وله بنات (وزراء) أبو زيد عبد الرحمن ابن موسى بن يوجان وزير أبه ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه ابراهيم بن أمير المؤمنين أبى يوسف وهو خير ولده وأجدرهم بالامر لو كانت الامور جارية على ايثار الحق واطراح الهوى لا أعلم فيهم أنجب منه كان لى رحمه الله محبا وبى حفيا وصلت الى منه أموال وخلع حبة غير مرة لم أعرفه أيام وزارته لاني كنت اذذاك حديث السن جداً كما ناهزت الاحتلام وانما كانت معرفتي اياه حين ولوه اشبيلية فى سنة ٦٠٥ من جهة رجل من أحمابنا من الكتاب اسمه محمد بن الفضل جازاه الله عنى خيراً هو الذى أوصلنى اليه أنشدته أول يوم لقينته قصيدة مدحته بها أولها

لكم على هذا الورى التقديم	وعليهم التفويض والتسليم
الله أعلاكم وأعلى أمره	بكم وأنف الحاسدين رغيـم
أحييم المنصور فهو كانه	لم تفتقده معالم وعلوم
ومحارب ومنابر ومحارب	وحمي يحاط وأرمل ويتم

الى ان أقول فيها في ذكر ولايته اشيلية

فكأنما حصص جمالا سارة وكأن إبراهيم ابراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أنرها سيزفها الادفنش وهو ذميم
أقول فيها

بذر الصليب صغيره وكبيره فيها جذاذا والعلوج جنوم
ويحرق الاعداء فيما اضرمت ويجوب نار الحرب وهي جحيم

لم يبق على خاطري منها لتقدم عهدا وقلة اعتناءى بها سوى
هذه الابيات التى أوردتها فاستحسنها رحمه الله وبالع في الثناء عليها
تفضلا منه وسوددا وجريا على سنن الاجواد هذا مع ركاكتها وقلة
انطباعها وظهور تكلفها ثم علت حالى عنده بعد ذلك نظر الله وجهه
الى ان كان يقول لى في أكثر الاوقات والله انى لاشتاك اذا غبت
عن أشد الشوق وأصدقته ثم لم تزل حالى معه على هذا الى ان فارقت
رحمة الله عليه وهو وال على اشيلية ولايته الثانية وكان توديعي اياه
قدس الله روحه آخر يوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ثم اتصلت بي
وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ لم أر فى العلماء بعلم الاثر المتفرغين
لذلك أنقل منه للآثر كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية ثم عزله أبو
عبد الله وولي بعده أبا عبد الله محمد بن على بن أبي عمران الضرير
جد يوسف بن عبد المؤمن لاهه وكناه أبا يحيى فكان أبو عبد الله
الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة وكان يحضه على فعل
الخير بمجده ونشر العدل حسب طاقته والاحسان الى الرعية والاجناد
رأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعة الارزاق وكثرة العطاء
مثل الذى رأوا فى أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبا منه

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع
كان إبراهيم بن جامع جد هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تومرت
صحبه من 'مراكش' وكان أصله من الأندلس أباه من أهل مدينة
طليطلة ونشأ هو أعنى إبراهيم بساحل مدينة شريش على البحر
الأعظم بضعة تسمى روطه وها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل
الأندلس قاطبة في كل سنة ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدو وكان
يحاول صنعة الحاس فتعرف بأن تومرت فكان من أصحابه فهو
معدود فيهم وولد له أولاد نالوا في الدولة حظوة وجاهاً متسهماً فمن
أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
وقد تقدم ذكره وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر اسمه عبد الله كان
يتولى في إمارة أبي يعقوب مدينة سبتة وجهاتها وزيادة على ذلك ولاية
الأسطول في جميع بلادهم فلم يزل كذلك إلى أن مات أظن أمير
المؤمنين أبا يعقوب قتله وترك من الولد يوسف والحسين وعثمان
الوزير هذا المذكور ويحيى وبنات فاستمرت وزارة أبي سعيد هذا
إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو عبد الله ووزر بعده لابنه أبي يعقوب
إلى حين ارتحلت من البلاد وهو سنة ٦١٤ ثم اتصل بي في شهر
سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتي ذكره بعد هذا أن
شاء الله عز وجل (حجابه) ريجان الخصى ويدعى ريجان بينك حجبه
ريجان هذا إلى أن مات ثم حجبه بعده مبشر الخصى يدعى مبشر
ولدى فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفي أمير المؤمنين أبو
عبد الله رحمه الله (كتابه) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش
المتقدم الذكر في كتاب أبيه وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك

ابن عيَّاش المتقدم ذكر أبيه في كتاب عبد المؤمن وأبي يعقوب وأبو عبد الله محمد بن مخلفتن بن أحمد الفازازي ذكره الله فيمن عنده وقرب مطالعتي تلك الغرة الميمونة وسماعي تلك الالفاظ الحلوة واستمتاعي بتلك الشائل الشريفة فما أشد شوقى الى تقبيل يديه هؤلاء كتبة الانشا وكتاب الجيش أبو الحجاج يوسف المراتى يخفيف الرأى وضم الميم من أهل مدينة شريش من جزيرة الاندلس ثم بعده أبو جعفر احمد بن منيع الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ (قضاة) أبو القاسم أحمد بن بقی قاضى أبيه ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله فلم يزل قاضيا الى ان مات وولى بعده رجلا من أهل مدينة فاس اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر يدعى انه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف لم يزل هذا دأبه ولا يرح معروفاته وكان له مع هذا حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وثى من الخلاف اتصل بأمر المؤمنين أبى يوسف في شهور سنة ٥٨٧ فخطي عنده وكانت له منه منزلة سمعت أبا عبد الله الحسيني هذا يقول وأنا عنده في بيته جملة ما وصل الى من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته الى ان بات تسعة عشر الف دينار خارجا عن الخلع والمراكب والاقطاع لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيا الى ان مات بالاندلس في شهور سنة ٦٠٨ وكانت ولايته في شهور سنة ٦٠١ ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمران كان أبوه من قضاة أبى يعقوب فاستمرت ولاية أبى عمران هذا الى هذا الوقت وهو سنة ٦٢١ لم يبلغنى عزله ولا وفاته وأبو عمران هذا الى صديق لم أر صديقا لم تغبره الولاية غيره ولم يزل يعاملنى بما

كان يعاملني به قبل ذلك لم ينقض شيئاً من برهما لقيته قط في مركبه
الاسلم على مبتدئاً وجدد لي برأ جزاء الله عني أفضل الجزاء وعم
بذلك سائر أخواني

ولما تمت بيعة أبي عبد الله العامة كما ذكرنا وكان الذي تولاهما
وقام بأمرها من القرابة أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن
وهو الذي قام ببيعة أبيه ومن الموحدين أبو زيد عبد الرحمن بن
موسى وزير أبيه وأبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص وهو
الذي ولاء محمد بعد هذا أمر أفريقية كان أول شيء شرع فيه تجهيز
الجيوش إلى أفريقية وذلك أن يحيى بن اسحق بن غانية المتقدم الذكر
كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل الموحدون عنه بغزو
الروم فأول جيش جهز من الموحدين الجيش الذي استعمل عليه
السيد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن لم أر لهم جيشاً أضخم
منه ولا أكثر سلاحاً ولا أحسن عدة وكان فيه من أعيان الموحدين
وأشياخهم جملة وافرة فسار أبو الحسن هذا بجيشه المذكور حتى التقى
هو والمبرقيون فيما بين بجاية وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة
فانهزم الموحدون أصحاب أبي الحسن المذكور ورجع أبو الحسن إلى
بجاية على حالة سيئة وجهز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله وأمرعاهم
من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن بن موسى الوزير فسار بالجيش حتى
بلغ قسطنطينة المغرب ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد الله على
أفريقية وأعمالها السيد الاجل أبا زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن
وخرج هو في سنة ٥٩٧ هـ إلى تنملل لزيارة قبراياه أبي يوسف وزيارة
ضريح آبائه وابن تومرت ثم رجع إلى مراکش وأقام إلى أول سنة

٦٠٩ فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها واشاع
 انه يقصد افرقية هذا بعد ان بلغه ان الميرقي استولي على مدينة تونس
 وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياماً وبدا
 له ان يبعث بعثاً الى جزيرة مبرقة ليستأصل شأفة بني غانية ويقطع
 دابرهم فعمر الاسطول والطرائد فيها الخيل والرجال واستعمل على
 الاسطول عمه أبا الملاءادريس بن يوسف بن عبد المؤمن وعلى الجيش
 أباسعيد عثمان بن أبي حفص من أشياخ الموحدين فقصده الجزيرة
 هذان الرجلان ففتحها عنوة وقتلا عبد الله بن اسحاق بن غانية
 الأمير عليها وكان الذى قتله رجل من الأكراد يقال له عمر المقدم
 وذلك انه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران
 فكبت به فرسه فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات وقيل انه قتله
 بسيف نفسه وكان دخولهما مبرقة وقتلها أميرها المذكور في شهر
 ذي الحجة من سنة ٥٩٩ فانتبهت أمواله وسببها حرمه ودخل بهم مدينة
 مرا كش على الجمال فى هيئة الاسارى فاما النساء فدخل بين ليلا
 فجعلن فى بعض الخانات الى ان نفذ الامر بالئن عليهن واطلاقهن وتزويج
 من تحتاج الى التزويج منهن وتجهيزها بمال وأما الرجال فلم يزالوا فى
 الحبس الى ان من عليهم بعد ان ضمنهم أكابرهم واتخذوا أجناداً فهم
 كذلك الى اليوم وبلغنى ان المتولين لفتحها انتهوا منها أموالاً عظيمة
 وذخائر نفيسة ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله الى مرا كش وبها
 اتصل به خبر فتح مبرقة وكان رجوعه الى مرا كش فى ذى القعدة
 من السنة المذكورة وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ قام بسوس رجل
 من جزولة اسمه عبد الرحمن يعرف عندهم بما معناه بلسانهم ابن

الجزارة فدعا الى نفسه واجتمع اليه خلق كثير واشتد خوف الموحدين منه فلم يزالوا يجهزون اليه العساكر بعد العساكر وفي كل ذلك يهزمهم الى أن بعثوا بعثاً من الموحدين والغز وأصناف الجند بعد أن تقدموا الى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها وقالوا انما يقوي هذا الرجل يتغافلكم عنه ومساخمتكم اياه ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحداً ففزعوا عند ذلك وأظهروا الحمية والتقواهم وأصحاب عبد الرحمن المذكور وكان يدعي أبا قصبة فأسلمته جوعه وقتل وسير برأسه الى مرا كش فسكتب الى بعض أخواني وهو اذ ذاك صبي صغير كان مع أبيه بسوس وكان أبوه من العمال من أهل جزيرة الاندلس من ناحية بلنسية يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله الي من جهة كتاب الموحدين المتولين له رسالة أولها كتب من منزل بسوس وقد تبليج فجر الفتح فأسفر وقال فريق الضلال وشيعته ابن المفر وقد ألقى النصر جراته وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه وشرح الحال على غاية الابهاز لاجل الاستعجال في انهاء هذه البشائر والأحفاز ان الناكثين النابذيين للعروة الوثقى المتمسكين بالسبب الاشقي حاصروهم الموحدون أنجدهم الله أشد الحصار وقطعوا عنهم مواد المعاش وزرافات الانصار ولسان التأييد يتلوا علينا بالعشي والاشراق ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق ولحين ما أخذ الموحدون أنجدهم الله في جسم دأهم العضال وجردوا لهم من عزماهم الصادقة ما هو أمضى من النصال طاحوا مجدلين بالحضيض وملاً جثمانهم الفضاء العريض وخيب الله ظنونهم السكاذبة وآمالهم وصبرهم الى امهم الهاوية فكانت أولى بهم ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم وأمكن الله من رأس

ضلالهم المدعو بأبي قصبه فقهره الحزب المنصور وغلبه وحز الحسام
منه قنة ورقبه انما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابية شأن من وردت
على منه وذلك انه كان حين كتب بها الى لم يحتلم بعد ومع اتصال هذا
الفتح بهم اتصل معه فتح جزيرة منركة كان فيها من أصحاب ابن غانية
رجل اسمه الزبير بن نباح دخلوها عليه فقتلوه ووجوهوا برأسه الى
مراكش فهو معلق بها مع رأس أبي قصبه المذكور ولما كانت سنة
٦٠١ تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله في جيوش عظيمة وقصد بلاد
أفريقية وقد كان الميرقي يحيى بن غانية قد استولى عليها خلا قسطنطينة
وبجاجة هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه واشتغال أمير المؤمنين أبي
يوسف بغزو الروم بالاندلس على ما قدمناه فصار أبو عبد الله حتى
نزل بلاد أفريقية فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهديّة . مهديّة
بني عبيد فانه أقام عليها أربعة أشهر قبل ان دخلها أوجب ذلك ما قدمناه
من شدة منعها وكان يحيى بن غانية قد ولي فيها ابن عمه لحا أبا الحسن
على بن عبد الله بن محمد بن غانية فلما طال عليه الحصار سلم البلد
وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ثم بدا له ان يرجع الى الموحدين فارسل
اليهم فتلقوه أحسن لقاء ووصلوه من الصلاة النفيسة بما لا قيمة له ولا
يصل بمثله الا الخلفاء وبعد هذا نزع اليهم أخو يحيى بن غانية سير بن
اسحق بن محمد فأكرموا نزله وافطعوه الاقطاع الواسعة بعد ان ملثوا
يديه أموالا ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقبلا بأفريقية يصلح
ما أفسده ابن غانية الى ان تم له ما أراد من ذلك وبأغنى ان جملة
ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حملا ذهبانم رجع الى مراكش
دار الملك بعد ان ترك بأفريقية من الموحدين وأصناف الجند من يقوم

بحمايتها ويذود عنها من رامها واستعمل عليها من أشياخ الموحد بن أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر ابنتي فأقام بمراكش وكان رجوعه إليها في شهر سنة ٦٠٤ فأقام بها كما ذكر الى أول سنة ٦٠٧ فانقض ما بينه وبين الادفنش لعنه الله من المهادنة وبدأ له ان يقصد بلاد الروم للغزو فخرج بالجيش حتى عبر البحر وكان عبوره في شهر ذى القعدة من سنة ٧ المذكورة فسار حتى نزل اشيلية على عادة من سلف اقبله فأقام بها بقية السنة المذكورة وتحرك في أول سنة ٨ فقصده بلاد الروم فنزل على قلعة عظيمة لهم في غاية المنعة تدعى شل ترة معناه لسان العرب الارض البيضاء الا ان فيه تقديم وتأخير كما جرت العادة في لسان المعجم ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياما يسيرة ثم تركها شفقة على المسلمين وخوفا عليهم فراع فتح هذه القلعة الروم وخامرهم الرعب وخرج الادفنش لعنه الله الى قاصية بلاد الروم مستنفرا من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى التجهة منهم فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان حتى بلغ نفيره الى القسطنطينة وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشتوني لعنه الله وذلك ان جزيرة الاندلس يملك جهاتها الاربع أربع ملوك من الزوم احدى الجهات تسمى أرغون وهي التي ذكرنا وهي في الجزيرة مما يقابل الجنوب منها والجهة الاخرى وهي المملكة الكبرى بلاد تسمى بلاد قشتال يملكها الادفنش لعنه الله وحده هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال أميل الى الجنوب قليلا والجهة الاخرى تسمى ليون فهو أول الحُد الشمالي المغربي يملكها رجل يدعى بالببوج ومعنى هذا الاسم

بالعربية الكثير اللعاب والجهة الاخرى في الشمال مما يلي البحر الاعظم
بحر اقنايس يملكها رجل يعرف بابن الريق وقد تقدم ذكره في
مواضع من هذا الكتاب والجزيرة بأسرها أعنى جزيرة الاندلس
تسمى في قديم الدهر عند الروم جزيرة اشبانية وبعد رجوع أمير
للمؤمنين أبي عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر الى اشبيلية استنفر
الناس من أقاص البلاد فاجتمعت له جموع كثيفة وخرج من اشبيلية
في أول سنة ٦٠٩ فصار حتى نزل مدينة جيان فأقام بها ينظر في أمره
ويعي عساكره وخرج الادفنش لعنه الله من مدينة طليطلة في جموع
ضخمة حتى نزل على قلعة رباح وهي كانت للمسلمين افتتحها المنصور
أبو يوسف في الواقعة الكبرى فسلمها اليه المسلمون الذين بها بعد ان
آمنهم على أنفسهم فرجع عن الادفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم
جموع كثيرة حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة
وقالوا انما جئت بنا لنتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين
مالنا في صحبتك من حاجة على هذا الوجه وخرج أمير المؤمنين من
مدينة جيان فالتقى هو والادفنش بموضع يعرف بالعقاب بالقرب من
حصن يدعي حصن سالم فعبا الادفنش جيوشه ورتب أصحابه ودهم
المسلمين وهم على غير أهبة فانهزموا وقتل من الموحدين خاق كثير
وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين وذلك انهم كانوا
على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر لا يخل
ذلك من أمرهم فابطأ في مدة أبي عبد الله هذا عنهم العطاء وخصوصاً
في هذه السفارة ففسبوا ذلك الى الوزراء وخرجوا وهم كارهون فبلغني
عن جماعة منهم انهم لم يسألوا سيفاً ولا شرعوا رحماً ولا أخذوا في شيء

من أهبة القتال بل انهزموا لاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك
وثبت أبو عبد الله هذا في ذلك اليوم نبأنا لم ير ملك قبله ولولا نبأته
هذا لاستوصلت تلك الجموع كلها قتلا وأسرا ثم رجع من هذا الوجه
الى اشبيلية وأقام بها الى شهر رمضان من هذه السنة ثم عبر للبحر
قاصداً مدينة مراكش وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين
يوم الإثنين منتصف صفر الكائن في سنة ٦٠٩ وفصل الادفنش اعنه
الله عن هذا الموضوع بعد ان امتلأت يداي وأبدى أصحابه أموالا
وأمتعة من متاع المسلمين فقصده مدينتي بياسة وأبذة فاما بياسة فوجدتها
أو أكثرها خالية فخرق ادورها وخرب مسجدها الاعظم ونزل على
أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المهزومة وأهل بياسة
وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً ثم دخلها عنوة فقتل وسبي
وغنم وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملثوا به
بلاد الروم قاطبة فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ولم يزل
أمير المؤمنين أبو عبد الله مقبلاً يمرأ كمش بقية سنة ٩ وأشهرأ من
سنة ١٠ الى ان توفي في شهر شعبان كما قدمنا واختلف علينا في سبب
وفاته فأصح ما بلغني انه أصابته سكتة من ورم في دماغه وذلك يوم
الجمعة لحس خلون من شعبان فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت
والاحد والاثنين والثلاثاء وأشار عليه الاطباء بالقعد فأبى ذلك وتوفي
يوم الاربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ودفن يوم
الخميس صلى عليه خاصة الحشم



﴿ ذكر ولاية أبي يعقوب يوسف بن محمد ﴾

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي أمه أم ولد رومية اسمها قرانلقب حكيمة كانت ولادته في صدر شوال من سنة ٥٩٤ قبل وفاة جده أبي يوسف بأربعة أشهر ببيع له وسنة يومئذ ست عشرة سنة لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ثم اتصل بي في شهر ربيع سنة ٦٢١ ان يوسف هذا توفي في أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة سنة ٢٠ فكانت مدة ولايته من يوم ببيع له وذلك لاحد عشر يوماً من شعبان من سنة ٦١٠ الى ان توفي كما ذكر في التاريخ المذكور عشرة أعوام وشهرين (صفته) كان صافي السمرة مستدير الوجه شديد الكحل يشبهونه بمجده أبي يوسف في أكثر خلقه وخلقه (وزراؤه) أبو سعيد المتقدم المذكور وزير أبيه استمرت وزارته الى آخر سنة ٦١٥ ثم عزله وولى بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى بن أبي إبراهيم اسمعيل المزرعي صاحب ابن تومرت والمقتول في حياة عبد المؤمن كما تقدم أم هذا الوزير هي بنت أبي يوسف المنصور فهو وزيره الى ان توفي كما ذكر (حجابه) مبشر الخصى حاجب أبيه ثم حجبه بعده فارج الخصى يكنى أبا السرور فلم يزل حاجباً له الى ان توفي كما قيل (قاضييه) أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له الى ان توفي كما قيل (كتابه) أبو عبد الله بن عياش كاتب أبيه وجده وأبو الحسن بن عياش ثم اتصلت بي وفاة هذين الكاتبين ولما بالديار المصرية في شهر ربيع سنة ٦١٩ وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد ابن خلفتهن ألفازا زى المتقدم المذكور في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد الله

وكان قاضيا بمدينة مرسية من شرقي الأندلس ومها فارقته فأعادوه الى
 الكتابة كما كان واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد
 الرحمن بن عباس أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم وقد تقدم ذكره في
 كتاب ثلاثة أمراء منهم وكاتب الجيش أحمد بن منيع لم يتغير ببيع لابي
 يعقوب هذا يوم دفن أبيه لا أدري أبعد أبيه اليه أم لا لاني أعلم ان
 أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه لما كان يسمع من سوء
 أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن
 عم جده الذي دخل عليه الميرقيون بحماية وهو آخر من بقي من ولده
 عبد المؤمن لصلبه لم تبلغني وفاته الى وقتنا هذا وأبو زكريا يحيى بن
 أبي حفص عمر بن عبد المؤمن كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ومن
 الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد الهنتاتي كان أبوه
 أول وزير ووزر لابي يوسف وقد ذكر وأبو علي عمر بن موسى بن
 عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان من
 أهل تنممل وبيع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بإيعاض شيخ
 الموحدين والقرابة وفي يوم السبت أذن للناس عامة شهدت ذلك اليوم
 وأبو عبد الله بن عباس الكاتب قائم يقول للناس تبايعون أمير المؤمنين
 ابن أمراء المؤمنين على ما يبيع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه
 وسلم رسول الله من السمع والطاعة في المنشط والمكروه واليسر والعسر
 والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا
 يجمر بعونكم وان لا يدخر عنكم شيئا مما نعمكم مصالحته وان
 يعجل لكم عطاءكم وان لا يحتجب دونكم أغانكم الله على الوفاء
 وواعاته على ما قلده من أموركم يعيد هذا القول لكل طائفة الى ان

انقضت البيعة ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة الى ان تم له الامر ولاربعة أشهر من ولايته قبض على رجل كان قد نار عليهم يدعى انه من بني عبيد ويقول انه ولد العاضد الصلبة اسمه عبد الرحمن كان قد ورد البلاد في حياة أبي يوسف أيام كونه بأشيبيلة ورام الاجتماع به فلم يأذن له وأقام بالبلاد مطر حا الى ان حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله في شهر سنة ٥٩٦ فلم يزل في الحبس الى ان كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين الى إفريقية شفع له فيه أبو زكريا يحيى بن أبي ابراهيم الهزرجي فاطلقه له بعد ان ضمن عنه انه لا يتحرك في أمر يكرهونه فلم يبق هذا العبيدي بمراكش الا أياما يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبي عبد الله ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم لان هذا الرجل كان كثير الاطراق والصمت حسن الهيئة لقيته مرتين فلم أر في أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين مثله في الآداب الظاهرة من هدوء النفس وسكون الاطراف ووزن الكلام وترتيب الالفاظ ووضع الاشياء مواضعها مع الرياضة المفرطة ثم قصد مدينة سجلماسة في حياة أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيش عظيم فخرج اليه متوليا السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن فهرمه العبيدي المذكور وأعادته الى سجلماسة أسوأ عود ولم يزل ينقل في قبائل البربر من موضع الى موضع وفي ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع اليه الى ان قبض عليه بظاهر مدينة فاس لم يبلغني تفصيل قضية القبض عليه وكتب الى أمير المؤمنين متولي فاس أبو ابراهيم اسحاق

ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده في سجنه فكتب اليه يأمره بقتله وسلبه فضرب عنقه وصلب جسده ووجه رأسه الى مرا كش فهو معلق هناك مع عدة رؤس من الثوار والمتغلبين ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آباءه ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله خلا اني رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قدملى قلبه منه رجلاً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظه لقيته وجلست بين يديه خالياً به وذلك في غرة سنة ٦١١ فرأيت من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك ما قضيت منه العجب والى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع ونار في أيام يوسف هذا بعد قتل العبيدى رجلاً أحدهما ببلاد جزولة من سوس كان يدعي بالفاطمى قتل وجهه برأسه الى مرا كش في شهر سنة ٦١٢ وأنا يومئذ بجزيرة الاندلس لم يبلغنى تفصيل أمره لبعدي عن الحضرة غير اني رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله والآخر من صنهجة قتل في سنة ٦١٨ بعد ان أتر آثاراً قبيحة فيما بلغنى وهزم بعونا عدة واستفسد خلقاً كثيراً بلغنى هذا كله وأنا بالبلاد المصرية في التاريخ المتقدم وكان الذى تولى قتل هذا الرجل والاراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه السيد الاجل أباً محمد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب ابن عبد المؤمن بن على وهو يومئذ وال على مدينة سجلماسة وأعمالها ثم اتصل بى في هذه السنة وهى سنة ٦٢١ ان أباً يعقوب أمير المؤمنين توفى في أحد الشهرين من شوال أو ذي القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغنى كيفية وفاته فاضطرب الامر واشترأ الناس للخلاف ثم ذكر

الى ان عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الاجل أبى محمد عبد
 العزيز بن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين أبى محمد
 عبد المؤمن بن على رحمهما الله ونضر وجوههما وجزأهما خيرا عن
 صلاحهما واصلاحهما وأبو محمد عبد العزيز هذان أصغر أولاد أبى
 يعقوب أمه حرة اسمها مريم صنهاجية من أهل قلعة بني حماد تزوجها
 أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه وكانت بيت هي وأما ملكة
 فى من سبوا من أهل القلعة فاعتقهما أبو محمد عبد المؤمن وزوج مريم
 هذه لابنه أبى يعقوب فولدت له ثمانية من الولد أربعة ذكور وأربع
 بنات فالذكور هم إبراهيم وموسى وادريس وعبد العزيز هذا
 المذكور وهو أصغرهم توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت قتله العرب
 أصحاب الميرقى فى شهر سنة ٦٠٥ وتوفى إبراهيم منهم بأشبيلية واناها
 فى شهر سنة ٦١٢ وتوفى أبو العلاء ادريس منهم بأفريقية كما سيأتى
 والبنات هن زينب ورقية وعائشة وعالية لم يتولى أبو محمد عبد العزيز
 هذا شيئا من أمرهم فى حياة أبيه ولا فى حياة أخيه أبى يوسف فلما
 ولى أبو عبد الله الأمر ولاء مدينة مالقة واعمالها من جزيرة الاندلس
 وذلك فى شهر سنة ٥٩٨ ثم عزله عنها فى شهر سنة ٦٠٣ وولاه
 أمر قبيلة هسكورة وهي ولاية ضخمة فلم يزل واليا عليها الى ان
 عزله عنها وولاه أمر سجلماسة فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة
 ابنه أبى يعقوب الى ان قتل هذا الثائر المتقدم الذكر فى ولاية أبى
 يعقوب بن أبى عبد الله فعزله أبو يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة
 اشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر أفريقية فلم يزل أبو
 العلاء ادريس واليا بأفريقية الى ان مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠

على ما بلغني راحة الله عليه فهذه جملة أخبار هذا الرجل أبي محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لامرهم كما قالوا ولئن كان ما قالوا حقاً وتم هذا الامر له ليملائها خيراً وعدلاً ولتكون الارض وتخرج بركاتها ولترسلن السماء مدرارها بين نقيته وجسن سيره وحميد سريره هذا اذا ساعده الدهر وقبض الله له أعواناً صالحين فانه ما علمت صوام قوام مجتهد في دينه شديد البصيرة في أمره قوى العزيمة شديد الشكينة لا تأخذه في الحق لومة لائم أرطب الناس لساناً بذكر الله وأتلاهم لكتاب الله شهدته والولاية قد اكتنفته وأمر الرعية قد استغرقت أوقاته وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوراده ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن واذكار رتبها على أوقات الليل والنهار شهدت هذا كله منه بنفسه لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه الى رواية هذا مع دماثة خاق وابن جانب وخفص جناح لاصحابه ولمن علم فيه خبراً من المسلمين أو ظنه مضافاً الى سخاء نفس وطلاقة وجه (وصفته) أبيض تعلوه صفرة جميل الوجه جداً معتدل القامة متناسب الاعضاء وله من الولد على عالمي ثلاثة محمد وهو أكبرهم وعبد الرحمن وأحمد وبنات

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم وهو سنة ٥١٥ الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فذلك مائة سنة وست سنين على الاجمال لا على التفصيل وإنما أوردنا من ذلك ما تدعوا الحاجة اليه وتضم الضرورة من عني بالأخبار الى معرفته من غير تعرض الى ما لا حاجة بنا اليه من ذكر اولاد عبد المؤمن وأولاد أولاده وأولاد أولاد أولاده وتفاصيل أخبارهم في ولايتهم وعزلهم

وأماهم وكتابتهم وحجابتهم ووزرائهم اذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا
 المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة هذا على انا لو
 كفيينا ضرورات المعاش وأعفينا من كد الزمان لاوردنا من ذلك
 ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة ولم أثبت في هذه
 الاوراق الخنوية على دولة المصامدة وغيرها الا ما حققته نقلا من
 كتاب أو سماع من ثقة عدل أو مشاهدة بنفسى هذا بعد ان تحريت
 الصدق وتوخيت الانصاف فى ذلك كله وجهت الا أنقض أحدا
 ذرة مما له ولا أزيد خردلة مما لا يستحقه وبالله أستعين وإياه أسأل
 واليه أضرع فى الهام الصواب والسداد فى القول والعمل فهو حسبي
 ونعم الوكيل

﴿ جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم فى

ظعنهم واقامتهم ﴾

قد قدمنا ان أول من صحب المهدي محمد بن تومرت عشرة أنفس
 وهم المسمون بالجماعة أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح ثم
 عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين ثم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف
 عندهم بعمر ازناج ثم فاصكة بن ومزال سماء بن تومرت عمر وكناه
 أبا حفص انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير وكان له عدة من الولد
 منهم ابراهيم واسماعيل ومحمد أم محمد هذا ابنة عبد المؤمن ويحيى
 وعيسى وموسى ويونس وعبد الحق وعثمان واحمد وعبد الواحد كان
 عبد الواحد هذا يتولى أمر أفريقية ولاء أمرها أمير المؤمنين أبو

عبد الله سنة ٦٠٣ فلم يزل واليا عليها الى ان مات بها يوم الخميس وهو
أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ وكان ابن تومرت يسمى فاصكة هذا
المبارك ويقول لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من
ولده فكان الامر كما قال وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده وهو
المشهور بعمر ابنتي وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب ولم
يبق في وقتنا هذا من ولده لصلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان
فارقته بمدينة مرسية وبها ودعته حين ارتحلت الى هذه البلاد وقد
ولوه مدينة جيان وأعمالها هذا آخر عهدي به ثم اتصل بي بديار مصر
انهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها فلا أدري أهو بالاندلس اليوم أو
بمراكش وهو معدود عندي من جملة أخواني رضى الله عنه وعنا
وعن جميع المسلمين ثم يوسف بن سليمان وأخوه عبد الله بن سليمان
وهما من أهل تنمائل من قبيلة تدعى مسكالة حسب ما تقدم ثم أبو
عمران موسى بن علي الضرير صهر عبد المؤمن كان ضرير البصر كان
عبد المؤمن يستخلفه على مراكش اذا سافر عنها ثم أبو ابراهيم
اسماعيل الهزرجي وهو الذي أسلم نفسه للاقتل وفدا عبد المؤمن بذلك
على ما تقدم ثم رجل من أهل تنمائل يعرف عندهم بأبن بيجيت انا
شاك في اسمه ثم أيوب الجديوى وهو الذى تولى قسمة الاقطاع بين
الموحدين في أول الامر فهؤلاء العشيرة المسمون بالجماعة وبعض الناس
يعد فيهم أبا محمد واستار وهو رجل دباغ أسود من أهل مدينة انغمات
صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مربها فاخنته أبو عبد الله بن
تومرت لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكنهه لما يرى ويسمع فكان
يتولى وضوءه وسواكه والاذن عليه للناس وحجابته والخروج

بين يديه فلم يزل على ذلك الى ان توفي ابن تومرت فكان يتولى خدمة
 ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك توفي واسنار هذا في صدر
 دولة أبي يعقوب بعد ان علت سنه وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين
 لم يكتسب شيئاً ولا خلف ديناراً ولا درهماً مع انه لو شاء لكان أكثر
 الناس مالاً لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة لما كانوا يعلمون من
 قربه من صاحبهم وثناؤه عليه في أكثر الاوقات وانضاف الى هؤلاء
 القوم المسمين بالجماعة خلق من قبائلهم فعدوا فيهم ونسبوا اليهم وأول
 من يعترض في العرض العام ولد عمر بن عبد الله الصنهاجي ثم فرس
 عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الامر ثم سائر أهل الجماعة على
 طبقاتهم من سبقه وابطاء ثم أهل خمسين وهم خلق كثير

﴿ ذكر قبائل الموحدين ﴾

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعممهم وهم الجند
 والاعوان والانصار ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم
 وتحت أمرهم سبع قبائل أولهم قبيلة ابن تومرت وهي قبيلة تسمى
 هرغة وهي قبيلة العدد بالنسبة الى قبائل الموحدين ثم قبيلة عبد المؤمن
 تسمى كومية وهي قبيلة كثيرة العدد حمة الشعوب لم يكن لها في قديم
 الدهر ولا في حديثه ذكر في رياسة ولا حظ من نباهة انما كانوا
 أصحاب فلاحه ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب
 وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطى المانع فأصبح
 القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تطاول أيديهم يد
 يكون عبد المؤمن منهم هذا على انه كما قدمناه ينتسب الى غيرهم ثم

أهل تينملل وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ثم هنتانة وهي أيضاً قبيلة ضخمة جداً وفي بعضها رئاسة وشرف في الدهر القديم ثم جنفيسة وهي قبيلة عزيزة منيعة ولقبتها أجود اللغات وأفصحها في ذلك اللسان ثم جدميوة وليست كلها بل بعضها رعية ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ثم بعض قبائل هسكورة فهذه جملة قبائل الموحدون المستحقين لهذا الاسم عندهم والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية واذ قد جرى ذكرهم أعني المصامدة على هذا النسق فلنذكر لك الآن حفظك الله وأصلحك وأصلح بك القبائل التي يجمعها هذا الاسم أعني المصامدة وحد بلادهم لتعرفهم ممن سواهم من البربر وحد بلادهم النهر الأعظم الذي يصب من جبال صنهاجة وينتهي إلى البحر الأعظم بحر اقنابس يدعى هذا النهر أم ربيع عليه قبيلتان احدهما تسمى هسكورة وأخرى صنهاجة وهما من المصامدة وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لتونة ومسوفة وسرطة وهؤلاء ليسوا بمصامدة وقد كانت المماسكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم فهذا حد بلاد المصامدة عرضاً وحدها طولاً من الجبل المعروف بدرن إلى البحر الأعظم المسمى اقنابس وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم هسكورة وصنهاجة ودكالة وحاجة ورجراجة وجزولة ولطة وجنفيسة وهنتانة وهرغة وقبائل أهل تينملل وحول مرا كش قبائل منهم أيضاً وهم هزمير وهيلانة وهزرجة يدعونهم الموحدون بالقبائل فهؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ثم يجمع الكل جنس البربر من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وما وراء ذلك ممن ذكرنا من لتونة ومسوفة وسرطة

وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان وللمصامدة بعد هذا جند من
سائر أصناف الناس كالعرب والغز والاندلس والروم وقبائل من
المرابطين وغيرهم ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان فالصنف الاول
يدعون المجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمرا كش لا يبرحونها
والصنف الآخر يدعون العموم وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون
الى مرا كش الا في التغير الاعظم وعدد المرتزقة الذين بمرا كش
من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الاجناد على ما صح عندي
تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء الذين بمرا كش خارجا عما في سائر
البلاد من الموحدين وأصناف الجند واذا كان العرض العام فأول من
يعترض ذرية أبي حفص عمر الصنهاجي على طبقاتهم في أسنانهم ثم بعدهم
فرس الخليفة من بني عبد المؤمن ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم
ثم أهل خمسين ثم القبائل وأولهم عرضاً هرغة قبيلة بن تومرت ثم
بعدهم أهل تينملل ثم كومية ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم في
سعة الهجرة ويطأها وقد جرت عادتهم بالسكت الى البلاد واستعجال
العلماء الى حضرته من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وسموهم
طلبة الحضرة فهم يكثر في بعض الاوقات ويقولون وصنف آخر من
عنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد في كل مجلس عام
أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الاشياخ منهم
فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو يلقى
بأذنه كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ولا
يتفصلون من مجلس من مجالسهم الا على الدعاء يدعو الخليفة ويؤمن
الوزير جهراً يسمع من بعد من الناس ثم اذا سافروا لا يزال القرآن

يقرأ بين أيديهم بالغدو والعشي ركباناً وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر أن يخرج من ينادى الاستعانة بالله والتوكل عليه هذه عندهم للركوب فينشد يرك الناس ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القراية وأشياخ الموحدين بين يديه مشاة خطوات كبيرة ثم يأمرهم بالركوب فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبه الموحدين خلفه فيقرؤون حزبا من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيراً رقيقاً ثم شيئاً من الحديث ثم يقرؤون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا وإذا كان وقت النزول أيضاً نزلوا مشاة بين يديه إلى خيمته فإذا بلغها بسط يديه ودعا فلا يزال هذا دأبهم في جميع سفرهم كله

﴿صفة أحوالهم في إقامة الجمعة﴾

فاما صفة أحوالهم وخطبتهم في جمعهم فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخة في القبلة ويخرج معه خواص حشمه ويركع ركعتين ثم يجلس فيقرأ قارئاً قدر عشر آيات حسن القراءة حسن الصوت ثم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصى التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول قد فاء النبي ياسيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ثم يناوله ذلك الرجل العصى فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين أصواتهم في نهاية الحسنة قد انخبوا لذلك من البلاد ثم يقوم الخطيب فيخطب فأول شيء يقول الحمد لله نحمده

ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهدي الله
فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ونشهد أن لا اله الا الله وحده
لا شريك له ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً
بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله
فلا يضر الا نفسه ولا يضر الله شيئاً أسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن
يعطيه ويعطيهم ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه فانما نحن به وله
ثم يتعوذ ويقرأ سورة قاف من أولها الى آخرها ثم يجلس فإذا قام
الى الخطبة الثانية قال الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ونبرأ من
الحول والقوة اليه ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه
فقاتوا الانام جداً وعزماً وانفدوا وسعهم في نصره والصبر على ما
أصابهم فيه وفاء وصدقا وحزماً وعلى الامام المعصوم المهدي المعلوم أبي
عبد الله محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي
المحمدي الذي أيد بالعصمة فكان أمره حتماً واكتنف بالنور الالامع
والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة حتى لا يدع فيها ظلاماً ولا ظلماً
وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه رضى الله عنه في النسب الكريم المحتجب
لوراة مقامه العلي الخليفة الامام أبي محمد عبد المؤمن بن علي وعلي أبي
يعقوب ولي ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص
اللهم وارض عن المجاهد في سبيلك المحيي سنة رسولك الخليفة الامام
أبي يوسف أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين وعلي
الخليفة الامام أبي عبد الله ابن الخلفاء الراشدين اللهم وانصروني وعهدهم
الطالع في أفق سعدهم القائم بالامر من بعدهم الخليفة الامام أمير المؤمنين

أبديعوب ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين اللهم كما شددت به عرى الاسلام وجمعت على طاعته قلوب الأتنام ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام فاقض له بالنصر المقرون بالكمال والثام اللهم كما اجتبتك من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين فاجعله من المقفين لآثارهم المهتدين بمنارهم المقتبس من أنوارهم اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة اخوان نبيك وطائفة مهديك الذين أخبرت عنهم في صريح وحيك انهم لا يزالون ظاهرين على أمرك الى قيلم الساعة وأمدهم وكافة من انتظم في سلكهم من أنصار الدين وحزبك الموحدين بمواد النصر والتكئين والفتح المبين واجعل لهم من عضدك وتأيدك أعز ظهير وأكرم نصير ثم يدعو وينزل فيصلي فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمن الوزير على ما تقدم فهذه كليات سيرتهم مجملة علي ما يقتضيه شرط التقريب وفي أثناء ذلك تفاصيل يطول شرحها وليس بالناظر في هذا الكتاب إليها كبير حاجة إذ قد بين له ما يستدل على ما لم يرسم في هذه الاوراق بما رسم

وهذا أصلحك الله منتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسير ملوكه ووزرائهم وكتائبهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة وقد تقدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل مع أن اصغر خدم مولانا لم تجر عاداته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به وإنما بعثه عليه الهمة الفخرية أعلى الله رتبها فما كان من احسان فالى تلك الهمة العلية نسبته وعنها منبعتة وما كان من غير ذلك فأغضاؤها يستره ومساحتها تغمره وقد رسم مولانا حرس الله مجده أن يضاف الى هذا التصنيف ذكر أقاليم المغرب وتعيين مدنه وتحديد ما بينها من المراحل عدداً من لدن برقة

الى سوس الأقصى وذكر جزيرة الاندلس وما يملكه المسلمون من
مدنها على ما تقدم فلم ير المملوك بدءاً من الجرى على العادة في سرعة
الاجابة وامتنال مرسوم الخدمة لوجوب ذلك عليه شرعاً وعرفاً هذا
مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل في باب المسالك
والممالك وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ككتاب أبي عبيد البكري
الاندلسي وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً وكتاب ابن خردادبه
الفارسي وكتاب الفرغاني وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة
له ونحن ان شاء الله ذاكرون من ذلك موافقة لرأي مولانا العالي
ما يقف به على حدود البلاد ويصور له صورتها على التقريب من غير
تعويل جارين في ذلك على ما سلف من عادتنا في سائر الكتاب فنقول
وبالله التوفيق ومنه الاعانة قد تقرر واشتهر ان أول حد البلاد المصرية
مما يلي الشام العريش وآخره مما يلي المغرب مدينة انطابلس المعروفة
ببرقة هذا عرض الديار المصرية وحدها في الطول من ثغر أسوان الى
مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومي هكذا ذكر أصحاب
المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن وأول حد بلاد افريقية والمغرب
مدينة انطابلس المذكورة المدعوة ببرقة بناها الروم فكانت حاضرة لتلك
البلاد ومجتمعاً لاهلها افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة
أعنى انطابلس الى مدينة طرابلس المغرب قريب من خمس وعشرين
مرحلة وما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب خمس وأربعون مرحلة
وكانت العبارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشي
فيها القوافل ليلاً ونهاراً وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس المغرب

حصون متقاربة جداً فاذا ظهر في البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس الى الاسكندرية أو من الاسكندرية الى طرابلس في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد الى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنوعيب بينهم وبين الطريق الى المغرب وذلك في حدود ٤٤٠ حين تغير ما بينهم وبين العزيز بن باديس الصنهاجي وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لى العباس فاستولى الخراب عليها الى وقتنا هذا واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم فهم اليوم بها وآثار المدن والحصون باقية الى اليوم ومدينة انطابلس هذه خراب لم يبق منها الا آثارها وفيما بين برقة وطرابلس حصن يسمى طلميشة بالقرب منه معدن كبريت فاما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة الى هذا الوقت وهي أول مملكة المصامدة وقد استولى عليها في مدة ملكهم وفي ملك أبي يعقوب منهم المملوك قراقش المتقدم ذكره في ترجمة أبي يوسف ثم أخرجه منها المصامدة واستولى عليها أيضاً يحيى ابن غانية وعلى كثير من افريقية حسب ما تقدم تلخيصه ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهي في ملكهم الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ فخذ بلاد افريقية مما يلي المشرق مدينة انطابلس المذكورة وحدها بما يلي المغرب المدينة المعروفة بقسطنطينة الهواء سميت بذلك لافراط علوها وشدة منعها ومسافة ما بين انطابلس وقسطنطينة المغرب قريبة من خمس وخمسين مرحلة فهذا حد افريقية طولا وعرضها يختلف بحسب مزاحمة

الصحراء العمارة ومباعتها وسميت افريقية بذلك لنزول افريقش من ولد حام بن نوح بها و افريقش هذا هو أبو البربر فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح خلا صنهاجة فانهم يرجعون الى حمير هذا كله قول أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه من لدن ذكر افريقش الى ذكر صنهاجة فأول مدن افريقية المعمورة طرابلس المغرب والمقدم ذكرها ومنها الى مدينة تسمى قابس عشر مراحل وقابس هذه على ساحل البحر الرومي وكذلك طرابلس وتنصب الى قابس هذه أنهار من بعض تلك الجبال التي تليها فهي بذلك أخصب بلاد افريقية وأوسعها فواكه وأعشاباً ومن قابس هذه الى مدينة صغيرة على الساحل أيضاً تسمى سفاقس أربع مراحل ومن سفاقس الى مهدية بني عبيد ثلاث مراحل وقد تقدمت صفة المهدية في أخبار أبي محمد عبد المؤمن بن علي وبظاهر المهدية المذكورة وقريب منها جداً مدينة تدعى زويلة بناها بنو عبيد حين بنو المهدية فاخصوا المهدية لانفسهم وحشمهم وأعيان جندهم ووجوه قوادهم وأسكنوا زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان وأراذل كتامة وغيرهم من أنبايعهم ولما ارتحل المعز الى مصر بعد أن افتتحها على يدي خادمه جوهرا ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زويلة هذه فاليهم ينسب الباب والحارة التي بالقاهرة اليوم ومن مهدية بني عبيد الى مدينة تسمى سوسة واليها تنسب الثياب السوسية مرحلتان ومن سوسة الى مدينة تونس ثلاث مراحل ولم تكن تونس هذه في قديم الدهر على أيام الافرنج مدينة وانما بنيت في أول الاسلام بناها عقبة بن نافع الفهري لمصلحة رآها وانما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تسمى قرطاجنة بينها وبين تونس نحو من

أربع فراسخ وهذه المدينة أعنى قرطجة هي كانت حاضرة افريقية أيام الروم وهي مدينة عظيمة ظهر فيها من قوتهم وشدة طاعة رعيهم لهم وفرط جبروتهم ما يعجب منه من تأمله ويعتبر فيه من وقف عليه وذلك أنهم جابوا إليها المياه من بعد شديد ونحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أيسرها جميع من في هذا العصر وكانوا يضاهاون بها مدينة القسطنطينية العظمى المنسوبة إلى قسطنطين بن هيلان ملك الافرنج ثم لما افتتح المسلمون افريقية في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه خربوا هذه المدينة المذكورة واتخذوا مدينة القيروان دار ملكهم ومقر ولايتهم وجمتمع جندهم ومركز جيوشهم وأسسوا على ساحل البحر مدينة تونس المذكورة وكان هناك قبل ذلك دير معظم عند الروم يزورونه من أقاصى بلادهم فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً وسموا المدينة تونس باسم الراهب الذي كان في ذلك الدير فإزالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا ولما خربت مدينة القيروان على ماسياتي الإيماة إليه صارت مدينة تونس حاضرة افريقية ومقر ولايتها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطجة المذكورة ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة ومعنى هذه اللفظة بلسان الافرنج جيدة ست مراحل وفيما بين تونس وبونة بلدة صغيرة تسمى بني زرت بينها وبين تونس يوم تام في البر للمجد ولبنى زرت هذه شأن غريب وذلك أنه يخرج في بحرها كلها طلع هلال نوع من السمك لم يكن في الشهر الذي قبل ذلك هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الألهة

وهذا منسوب الى الطلسات اعتنى به من عنى بخدمة القصر ومن مدينة
بونة الى مدينة قسطنطينة التي هي أحد حدى افريقية خمس مراحل
وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلا هذا
ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن افريقية وبها مما يلي
الصحراء مدن أنا ذاكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغت مما على ساحل
البحر من بلاد المغرب ومن قسطنطينة المغرب الى بجاية خمس مراحل
على الرق وبجاية هذه هي دار ملك بني حماد الصنهاجيين الذين تنسب
قلعة بني حماد اليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب الى موضع
يعرف بسوسيرات وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من
تسع مراحل لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها الى أن أخرجهم
عنها في ولاية يحيى منهم أبو محمد عبد المؤمن بن علي حسب ما سبق
ومن مدينة بجاية الى مدينة صغيرة تدعى الجزائر وتنسب الى قوم يقال
لهم بنو مزغنه قريب من أربع مراحل وهذه المدينة المعروفة بالجزائر
على ساحل البحر الرومي وكذلك مدينة بجاية ومن الجزائر هذه الى
مدينة صغيرة تسمى تنس أربع مراحل ومن مدينة تنس الى مدينة
وهران سبع مراحل ومن مدينة وهران الى مدينة سبتة على التقريب
ثمانى عشرة مرحلة وبساحل سبتة هذه يلتقي البحران بحر مانطس الذي
هو بحر الروم وبحر اقنابس الذى هو البحر الاعظم وهذا أول الخليج
المعروف بالزقاق وسعة البحر فيما بين سبتة والأندلس ثمانية عشر ميلا
ثم لا يزال يضيق الى أن ينتهى ذلك من عدوة البرر الى موضع يدعى
قصر مصمودة بينه وبين سبتة نصف يوم ومن جزيرة الأندلس الى
موضع يدعى جزيرة طريف مقابلا لقصر مصمودة المذكور فأضيق

ما يكون البحر هنالك وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلا ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر في كل وقت من أوقات النهار وقد ذكر المؤرخون ان الروم بنت في قديم الدهر قنطرة على هذا الخليج ثم طفت المياه فغطتها فيذكر قوم من أهل جزيرة طريف انهم يرونها أوان سكون البحر وهدونه حين تصفو المياه ومن مدينة سبته الى مدينة طنجة يوم تام في البر وطنجة هذه آخر الخليج الذي به يلتقي البحرين وهي على ساحل البحر الاعظم الذي لاعماره وراءه وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط المتصل ببحر الهند والحبشة وطنجة هذه آخر بلد بالمغرب المحقق وما بعدها من البلاد فاما هو في الجنوب كمدينة سلا ومدينة مراکش ثم لا يزال دائراً في الجنوب الى أن يأتي بلاد الحبشة والهند فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي مدينة انطابلس المعروفة ببرقة وآخرها مما على ساحل البحر الاعظم مدينة طنجة ومسافة ما بين ذلك على التقريب ست وتسعون مرحلة فهذا ذكر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب

ثم نعود الى ذكر ما ليس على الساحل من مدن افريقية والمغرب فنقول من مدينة قابس المتقدم ذكرها الى مدينة تسمى قفصة ثلاث مراحل ومن مدينة قفصة الى مدينة توزر أربع مراحل وتوزر هذه هي حاضرة بلاد الجريد وأم قراها وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين قسم يسمى قسطلية وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها وقسم يسمى الزاب وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها ومن مدينة توزر الى مدينة بسكرة أربع مراحل وبالقرب

من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس بينها وبينها مرحلتان فهذه
المدن التي نلي الصحراء من بلاد افريقية وتخللها قري كثيرة لم نذكرها
لصغرها وفيما بين مدينة تونس وتوزر مدينة القيروان المشهورة منها
الى الساحل ثلاث مراحل وهي كانت أعني القيروان دار ملك المسلمين
بافريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يولون عليها
الأمراء من قبلهم الى أن اضطرب أمر بني العباس واستبدت الأغالبة
بملك افريقية بعض الاستبداد وهم بنو أغلب بن محمد بن ابراهيم بن
أغلب التميميون فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزلوا بها الى أن
أخرجهم عنها بنو عبيد وملكوها أيام كونهم بافريقية ثم ولوا عليها حين
ارتحلوا الى مصر زيري بن مناد الصنهاجي فلم يزل زيري وبنوه ملوكا
عالميا الى أن كان آخرهم الذي أخرجه العرب عنها تميم بن المعز بن
باديس بن منصور بن بلجين بن زيري بن مناد المذكور فانتبهت الأعراب
وخربتها فهي كذلك خراب الى اليوم فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون
وأرباب البادية وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح الى أن
خربتها الأعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت
رحلة أهله في طلب العلم وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه
وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً
مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطنبلي
وغربها من الكتب فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها
في كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس
وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها
الى اليوم فهذه نبذة من أخبار افريقية وفيها مدن كثيرة قد خربت

لأعرف أسماءها لقلة معرفتي بتفاصيل أحوال افريقية لاني لم أدخل
منها إلا مدينة تونس خاصة أتيتها في البحر من الاندلس وذلك سنة ٦١٤
وانما نقلت ما نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع وفي
خراب القيروان على ما تقدم يقول أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن
شرف الجذامي

تري سيئات القيروان تعاظمت فحلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تك قدماً في البلاد الكبائر
فقسطنطينة آخر بلاد افريقية ما يلي البحر منها وما يلي الصحراء وما
بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير افريقية فأول ذلك بليدة صغيرة
قبلي بجاية في البر تسمى ميلة بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ومن بجاية
الى قلعة بني حماد أربع مراحل وهي أيضاً أعنى القلعة قبلي بجاية
وها أنا أذكر طريق السفر من بجاية الى مراکش فمن بجاية الى مدينة
تلمسان عشرون مرحلة وفيما بين ذلك بليدات صغار ككليانة ومازونة
ووهران وقد ذكرناها في بلاد الساحل وبين مدينة تلمسان وبين
البحر أربعون ميلاً وذلك يوم للمجد ومن مدينة تلمسان الى مدينة
فاس عشر مراحل سبع منها الى المدينة التي تدعي رباط تازا وثلاث الى
فاس وقبلي مدينة تلمسان في الصحراء مدينة سجلماسة منها الى تلمسان
عشر مراحل وهذه المدينة أعنى سجلماسة متوسطة في الصحراء مسافة
ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش على حد سواء فمن حيث قصدت
اليها من أحد هذه البلاد كان ذلك مسافة عشر مراحل ومدينة فاس
هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه اجتمع فيها علم
القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيروان

حاضرة المغرب فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعث العرب فيها
 واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن
 أبي عامر وابنه رجل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء
 من كل طبقة فراراً من الفتنه فنزل أكثرهم مدينة فاس فبقي اليوم
 على غاية الخضارة وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولقهم أفصح
 اللغات في ذلك الاقليم وما زلت أسمع المشايخ يدعونها بفداد المغرب
 وبحق ما قالوا ذلك فانه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في
 كل معنى الا هو منسوب اليها وموجود فيها وماخوذ منها لابدق لهذا
 القول أحد من أهل المغرب ولم يتخذ لتونة والمصامدة مدينة مراکش
 وطناً ولا جعلوها دار مملكة لانها خبير من مدينة فاس في شيء من
 الأشياء ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لتونة فلهذا
 السبب كانت مراکش كرسى المملكة والافدنية فاس أحق بذلك منها
 وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معاش
 وأخصب جهات وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها
 ويخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً يتفلق
 عليها أبوابها ويحيط بها سورها وفي داخلها وتحت سورها نحو من
 ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء
 يجلب اليها من غيرها الا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس
 هذه فانها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعوا اليه الضرورة بل هي
 توسع البلاد مرافق وتملأها خيراً ومن مدينة فاس الى مدينة مكناسة
 الزيتون يوم تام للمجد ومن مكناسة الزيتون الى مدينة سلا أربع
 مراحل ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الاعظم المسمى اقنايس

وهي في الجنوب كما ذكرنا ينصب إليها نهر يسمى وادي الرمان يصب
في البحر الاعظم المذكور وقد بني المصامدة على ساحل هذا البحر
مما يلي مراکش مدينة عظيمة سموها رباط الفتح كان الذي اختطها
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأتمها ابنه يعقوب وبني فيها مسجداً
عظيماً قد تقدم ذكره وقيل أنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك
وذلك أنه قال لهم تبشرون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر يعني
البحر الاعظم ثم يضطرب أمركم وتنقض عليكم البلاد حتى ما يبقى
بأيديكم إلا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم
كما كان فلما بناها سموها رباط الفتح وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة
النهر المذكور وقد بنو عليه قطرة من الواح وحجارة يعبر الناس
عليها حين يجزر النهر فإذا مدعبروا في القوارب وبين مدينة سلا هذه
ومدينة مراکش كرسى المملكة تسع مراحل فمراكش آخر المدن
بالمغرب وكان الذي اختطها ملك لمتونة تاشفين بن علي ثم زاد فيها بعده
ابنه يوسف بن تاشفين ثم زاد فيها بعدهما علي بن يوسف بن تاشفين
ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في نهاية الكبر فهي اليوم طولا
وعرضا قدر أربع فراسخ هذا إذا ضمت إليها قصور بني عبد المؤمن
وأجرى المصامدة فيها مياها كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك وبنوا فيها قصورا
لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك فصارت بذلك في نهاية الحسن
وغاية الكمال كما قال الاول

ليس فيها ما يقال له كملت لو أنه كمل

وبهذه المدينة أغنى مراكش مسقط رأسى وهي أول أرض مس جلدى
تراها وكان مولدى بها لسبع خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١ في

أول أيام أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام الى مدينة فاس فلم أزل بها الى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين في علم القرآن والنحو ثم عدت الى مراکش فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين ثم عبرت الى جزيرة الاندلس في أول سنة ٦٠٣ فادركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله الامعرفة بأسانهم وموالدهم ووفياتهم وعلومهم انفردوا دوني بكل فضيلة ولا مانع لما أعطي الله ولا معطي لما منع (يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم) فراكش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورة به وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة الابلديات صفار بسوس الأقصى فيها مدينة صغيرة تسمى تارودانت وهي حاضرة سوس واليها يجتمع أهلها ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زجنندر هي على معدن الفضة يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن وفي بلاد جزولة مدينة هي حاضرتهم تسمى الكست وفي بلاد لمطة مدينة أخرى هي حاضرتهم أيضاً تسمى نول لمطة فهذه المدن التي وراء مراکش فاما تارودانت وزجنندر فدخلتهما وعرفتهما ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم وخاصة الى مدينة المعدن المعروفة بزجنندر وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر اليهما الا أهلها خاصة



﴿ ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد
والكبريت والرصاص والزئبق وغير ذلك
وأسماء مواضعها ﴾

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذي بين برقة وطرابلس وأنه
بالقرب من حصن يدعي طلمينة وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب
من ساحل البحر يسمى تسمان فيه معدن حديد وفيما بين سلا
ومراكش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً
موضع يدعي إيسنتار فيه معدن حديد أيضاً وليس هذا الموضع على
طريق السفار إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه وبالقرب من مكناسة
الزيتون على ثلاث مراحل منها حصن يدعي وركناس فيه معدن فضة
وقد ذكرنا معدن زجندر الذي بسوس غير أن فضته ليست هناك أعنى
فضة معدن زجندر وبسوس أيضاً معدنان للنحاس ومعدن توتيا وهي
التوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر فهذا جملة ما بالعدوة
من المعادن وبجزيرة الاندلس معادن أيضاً فمنها معدن فضة ببلاد الروم
في الجهة المغربية بموضع يدعى شنترة وعلى أربع مراحل من مدينة
قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زئبق منه يفرق الزئبق على جميع
المغرب وفي أعمال المرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية
فيه معدن رصاص وفي أعمال المرية أيضاً على يوم ونصف منها موضع
يسمى بكارش فيه معدن حديد أيضاً وما بين دانية وشاطبة موضع
يسمى أوربة على نصف يوم من دانية فيه معدن حديد فهذا أيضاً جملة
ما بالاندلس من المعادن فاما الذهب فمستوفى اليها من بلاد السودان

﴿ ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب ﴾

فأول ذلك نهر ببلاد افريقية علي نصف مرحلة من مدينة تونس
يسمى بجردة ينصب من جبل هنالك ينتهي الى البحر الرومي ونهر
بحاجة الذي يسمى الوادي الكبير هو متزهها وعاليه بساينها وقصورها
ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباطنازا يدعي وادي مكلوية يصب في البحر
الرومي أيضاً ونهر يدعي سبو هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها
ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة وهذان النهران
ينصبان الى البحر الاعظم بحر اقنايس بعد أن يلتقيا بموضع يدعي
المعمورة وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعي بهتاً ينصب الى البحر الاعظم
أيضاً ونهر سلا المتقدم الذكر وفيما بين سلا ومراكش وعلى ثلاث
مراحل من مراكش نهر عظيم يدعي أم ربيع ينصب من جبال
صنهاجة من موضع يدعي وانسيفن يصب في البحر الاعظم أيضاً ونهر
على أربعة أميال من مراكش عليه قنطرة عظيمة يسمى تانسيفت
ونهر سوس الاقصي ونهر ببلاد حاحة يسمى شفشاوة هذه الأنهار كلها
تصب الى البحر الأعظم فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب التي
لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاء ولا صيفاً ولم تتعرض لذكر الاودية
الصغار والأنهار التي تيس في الصيف

﴿ ذكر جزيرة الاندلس وأسماء مدنها وأنهارها ﴾

فأما جزيرة الاندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم

بجزيرة أشبانية وقد تقدم ذكر حدودها في صدر هذا الكتاب فإني
ذلك عن اعادته هنا وكان دين أهلها في الدهر القديم دين الصابية من
عبادة الكواكب واستزال قواها والتقرب إليها بأنواع القرابين شهدت
بذلك طلسمات وجدت بها وضعتها القدماء من أهلها ثم انتقل أهلها إلى
دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام وكانت
هذه الجزيرة أغنى الاندلس من منظمة في مملكة صاحب رومية يستعمل
عليها من شاء من أصحابه فلم تزل كذلك والروم يملكونها وقاعدة
ملكهم منها مدينة تسمى طالقة على فرسخين من إشبيلية وهي مدينة
عظيمة باق أثرها إلى هذا اليوم إلى أن غلبهم عليها القوطا وهي قبيلة
من قبائل الأفرنج فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم
العظمى وانفرد القوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة فلما كوها أضخم ملك
قريباً من ثلاثمائة سنة وكانت دار ملك القوطا مدينة طليطلة وهي في
قريب من وسط الجزيرة فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم كما ذكرنا
إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة ٩٦ من الهجرة على
ما تقدم في صدر الكتاب فلما افتتحها المسلمون تخبروا قرطبة دار
ملكهم ومقر تدبيرهم وموضع حلهم وعقدهم فلم تزل قرطبة على ذلك
إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالاندلس بموت الحكم
المستنصر وتغلب أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه على هشام المؤيد بن
الحكم المستنصر حسب ما تقدم في صدر هذا الكتاب فهذا تلخيص
أخبار جزيرة الاندلس وأنا ذاكر أن شاء الله أول ما يلقاه من يعبر
إليها من حدودها ومدنها فأول ذلك أني أقول قد تقدم أن البحرين
بحر الروم وبحر اقنابس يلتقيان بساحل سبتة ثم يضيف الخليج

ويتقارب العدوتان حتى ينهي ذلك الى قصر مصمودة من العدو
 وجزيرة طريف من الاندلس ثم يأخذ في السعة وأول هذا الخليج
 مما بلى طنجة الجبل الخارج في البحر الاعظم المعروف بطرف اشبرتال
 وآخره الجبل الذي شرقي سبتة فاذا عبرت الى جزيرة الاندلس من
 سبتة كان الذي تنزل به المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء واذا عبرت
 من قصر مصمودة وقعت الى جزيرة طريف فالمدينة المعروفة بالجزيرة
 الخضراء هي في التحقيق على ساحل البحر الرومي وجزيرة طريف
 على ساحل البحر الاعظم وبين الموضعين أعنى الخضراء وطريف ثمانية
 عشر ميلا وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبل المعروف بجبل الفتح يسمى
 أيضاً جبل طارق وله طرف خارج في البحر يسمى طرف الفخ وعنده
 يلتقي البحران بجزيرة الاندلس فهذا تلخيص التعريب ببحر مجاز الاندلس
 فاما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصراني على أكثرها
 فأنا ذا كر أسماء المدن التي بأيدي النصراني في وقتنا هذا ومواقعها من
 الجزيرة من مشرق ومغرب من غير تعرض الى ما بينها من المسافات
 اذ كان كون النصراني بها مانعاً من معرفة ذلك فأول المدن في الحد
 الجنوبي المشرقي على ساحل البحر الرومي مدينة برشونة ثم مدينة
 طوكونة ثم مدينة طرطوشة هذه البلاد التي على ساحل البحر الرومي
 المذكور أعادها الله للمسلمين والمدن التي على غير الساحل في هذا الحد
 المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافرغة وقلعة أيوب هذه كلها يملكها
 صاحب برشونة لعنه الله وهي الجهة التي تسمى أرغن وفي الحد المتوسط
 ما بين الجنوب والمغرب من المدن مدينة طليطلة وكونكة واقليج
 وطلبيرة ومكادة ومشريط وويذ وأبله وشقوية هذه كلها يملكها

الادفنش لعنه الله وتسمى هذه الجهة قشتال وتجاور هذه المملكة فيما
 يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهي سمورة وشلمنكة والسبطاط
 وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج لعنه الله وتسمى هذه
 الجهة ليون وفي الحد المغربي الذي هو ساحل البحر الاعظم اقابس
 مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين وباجة وشنتره وشنثياقو ومدينة
 يابرة ومدن كثيرة ذهبت عنى أسماؤها يملكها رجل يعرف بآين الريق
 لعنه الله فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الاندلس مما بلى
 بلاد المسلمين ووراء هذه المدن مما بلى بلاد الروم مدن كثيرة لم تشهر
 عندنا لبعدها عنا وتوغلها في بلاد الروم لم يملكها المسلمون قط لانهم
 لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها وانما ملكوا معظمها واستولوا
 على أكثرها وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد
 وعدد المراحل التي بينها وقربها من البحر وبعدها حتى يبين ذلك ان
 شاء الله تعالى فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الاندلس اليوم حصن
 صغير على شاطئ البحر الرومى يسمى بنشكلة بينه وبين مدينة بلنسية
 ثلاث مراحل وهذا الحصن مما بلى بلاد الروم بينه وبين طرطوشة
 مرحلتان أو أكثر قليلا ثم مدينة بلنسية وهي مدينة في غاية الخصب
 واعتدال الهواء كان أهل الاندلس يدعونها في ما سلف من الزمان
 مطيب الاندلس والمطيب عندهم حزمة يعملونها من أنواع الرياحين
 ويعملون فيها الزجس والآس وغير ذلك من أنواع المشومات سموها
 بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها وبين بلنسية هذه
 جو بين البحر الرومى قريب من أربعة أميال ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة
 بينها وبينها مرحلتان وبينها مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر وسميت

جزيرة لانها في وسط نهر عظيم قد حُف بها من جميع جهاتها فلا طريق اليها الا على القنطرة ومن شاطبة هذه الى مدينة دانية التي على ساحل البحر الرومي يوم تام ومن شاطبة الى مدينة مرسية ثلاثة ايام ومن مرسية الى البحر الرومي عشرة فراسخ ومن مدينة مرسية الى مدينة اغرناطة سبع مراحل وبين ذلك بلاد صغار اولها مما يلي مرسية حصن لركة ثم حصن آخر يدعى بلس ثم حصن آخر يدعى قلية ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة ثم بليدة اخرى على مسيرة يوم من غرناطة تسمى وادي آش ويقال لها أيضاً وادي الأثنى هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها في أشعارهم فهذه البلدات التي بين اغرناطة ومرسية وفي مقابلة وادي آش على ساحل البحر الرومي مدينة المرية محققة الزاء وهي مدينة مشهورة تضرب أمواج البحر في سورها بينها وبين وادي آش هذه مرحلتان للمجد وبعد المدينة المعروفة بالمرية على ساحل البحر الرومي حصن منكب وهي بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها بينها وبين المرية أربع مراحل وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد وبالجزيرة الخضراء أو بجبل الفتح يلتقي البحران كما ذكرنا فالذي على ساحل البحر الرومي من بلاد المسلمين بالاندلس الجزيرة الخضراء ومالقة ومنكب والمرية ودانية وبين المرية ودانية نحو من ثمان مراحل ووراء دانية الحصن الذي يسمى بنشكلة وقد تقدم ذكره فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالاندلس أعني ما يضرب الموج في سوره فأما مدينة بلنسية فيبينها وبين البحر كما ذكرنا قريب من أربعة أميال ثم نعود الى ذكر البلاد التي ليست على الساحل فنقول

من مدينة أغرناطة الى البحر قريب من أربعين ميلا وذلك مسيرة يوم
تام أو يومين على الرفق ومن مدينة أغرناطة الى مدينة جيان مرحلتان
قبين جيان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل ومن مدينة جيان الى
مدينة قرطبة مرحلتان وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وانها كانت دارملك
المسلمين ومقر تدبيرهم الى أن نشأت الفتنة واختل أمر بني أمية
بالاندلس وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس
مبلغاً لم تبلغه بلدة حكي عن ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال
كان بالريض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن
المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع
جهاها وقيل انه كان فيها ثلاثة آلاف مقلس وكان لا يتقلس عندهم في
ذلك الزمان الا من صلح للفتيا وسمعت ببلاد الاندلس من غير واحد
من مشايخها أن الماشي كان يستضيء بسرج قرطبة ثلاث فرائخ لا ينقطع
عنه الضوء وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن
محمد المتلقب بالناصر لدين الله وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله
فزيادة الحكم معروفة الى اليوم وحكي أبو مروان بن حيان رحمه الله
في أخبار قرطبة أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة في الجامع اجتنب
الناس الصلاة فيها أياماً فبلغ ذلك الحكم فسأل عن علته فقيل له انهم
يقولون ما ندري هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبها
فاستحضر الشهود والقاضي أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطي المتقدم
الذكر في قضائه واستقبل القبله وحاف باليمين الشرعية التي جرت العادة
بها انه ما أنفق فيه درهماً الا من خمس المغنم وحينئذ صلي الناس فيه

لما علموا بيته ومن الخمس أيضاً كان أبوه بناء وزاد فيه أبو عامر محمد ابن
أبي عامر زيادة أخرى من هذه النسبة فهو مسجد لم ينفق فيه درهم
الامن خمس المغنم وهو معظم القدر عند أهل الأندلس مبارك لا يصل
فيه أحد ويدعو أبشئ من أمر الدنيا والآخرة إلا استجيب له قد عرف
ذلك من أمره واشتهر وحكي غير واحد ان الأندلس لعنه الله لما دخلها
في شهر سنة ٥٠٣ دخل النصارى في هذا المسجد يخيلهم فاقاموا به
يومين لم تبل دوابهم ولم ترث حتى خرجوا منه وهذه الحكاية مما تواتر
عندهم واستفاض بقرطبة وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل
قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء
ومن مدينة قرطبة الى مدينة اشبيلية ثلاث مراحل واشبيلية هذه هي
حاضرة الأندلس في وقتنا هذا وهي التي تسمى عندهم في قديم الزمان
حصص سميت بذلك لنزول أجناد حصص اياها حين افتتح المسلمون
الأندلس وقد زاد أمر هذه المدينة على صفة كل واصف وأتى فوق
نعت كل ناعت وهي على شاطئ نهر عظيم ينصب من جبل شقورة
وتنصب فيه أنهار كثيرة فلا يصل الى اشبيلية الا وهو بحر خضم تصعد
فيه السفن الكبار من البحر الاعظم ترسى على باب المدينة بينها وبين
البحر الاعظم سبعون ميلاً وذلك مرحلتان وهذه المدينة كانت قاعدة
ملك بني عباد حسب ما تقدم ثم صيرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم
بالأندلس منها ينفذ أمرهم وفيها يستقر ملكهم وبنوا بها قصوراً عظيمة
وأجروا فيها المياه وغرسوا البساتين فزاد ذلك في حسن هذه المدينة
أعنى اشبيلية ومن اشبيلية الى مدينة شلب التي على ساحل البحر الاعظم
خمس مراحل وبين ذلك بليدات صفار كمدينة لبلة وحصن مرتلة

ومدينة طبيرة ومدينة العليا والمدينة المعروفة بشنمرية هذه البلاد كلها فيما بين شاب واشيلية من مغرب الاندلس وبين قرطبة وبين الرومي خمس مراحل وقرطبة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب الى اشيلية الا أنه عند اشيلية يعظم جداً حتى تصعد فيه السفن كما تقدم ويخدر من أراد في القوارب من قرطبة الى اشيلية ويصعدون من اشيلية الى قرطبة كهيئة النيل وبين مدينة اشيلية ومدينة شريش مرحلتان وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الاندلس ومسافات الابعاد التي بين كل بلد وبلد على التقريب منها ما سافرت فيه بنفسى ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السفار المتردين

(فصل) وقد رأيت أن أذكر هنا جملة أنهار الاندلس الكبار المشهورة بها فأول ذلك مما على المشرق نهر طرطوشة وهو نهر عظيم ينصب من جبال هناك الى مدينة طرطوشة ثم يصب في البحر الرومي وبين طرطوشة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلاً ثم مرسية وهو يصب أيضاً في البحر الرومي منبعا من جبل شقورة وهو قسم نهر اشيلية منبهما واحد ثم يفرقان فينصب هذا الى اشيلية وهذا الى مرسية ثم نهر اشيلية الاعظم وقد تقدم ذكر منبعا ثم تنصب فيه قبل وصوله الى اشيلية أنهار كثيرة فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا ثم يصب في البحر الاعظم المسمى اقنايس ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو وهو الذي عليه مدينة طليطلة وشنترين وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الاشبونة وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ثم ينصب هذا النهر الى البحر الاعظم فهذه جملة

أنهار الاندلس المشهورة بها وقد نجز بحمد الله جميع هذا الاملاء حسب ما
 رسمه مولانا وجريت في ذلك كله على عادتي في التلخيص وترك أسماء
 القرى والضياع والانهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو اليه الحاجة ولا
 يخل بالتصنيف تركه فان وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتني وفق مراده
 فهي البغية الكبرى والامنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسى فيها
 وأسابق اليها وان يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فخرم الاصابة ولم
 يقع على المراد ولا وفي بالمقصود وباللّه اعتمد واياه استرشد وعليه اعتمد
 وهو حسبي ونعم الوكيل

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في شهر
 شعبان من سنة ١٣٢٤ والحمد لله
 رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد
 وعلى آله وصحبه أجمعين
 وحسبنا الله ونعم
 الوكيل
 تم

﴿ فهرست كتاب تاريخ الاندلس ﴾

صحيفة

- | | |
|----|---|
| ٢ | خطبة الكتاب |
| ٤ | فصل في ذكر جزيرة الاندلس وحدودها |
| ٦ | ذكر فتح جزيرة الاندلس |
| ٩ | ذكر من دخل الاندلس من التابعين |
| ١١ | ذكر خبر دخول عبد الرحمن بن مغاوية الاندلس |
| ١٢ | ولاية الامير هشام بن عبد الرحمن |
| ١٢ | ولاية الحكم بن هشام |
| ١٧ | ولاية هشام المؤيد |
| ٢٦ | ولاية محمد بن هشام |
| ٢٧ | ولاية سليمان بن الحكم |
| ٣٣ | ولاية علي بن حمود الناصر |
| ٣٣ | ولاية القاسم بن حمود |
| ٣٥ | ولاية يحيى بن علي المبتلى |
| ٣٥ | ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر |
| ٣٦ | ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله |
| ٣٧ | ولاية هشام المعتد بالله |
| ٣٩ | ذكر أخبار الاندلس بعد انتقال الدعوة الاموية عنها ومن
ملكها من الملوك الى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ |
| ٤٦ | فصل يتضمن ذكر أحوال الاندلس بعد انقطاع الدعوة الاموية |

- عنها على الاجال لا على التفصيل
- ٥٨ ولاية المعتض بالله العبادى
- ٦٣ ولاية أبى القاسم بن عباد المعتمد على الله
- ١١٥ ذكر قيام محمد بن تومرت المتسمي بالمهدى
- ١٢٥ ذكر ولاية عبد المؤمن
- ١٥٣ ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها
- ١٧٢ ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
- ٢٠٥ ذكر ولاية أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف أمير المؤمنين
- ٢١٧ ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد
- ٢٢٣ جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم في طعنهم واقامتهم
- ٢٢٥ ذكر قبائل الموحدين
- ٢٢٨ صفة أحوالهم في اقامة الجمعة
- ٢٤٣ ذكر أسماء الانهار العظام التي بالمغرب
- ٢٤٣ ذكر الاندلس وأسماء مدنها وأنهاها
- ٢٤٢ ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص
- والزبيق وغير ذلك وأسماء مواضعها
- (تمت)

This book should be returned to
the Library on or before the last date
stamped below.

A fine is incurred by retaining it
beyond the specified time.


Please return promptly.

WIDENER
WIDENER

JAN 12
FEB 10 2007

CANCELLED

02
28832
84.1B

Widener Library

3 2044 095 059 580

